حبيب عبدالرب سروري

لِنتعلّمْ كيف نتعلّمْ!

استخلاصات شاهدٍ على حضارة جديدة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

حبيب عبدالرب سروري

لِنتعلّمْ كيف نتعلّمْ!

إستخلاصات شاهد على حضارة جديدة

رياض الريس للكتب والنشر

جميع الحقوق محفوظة©

إهداء

«لا تعطني سمكة لعشاء هذه الليلة، لكن علّمني كيف أصطاد السمك لأتعشى مدى العمر!». **حكمة صينية.**

قضى العبد ليلته مخدّراً في أحضان الأميرة، قبل أن يُرمى عند الفجر في غبار الشارع. بعد أن استيقظ من تخديره، أسرتْهُ الحيرة. قال: «لا أدري ما حدث لي الليلة الماضية، هل كان حلماً أم لا؟ ليس ذلك المهم. الأهم: عشت تجربةً ما. صرتُ أبحث الآن عن شيءٍ ما لا أدري ما هو، وأين هو!».

من وحي كتاب «منطق الطير» للصوفي فريد الدين العطار.

«البوسات» المكتوبة في نهاية الرسائل لا تصل صوب وجهتها، لأن الأشباح الافتراضية تشربها في منتصف الطريق. بفضل هذا الغذاء الدسم تتضاعف الأشباح على نحوٍ خرافي. تشعر الإنسانية بذلك، وتناضل ضد خطورته: حاولَت قدر ما تستطيع إقصاء العلاقات الشبحية بين الناس، بحثاً عن علاقات طبيعية ملموسة، وعن ترميم السلام بين الناس، مخترعةً لذلك السكك الحديدية، السيارة، الطائرة...

لكن السقوط كان قد بدأ قبل ذلك، والعدو الشبحي قد انتصر. هو هادئ واثق من نفسه بلا حدود. فبعد البريد، اخترع البرقيات اللاسلكية[1] ... » الأشباح لن تموت من الجوع، أما نحن فمندثرون».

كافكا: «رسالة إلى ميلينا»، ١٩٢٢.

---

(1)_{والإيميل، النصيصات الهاتفية (إس إم إس)، واتساب...} الإضافة هنا للكاتب.

مقدمة

كان هدفي الأول، في كتابي السابق، الصادر عن «رياض الريس للكتب والنشر» خلخلة بعض المسلمات الشعبية العتيقة السائدة، التي تشكل أرضيةً خصبة للعقلية اللاعلمية.

كمثال: فصلُ «الإنسان جسدٌ لا غير، روحهُ دماغه»، في ذلك الكتاب، يدحضُ المفهومَ البدائي جداً، ذا الأصول الأسطورية، للروح باعتبارها نفخة ميتافيزيقية تختفي كشبحٍ داخل جسدٍ من صلصال، ويستبدل به منظور العِلم:

الإنسان جسدٌ لا غير، يقوده الدماغ (بآلاف مليارات عصبوناته التي يتفاعل كل واحد منها، في إطار شبكة شاسعة معقّدة من التيارات الكهروكيماوية، مع عشرة آلاف عصبون في الوقت نفسه): منبع كل النشاطات الروحية ومقرها: الذاكرة، اللغة، المشاعر، الوعي، اللاوعي...

قلتُ: يقوده الدماغُ، وليس - كما هو في المسلمات الدينية والشعبية اللاعلمية - القلب الذي صار من الممكن اليوم استبدال قلب اصطناعي كامل به!

مثال آخر: فصل «سماؤهم وسماؤنا» يدحض سماء الأساطير والأديان المسيطرة على الثقافة الشعبية والعامة، ويستبدل بها سماء العِلم الذي فتح مصراعيها تيليسكوب غاليلو، وهو يلغي المسلمات الفلكية والدينية العتيقة، ليتأسس العِلم الحديث على أنقاض تلك المسلمات!

مثال آخر: فصل «من كتبَ التوراة؟ وأسئلة قرآنية مشابهة» يواجه التاريخ الديني بالتاريخ العلمي المختلف عنه جذرياً في منهج البحث عن الحقيقة ودراستها ونقدها. ويزعزع، مع فصول أخرى في الكتاب، جبالاً من الخرافات المهيمنة على ثقافاتنا الشعبية...

في كتابي الجديد هذا، انتقلُ إلى مرحلةٍ جديدةٍ تتجاوز نقاش مسلمات ثقافتنا العتيقة ودحضها: أسعى هنا، بروح منهج أبي العلاء بالطبع، إلى الخوض في تعقيدات حضارتنا الجديدة، لاكتشافها وإجلاء أهم معالمها، ولا سيما في الفضاء العلمي والتكنولوجي والاجتماعي، ونقدها ومواجهتها والانخراط فيها أيضاً، وذلك بغية تكريس حضورٍ عربيٍ أفضل فيها. إذ ثمة بديهية تفقأ العين: ننتمي جميعاً إلى حضارة إنسانية جديدة تخرج أمام ناظرينا من صلب وترائب الخوارزميات والأجهزة الإلكترونية:

حضارةُ الذكاء الاصطناعي الجبار الذي هزم بفضل برنامج «ألفاغو»، في

ربيع ٢٠١٦، لي سيدول، بطلَ العالَم في لعبة «الغو»، الأصعب والأهم من لعبة الشطرنج، بما لا حدّ له؛ وذات التطبيقات العلمية والعسكرية والمالية الواسعة!

حضارةُ السيارات بدون سائق، النسور والمناطيد التي بدأت التحليق فوق جمجمة الكرة الأرضية لتوزيع شبكات الإنترنت مجاناً، حضارة البرمجيات الذكية التي ستحل رويداً رويداً محلَ الأطباء والجراحين والممرضين والمحامين والقضاة والأساتذة الجامعيين ومعظم المهنات العملية، حضارة الروبوتات الطيبة التي تدير شؤون حياتنا في المنزل، أو الفتاكة التي تحلّ محل الجيوش لتدميرنا أبشع تدمير!

كل ذلك قبل مرحلة لاحقة من الذكاء الاصطناعي يصعب سبر أغوارها من الآن: مرحلة السيارات الطائرة بلا شك، والانتصار على الموت (من يدري؟).

ينقسم هذا الكتاب إلى بضعة محاور.

محوره الأول: «الطبيعة الإنسانية ٢.٠». أي: الطبيعة الإنسانية، في عصر الوسائل التكنولوجية الحديثة.

بالطبع، لا يختلف الضجر الإنساني ٢.٠، في العمق، كثيراً عن الضجر الأزلي، لكنّ ثمة جديدٌ في ملامحه وتجلياته تستحق الدراسة.

في هذا المحور نسلط الضوء على معالم كثيرة من طبيعتنا الإنسانية، من الغباء والضحك والنكتة إلى التفكير والخيال والسعادة. نخوض أيضاً في شفرة الحياة وشجرة أنساب الإنسان في ضوء علوم اليوم.

اللغة، كواجهة ووعاء للطبيعة الإنسانية، تهمّنا كثيرا في هذا المحور: تاريخها، كيف بدأت، وكيف بدأ الإنسان.

ويهمنا هنا، بشكل خاص، موقع اللغة العربية اليوم. نواصل في هذا الكتاب مشروعاً بدأناه في كتاب «لا إمام سوى العقل» لتحرير هذه اللغة، وتطويرها قاموسيّاً وتقنيّاً، لتكون وطناً حديثاً يسمح بتفكير عصري منفتح على المعارف وأدوات العالَم الرقمي والفكر العالَمي الحر.

ينتهي هذا المحور الدائر حول الإنسان بفصولٍ تُقدِّم الثقافة كوسيلة استيعاب الطبيعة الإنسانية وتعقيدات العالم، ومقاومة كآباته. الثقافة بوجهيها الأبولوي والديونيزوسي، وترياقها المتخصص بتنقية المشاعر الجمعية بالكوميديا («كاتارسيس»، حسب مصطلح اخترعه الإغريق): المسرح.

المحور الثاني: كوكبنا الأزرق اليوم.

مهمٌ جداً، بل في غاية الأهمية، استيعاب ما يعانيه كوكبنا الأزرق من تدمير لمنظومته البيئية جزاء أنانية الإنسان، وغبائه الجذري كما قدّمناه في

المحور الأول في فصلٍ عن قوانين الغباء البشري، والبحث المجنون لحضارتنا المارقة وقواها المالية عن الربح السريع بأي ثمن.
فمارد الطبيعة يلفظ حمماً وتسونامیات يمكنها أن تغرق كوكبنا المسكين. احترام نواميسها لا يقبل التأجيل. هو شرط جوهري لبقاء حضارة الإنسان على الأرض. ولنا في موت «البطريق العملاق الأخير» (أحد فصول هذا المحور) عبرة يا أولي الألباب!
المحور الثالث والأخير من الكتاب: معالم حضارتنا الجديدة.
يحاول هذا المحور سبر أغوار أهمّ معالم هذه الحضارة الجديدة، ولا سيما في فضاء الإنترنت والتكنولوجيا الحديثة، والحياة الاجتماعية الجديدة، وفي عوالم الذكاء الاصطناعي، في خلال العشر سنوات القادمة، وحتى عام ٢٠٢٧ تقريباً. تهمّني هذه السنوات بشكل خاص! أتابع برامجها بحكم عملي الجامعي. كان عام ٢٠٢٧ أيضاً مسرح روايتي الأخيرة: «حفيد سندباد» التي تدور أهم وأفتك أحداثها الروائية في خلاله.
مقالاتٌ عدّة في هذا المحور تتناول معالم هذه الحضارة الحديثة: الأتمتة والتجسس الإلكتروني، البيانات العملاقة، المسيطرون على لاوعينا الرقمي، المدن الذكيّة، القراءة الإلكترونية والقارئ الضوئي الذي ما زلنا نفتقده وحدنا نحن العرب حتى اليوم، الموسوعات والمكتبات الرقمية الحديثة، "المووكات" (المساقات الهائلة المفتوحة عبر الإنترنت: Mooc) والتعليم الرقمي، الرقمنة والاسترقام، ومستقبل الذكاء الاصطناعي.
دَور التعليم في هذا المحور في غاية الأهمية. شَرَحنا في كتابنا السابق: «لا إمام سوى العقل» الأسسَ المتخلّفة المتخثّرة للتعليم العربي، ولا سيما غياب تعليمِ ما وراء المعارف، المبني على تحفيز عقلية التساؤل والشك والنقد والرفض وعشق الحريّة والبحث عن البرهان والفصل بين الحقيقة الدينية والحقيقة العلمية، أي على تعليم طرائق صناعة المعارف الحديثة. وكذلك غيابُ تقديم المعارف للطالب عبر تشييد وتحديث بنيةٍ تحتيّةٍ من المحاضرات والدروس والمقالات النموذجية المفتوحة للجميع، والتي تضمن الوصول الأمثل للمعارف إلى الإنسان، بأحدث وأسهل وأمتع الوسائل والطرق.
لعلّ فصل: «عندما ينقطع في الجبين عرق الدهشة» يكشف بجلاء عمق مأساة وضعنا التعلمي العربي اليوم. إذا ما تذكّرنا المثل الصيني الشهير «لا تعطني سمكة لعشاء هذه الليلة، لكن علّمني كيف أصطاد السمك لأتعشّى مدى العمر!»، فجودة التعليم الحديث تكمن في أنه يُدرّسُ المرء أوّلاً اصطياد السمك: ما وراء المعارف، ويُهديهِ أدسم السمك وأحلاه في الوقت

نفسه: المعارف.

بفضلهما معاً، تنهض الشعوب وتتواصل ابتكاراتها وريادتها الحضارية. وبفضلهما دخل عصرنا مرحلة جديدة من الذكاء. لأن من أهمّ معالم اليوم مقدرة الكمبيوتر على أن يتعلّم كيف يتعلم. أي أن يحاكي الدماغ الإنساني وهو يتعلم، ثم يتجاوزه بعد ذلك، بفضل سعةِ ذاكرته وامتلاكه قواعد بيانات عملاقة يستلهم منها، تحتوي على أرشيف كل التجارب الإنسانية، وعلى عدد لانهائي من التجارب الاصطناعية التي يستطيع الكمبيوتر أن ينتجها لوحده، لتطوير كفاءاته الشخصية المستقّلة، وللتعلم من تجارب لم يمرّ بها الإنسان!

خلاصة القول: يتنقّل كتابي هذا في أقبية حضارتنا الجديدة، ليُبرِز معالمها واتجاهاتها الرئيسة، بغية الاندماج بها سريعاً، ومن موقعٍ أفضل: مقاومِ فاعلٍ نضاليٍ ومؤثر. من موقع يعشق الوجهين الأبولوي والديونيزوسي للإبداع الإنساني.

كمهتمٌ بالعلم والأدب معاً، أجد في عناق هذين الوجهين معاً ضالتيَ الأثيرة. تتمحور بوصلة كثير من فصول هذا الكتاب في اتجاهِ ذلك العناق، ومن وحيه. ثمّة، حيث تلتقي التكنولوجيا بالميثولوجيا، العقل بالخيال، الثقافة والفن بالكمبيوتر، والعشق بالمقاومة من أجل انتصار الإنسان والحرية والحياة.

المحور الأول: الطبيعة الإنسانية ٢.٠

هل أخلاقنا سامية فعلاً

للاحتكاك بالناس، وسبر أغوار آرائهم، كان من اللازم قديماً التسكّع في المقاهي وأركان الشوارع، والتلصّص على همز ركاب الباصات ولمزهم، والتغلغل في المنتديات الشعبية المغلقة.

في عصر الشبكات الاجتماعية على الإنترنت، يمكن استشفاف صورة سكانير دقيقة لآراء العامة، من داخل برج عاجي أرستقراطي. يكفي لذلك الإبحار في تعليقات «المفسبكين» ومنشوراتهم مثلاً، والمتابعة لجدلهم، والإصغاء إلى آهاتهم الحميمة.

في خوض هذه التجارب «التلصصية» مادة لا حدّ لثرائها لمن مشروعه التنويري: خلخلة المسلمات الثقافية الشعبية التي تكرّس استمرار تأخرنا الحضاري العربي.

إحدى هذه المسلمات، التي يشترك في الإيمان بها مثقفون كبار، وأميون معاً: سموّ أخلاق الإنسان عندما يلتزم القيم الدينية، على غيره من البشر!

قد يكون مقبولاً أحياناً أن بعض القيم الأخلاقية التي جاءت بها الأديان والمعتقدات الروحية الإنسانية كانت أرقى من القيم الشعبية السائدة قبل مجيء تلك الأديان. إلا أن مئات أو آلاف السنين قد مرّت على ولادة تلك القيم الأخلاقية الدينية العتيقة، لتتجاوزها اليوم قيم حضارة «ميثاق حقوق الإنسان».

ألغت الأخلاق المدنية الحديثة لهذه الحضارة، على سبيل المثال، ممارسة العبودية وامتلاك الجواري (التي سمحت بها جميع الأديان «السماوية»)، ونصّ ميثاق هذه الحضارة، الصادر في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ والذي تبدأ أول عبارة فيه بـ«يولد الناس أحراراً ومتساوين»، على تساوي الجميع دون تفضيل المنتمي إلى هذا النسب أو اللون أو الدين أو الإلحاد على غيره.

ثم من السهولة جداً اليوم كتابة «نظام داخلي»، من نصف صفحة فقط، يحوي أنبل وأسمى قائمة لِمكارم الأخلاق الإنسانية، في أرقى حللها، يبدأ أوّل سطرٍ فيه باعتناق تعاليم «ميثاق حقوق الإنسان»، وثاني سطرٍ فيه باحترام قوانين مرور السيارات والدراجات وقيادتها في الطرقات والشوارع!

رقي هذه التعاليم الأخلاقية أو تلك، مرتبطٌ، قبل هذا وذاك، برقي المبدأ الجوهري الذي تتأسس عليه تلك التعاليم:

معظم التعاليم الأخلاقية الدينية مؤسسة - في الحقيقة - على مبدأ نفعي:

إذا مارست تعاليمها فأجرُك عدد من الحسنات، وإن لم تمارسها فعليك سيئاتٌ يمكنك محوها بـ«الاعتراف» أمام قسيس، أو بممارسة طقوس دينية كالأضحيات أو الحج.

طبيعي ذلك، لأنها تنتمي إلى نموذج وعصر شراء العبيد وبيعهم، وأسميت لذلك بـ«أخلاق العبيد».

ثمّة مبدأ آخر ينصُّ على أن «الأخلاق الفاضلة غاية بحدّ ذاتها»، لا تمارس لأجل ثواب، أو خوفاً من عقاب. تمارسُ لِجمالها بحدّ ذاته، دون بحثٍ عن أجر ما في«دكان الحسنات والسيئات»، كما يقول أبو العلاء المعرّي:

توَخَّني جميلاً، وافعليهِ لِحُسنِهِ

ولا تحكمي إنّ المليك به يجزي

ألا يلزم أن يكون هذا البيت حليب التربية الأخلاقية للمواطن الحديث؟

أو كما يقول حكيم المعزة أيضاً:

فلتفعلِ النفسُ الجميلَ لأنهُ

خيرٌ وأحسنُ، لا لأجلِ ثوابِها!

ألا يلزم أن يكون هذا البيت أيضاً منار السلوك اليومي للإنسان الحديث؟

الشعوب الحديثة التي يتغلغل في ثقافتها العميقة مبدأ «الفضيلة غاية بحدّ ذاتها»، كالشعب الياباني، تضرب أرقاماً نموذجية في السلوك الأمين وقلّة الفساد واختفاء السرقة. الشهادات والدلائل لمن عاش هناك تفقأ العين، إذا ما قورنت بسلوك شعوب أخلاق دكان الحسنات والسيئات.

عند التغلغل في الآراء والتعليقات الشعبية في الشبكات الاجتماعية، حول مقولة «سمو سلوكنا الأخلاقي بالمقارنة بالآخر»، نجد أن بعضها بالغة في سطحيتها وسذاجتها وتفاهتها معاً.

يقول بعضها: بفضل الدين، نحن لا نمارس «زنا المحارم»، مثل بعض الشعوب الأخرى!

جليّ أننا لا نختلف عن غيرنا من الشعوب، أو الحيوانات أيضاً، في تجنب ممارسة هذا السلوك المشين ورفضه، عدا حالات مرضية نادرة هنا وهناك معاً تتزايد في مجتمعات الكبت بالضرورة.

إذ لا يحتاج الإنسان أو الحيوان لتربية التعاليم الدينية لهذه الغاية، لأن نبذه صار متوارثاً ومطبوعاً بيولوجياً اليوم في جينات الإنسان، أو الحيوان عموماً، وذلك بعد ملايين السنين من التطور والانتقاء الذي يصطفي المواليد ذوي الثراء الجيني الآتين من أبوين متباعدين جينياً، عن الآتين من أبوين من نفس الأسرة، فضلاً عن الخرائب النفسية التي لا حدّ لها لأطفال زنا المحارم.

ثمّ لعلنا ضمن شعوب قليلة ما زالت تمارس عادات زواج أبناء وبنات الأعمام والأخوال، التي تجاوزتها ثقافات حديثة أخرى عديدة، لكونها في الجوهر سبباً لإنجاب أجيال ضعيفة بيولوجياً، أو لاعتبارها أحياناً نمطاً ذا صلةٍ ما بدوائر علاقات المحارم!

كشفتْ ملاحمُ الإنسان وأساطيره، كالإلياذة والأوديسة وجلجامش ومهابهاراتا، قبيل بضعة آلاف السنين، خريطةَ الطبيعةِ الإنسانية أيّما كشف. هذه الطبيعةُ التي تشكلت خلال ملايين السنين من التطوّر الدارويني، لِنرثَها أباً عن جد، والتي لن تتغيّر ربما إلا بعد مئات الآف السنين أو أكثر، مع الانتقال إلى سلالات بيولوجية جديدة تواصلُ مسيرةَ تطوّرِ وارتقاءِ هوموسابيانس.

بانتظار ذلك، يظلُّ «ابن آدم زي الإنسان» حسب مثلٍ شعبيٍّ يمنيٍّ ممتع، وتظلُّ عِبرُ الإنسان ودروسُ ملاحمه وأساطيره الأولى تُلخِّصنا أفضل تلخيص. وأهمُّها في رأيي قصةٌ سبقت الإلياذة والأوديسة، نجمت عنها سلسلةُ أحداثِهما: قصةُ تفاحة إلهة الشجار والفتنة، إيريس:

دعا كبير آلهة الإغريق، زوس، جميعَ الآلهة، إلا إلهة الشجار إيريس التي تعقدَ تناسيها، إلى حفلِ زواجٍ استثنائي في الأولمب، بضمّ إلهةٍ (تيتيس) وإنساناً (بيليه)!

انتقمتْ إيريس من عدم دعوتها بتسريب تفاحةٍ ذهبية إلى الحفل، مكتوبٍ عليها «مهداة إلى أجمل النساء!».

تفجّر الخلاف بين المدعوات لاختيار أجملهنّ، من ستحظى بالتفاحة. ثمّ انحصر التنافس في آخر المطاف على مرشحاتٍ ثلاث: هيرا، زوجة زوس، أثينا، ابنته المفضلة وأفروديت، خالته.

تعذّر على زوس اختيارُ الأجمل من بين أعزّ ذويه، وشعر بالضياع، فطلب من مبعوثه الإله هيرميس الذهاب إلى جبل إيدا، بصحبة الآلهات الثلاث، وترك اختيار أجملهنّ لمزاج راعٍ يصادفه في ذلك الجبل.

قابل هيرميس هناك راعياً شاباً لم يكن في الحقيقة إلا باريس، أحد أبناء بريام، ملكِ طروادة الذي نفى ابنه هذا هناك، لأن عرّافاً قال له إن حرب طروادة ستنفجر بسببه!

وعدتْ كل واحدةٍ من الآلهات الثلاث باريس، إذا ما اختارها، أن تهبَهُ أروعَ ما في ملكوتها: وعدتهُ هيرا بإمبراطورية، لكونها زوجةَ زوس. وعدتهُ أثينا، إلهة الفطنة والذكاء، بالمقدرات الذهنية التي ستسمح له بكسب الحروب. ووعدتهُ أفروديت، إلهة الجمال والعشق، بأن تمنحه قلبَ أجمل النساء: هيلين.

اختار باريس، مثل كل رجلٍ طبيعيٍّ في محله: أفروديت. فاز هكذا، حسب وعدها له، بقلب الإغريقية هيلين، زوجة مينيلاس، ملك اسبارطة، قبل أن

تتفجر بسبب ذلك حرب طروادة ورحلة الأوديسة التي تلتها.
أدركت الأديان، ولا سيما المسيحية في القرون الوسطى، هذه التأثيرات الثلاثة التي تتجاذب الإنسان منذ الأزل: المُلك والمال، العشق والجمال، الذكاء والانتصارات. وفرضت على رهبانها قواعد للحياة تفصلهم عنها: الفقر، «النقاء» الجنسي، الصمت والعزلة ونظام عمل يومي يستعبد الذهن... (نموذجٌ شهيرٌ لذلك الفرض: «القواعد الثلاث» للقديس كولومبان).
لا يختلف إنسان القرن الواحد وعشرين في عصر الإنترنت ٢.٠ عن سلفِهِ بالطبع. يدرك ذلك من دخلَ مثلاً سوق الفيسبوك، الذي يستعرضُ كل عضوٍ فيه نفسَه بانتظام، عبر منشوراتٍ يضعها أمام شبكة «أصدقائه»، ضمن شبكةِ شبكاتٍ تضمُّ ملياراً وخُمسَ مليار من أبناء كوكب الأرض. يلاحظ العضو سريعاً أنه يعيش بين أمواجٍ متلاطمةٍ من المنشورات والعروض السياسية والتجارية والثقافية والاجتماعية التي تسعى غالباً لِجرِّه بأذكى الطرق، المباشرةِ وغير المباشرة، إلى حقولِ الاستقطابات الثلاثة التي انطوت عليها قصة تفاحة إيريس. أدركت شركة الفيسبوك الأهميةَ القصوى لمقدرتها التأثيرية في الإنسان، والمردودات والنتائج غير المحدودة لذلك.
لِبرهنة ذلك، أجرى باحثوها تجربةً صادمةً مثيرة: غيّروا محتويات سلسلة المنشورات التي تصل إلى ٦٨٩٠٠٣ أعضاء تمَّ اختيارهم بالصدفة، في خلال أسبوع كامل من شهر يناير ٢٠١٢: في النصف الأول منه تركوا المنشورات التي تصل إلى الأعضاء المختارين تعجُّ بمشاعر إيجابية، وفي النصف الثاني منه وضعوا منشورات تعجُّ بالمشاعر السلبية.
لاحظ الباحثون في دراسةٍ نشروها في مجلة علمية (Pnas) أن الأعضاء المختارين نشروا هم أيضاً في خلال النصف الأول من الأسبوع أكثر من ثلاثة ملايين منشورٍ تطغى عليها المشاعر الإيجابية، وفي النصف الثاني كانت النتيجة مشابهة: طغت على ما نشروه المشاعر السلبية!
الخلاصة الخطيرة لذلك: المشاعر التي يتركها أصدقاؤنا على الشبكة تؤثر في مشاعرنا وسلوكنا، وتتفشّى كما لو كانت تنتقل كالفيروسات البيولوجية من إنسانٍ لآخر. هكذا، يمكن التأثير في مزاج الرأي العام، استهلاكياً أو سياسياً أو ثقافياً، بوضع كتلةٍ مهمة من المنشورات الفيسبوكية تتناغم مع اتجاهِ المزاج المأمولِ إنشاؤه! أثارت هذه التجربة ضجيجاً دولياً يُجرِّم سلوكَها الأخلاقي الذي يستخدم نصوص الفيسبوك للتلاعب بالرأي العام وصناعته. كان ردّ الشركة رادعاً للجميع: عند انضمام العضو إلى الفيسبوك، يوافق في «استمارة شروط الاستعمال» على عبارةٍ تقول أن من حق

الشركة استخدام منشوراته الشخصية لدراساتها الخاصة!
ليس غريباً بعد ذلك أن تؤسس شركة الفيسبوك مختبراً لعلوم الذكاء الاصطناعي، سيكون قريباً الأكبرَ دولياً، استدعت لرئاسته الفرنسي يان لوكون، البروفيسور المتخصص في التعلّم الآلي في جامعة نيويورك، والذي قاد قبل ذلك مشروعاً علمياً لتعليم الكمبيوترِ القراءةَ الآلية لِشيكات البنوك، وأسهم في مشاريع قيادة السيارات بدون سائق.
هدفُ المختبر الجديد على المدى البعيد: دراسةُ محتوى كلّ منشورات الفيسبوك، وتعليمُ الكمبيوتر التحليلَ الآلي لمنجمها الزاخر اللانهائي، واستخلاصُ الدراسات عن مكنوناتها. (بهدف التلصص على الناس والتأثير فيهم، ولا شك).
تبدو هكذا الطبيعة الإنسانية ٢.٠، وأساليب التأثير فيها، صيغةً لا تختلف عمّا قبل عصر الإنترنت، إلا في الأشكال والأساليب الجديدة للتعبير عنها والإمساك بتلابيبها واستحواذها. لأن هموم الإنسانِ الذي يحمل وصف «الحيوان الاجتماعي» بامتياز لم تتغير في الجوهر:
فنصف سكّان الفيسبوك مثلاً، حسب دراسات باحثين أستراليين، يعانون في العمق من العزلة والوحدة، ويبحثون عن الآخر غالباً.
لهم جميعاً نفس السلوك الفيسبوكي تقريباً: يميلون إلى الإكثار من عرض تفاصيل حياتهم الخاصة وصورهم الشخصيّة وأجوائهم النفسية، فراغِهم العاطفي ووضعِهم الاجتماعي وعناوينِ سكنِهم أحياناً، ميولِهم وأمزجتِهم الشخصية...
بعض من يدمن الفيسبوك يعاني غالباً من كآبةٍ جليّة، وبعضهم يشكو لِطبيبهِ النفسي أحياناً قلّة «اللايكات» التي تحظى بها منشوراته. يعيش ذلك كجرحٍ نرجسي، ويعتبرهُ دليلاً على عدم اعتراف الآخرين به وتقديره!
٧٠٪ من مستخدمي الإنترنت يرون، في بعض الاستفتاءات، أن الإنترنت أفضل وسيلةٍ للوصول إلى الآخر ونسج علاقة الحب معه، والفيسبوك في أعينهم أجدى الطرق لذلك.
ليس غريباً عند قراءة كلّ هذه الأرقام والمعاناة والحاجات والرغبات الإنسانية أن يقع اختيار باريس، في جبل إيدا، على أفروديت!
والضجر ٢.٠ لا يختلف عن الضجر الأزلي إلا في شكل التعبير عنه: بدلاً من قتل الوقت في «الشخططة» على غلافات الدفاتر، صار الضجرانُ الإلكتروني، في هذا الزمن الذي يفتح المرء فيه كمبيوترَه وهاتفَه طوال اليوم، يكشفُ ضجرَه في منشوراته للـ١٨٠٠٠ صديقٍ فيسبوكي، والـ٧٧٠٠٠ متابعٍ لصفحته: يضع على صفحتهِ صورَ علبة السردين التي تناولها قبل

قليل، جوارب قديمة له في رفٍّ مهجور، صحن غذاء قطّته، ويصوِّر بهاتفه ما يراه على شاشة التلفاز لوضعه أوّلاً بأوّل بعد ذلك في صفحته على الفيسبوك!

المرأة والرجل لم يتغيّرا بالطبع: عدد مدونات النساء، ولا سيّما في المجتمعات المتطوّرة، نحو ٧٠٪ من عدد المدونات. المرأةُ منبعُ الجذب والإغراء كما هي دوماً. وفريسةُ الاغتصاب الذكوري أيضاً، كما كانت منذ الأزل. وإن أمسى اغتصاب اليوم مصحوباً أحياناً بفيديو يوضعُ ذات ليلةٍ على اليوتيوب لِتخليده، يقود إلى انتحار الفتاة في الليلة نفسِها!

انتحارات جيل الفيسبوك لا تختلف كمياً عن انتحارات من سبقهم. يموت المنتحِرُ وحيداً حتى وإن أشعَر قبيل ذلك، في منشورٍ إنذاريٍّ نهائي، الـ١٨٠٠٠ صديقٍ فيسبوكيٍّ والـ٧٧٠٠٠ متابعٍ لِصفحته، بعزمِهِ على الانتحار!

يموت وحيداً مثل إيما بوفاري التي تنتحر بالتسمّم في رواية «مدام بوفاري» لفلوبير (١٨٥٧)، في نصٍّ جنائزيٍّ مهيب. تموت بعيداً عن الآخرين هي التي أعطتهم كلّ شيء في أثناء حياتها، بما في ذلك سيناريو لحظة موتها التراجيدي الذي نقشه ألبيرت أوجست فوروبيه في لوحةٍ شهيرة في متحف الفنون الجميلة بِرُوان، وصوَّرتْهُ المسارح والأفلام.

ثمة علاقةٌ مثيرةٌ وعميقةٌ جداً بين عبارة الخليل بن أحمد الفراهيدي الشهيرة: «الرجال أربعة: رجلٌ يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك غافلٌ فنبّهوه. ورجلٌ لا يدري ويدري أنه لا يدري، فذلك جاهلٌ فعلّموه. ورجلٌ يدري ويدري أنه يدري، فذلك عاقلٌ فاتبعوه. ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك أحمق فاحذروه»، وكتاب بروفيسور تاريخ الاقتصاد في جامعة بيركلي الأميركية وبيزا الإيطالية، كارلو سيبولا: «القوانين الجوهريّة للغباء البشري».

ظهر هذا الكتاب الصغير الحجم بالإنكليزية في طبعةٍ محدودة في ١٩٧٦. رفض سيبولا ترجمته لأنه اعتقد أنه سيفقد قيمتَهُ بلغةٍ أخرى. قبل موافقته، قبيل سنوات من مماته عام ٢٠٠٠، على ترجمتهِ إلى الإيطالية، لِيُصبِح شديد الرواج فيها. ثم تُرجِم مؤخراً إلى الفرنسية وأصبح فيها اليوم شديد الانتشار أيضاً.

من هو الأحمق، أي: الغبي؟

هو من لا يدري أنه لا يدري، حسب رأي الفراهيدي. تعريفٌ دقيقٌ صائب، لكنه معرفيٌ بحت، صعبُ الفحص والقياس كما أتوقّع.

تحلو الإشارة هنا إلى العبارة الجميلة العميقة الشهيرة للرجعي الكبير الذي ناهض الثورة الفرنسية بضراوة، جوزيف دوميستر: «من لا يفهم، يفهم أفضل ممن يفهم خطأ!» التي تُفضِّلُ بجدارة الجاهلَ على الغبي!

لِسيبولا تعريفٌ آخر أكثر عمليّةً ربما. يلاحظ سيبولا أوّلاً أن الإنسان حيوان اجتماعي، يعيش متفاعلاً مع الآخرين في شبكة علاقات دائمة، يُؤثر فيهم ويتأثر بهم. يُؤدّي ذلك إلى منافع أو خسائر اقتصادية أو نفسية، إلى كسبٍ أو ضياعٍ للطاقة أو الوقت.

مثل الفراهيدي، يضع سيبولا الإنسان في أحد أربع شرائح. فهو غافل أو قرصان أو ذكي أو غبي:

إذا قاد تأثيرك في الآخر إلى منفعتهِ (أو منفعة مجموعةٍ بشريّة تتضمّنه) وإلى خسارتِك في الوقت نفسه فأنت غافل. إذا قاد إلى منفعتك وخسارتهم فأنت قرصان. إذا قاد إلى منفعتكم معاً فأنت ذكي. وإذا قاد إلى خسارتكم معاً فأنت غبي.

يستخدمُ سيبولا في كتابه صبغةً أكاديمية: يضعك في محور السينات، ومن تتفاعل معه في محورالصادات الذي يتعامد مع محور السينات على الورقة كصليب، لتحتلّ الشرائح الأربع مواقع المربعات الأربعة التي تتقاسم

الورقة.

في ضوء تكرار موقعك في مربعات هذا الرسم البياني، انطلاقاً من شبكة تفاعلاتك مع الآخرين، فأنت إما غافل أو قرصان، ذكيٌّ أو غبي، ذكيٌّ يميل إلى القرصنة إذا اقتربت كثيراً من مربع القراصنة، أو قرصانٌ يميل إلى الغباء، أو قرصانٌ «نظيف»: أي مقدار كسبك من تفاعلك مع الآخر يُساوي تماماً مقدار خسارته (في الحالات غير «النظيفة» يكون الكسب أقلّ أو أكثر من الخسارة)، وهكذا دواليك.

يهتمّ كتاب سيبولا بالشريحة الرابعة أساساً: شريحة الأغبياء. يضع خمسة قوانين جوهريّة يتمحور حولها الكتاب، تُحدّدُ طبيعة هذه الشريحة وتُجلي خطورتَها، لكونها أمّ كلّ شرور البشرية.

يلاحظ سيبولا أوّلاً، في ضوء دراسةٍ ميدانيّةٍ أو من وحي التجارب التاريخيّة، أن نسبة هذه الشريحة كبيرةٌ جداً، هائلة.

مثل معظم الباحثين الذين يرون اليوم أن لكلّ صفات الطبيعة الإنسانية مرجعاً جينيّاً آتياً من التاريخ التطوريّ الداروينيّ للإنسان، يؤكّد سيبولا أن الغباء إرثٌ جينيٌّ في الأساس.

قد يصرخ البعض عند سماع ذلك، ويتّهم الدراسةَ بالنزعة النخبويّة أو الفاشيّة أو العُنصريّة. لكن القانون الجوهري الثاني فيها يمنع ذلك تماماً ويدعم وجهة النظر الجينيّة أيضاً، وهو يقول:

نسبة شريحة الأغبياء في كل المجتمعات والطبقات والفئات الاجتماعية ثابتة، أشبه بنسبة فصيلة الدم! واحتمال أن يكون المرء غبيّاً مستقلٌّ عن بقية خصائص طبيعته البشرية وصفاتها.

مذهلٌ جداً هذا القانون لأنه ينصّ، كما أشارت دراسة سيبولا، على أن نسبة الأغبياء متساوية في كل الشعوب، وفي كل الفئات الاجتماعية، عمّالاً أو فلاحين كانوا أو أساتذة جامعات أو حائزين جوائز نوبل، كما لاحظَت دراسته.

تُنوِّه الدراسة بعد ذلك إلى غموض شريحة الأغبياء وصعوبة سبر اتجاهات سلوكهم: لا يمكن العقلاء استيعاب حياة الأغبياء والتناغم معها. يُذكّرني ذلك بحكمةٍ صينية تقول: «الأحمق من ينظر إلى إصبعك عندما تؤشر له بها نحو القمر!». إذ يستطيع العاقل مثلاً استيعابَ سلوك القرصان وإدراكه واستشرافه لأنه يخضع لآليّةٍ عقلانية، ولبرنامجٍ معروفٍ مسبقاً يبحث عن الكسب الأنانيّ. لكن لا يمكن التفسير العقلاني لما سيقوم به الغبي وتلافيه مُسبَقاً أو الدفاع عن النفس ضدّه أو الردّ عليه، لأنه لا يخضع غالباً لاحتمالاتٍ منطقيّة أو لبرنامجٍ عقلاني.

لعل مقولة آينشتاين: «ثقة شيئان لانهائيا الكبر: الكون والغباء الإنساني. لكني لا أمتلك القناعة المطلقة في ما يتعلّق بلانهائية الكون»، ومقولة تشارلز ديكنز: «يستطيع المرء أن يواجه ما يريد، إذا ما تسلّح بالغباء والمقدرة على الهضم»، شديدتا التعبيرية في هذا المضمار.

ولعل لذلك أيضاً، كما لاحظتُ، يلجأ بعض الماهرين من لاعبي الشطرنج عندما يلعبونه مع برنامج كمبيوتر يوشك على هزيمتهم، بإرباكهِ في لحظةٍ ما والانتصار عليه أحياناً بفضل أدائهم لِنقلةٍ «غبيةٍ» نسبياً وغير خطيرة في الآن نفسه، لم يتوقّعها البرنامج، العقلاني جداً، الذي يوجّهُ نقلات الكمبيوتر! يُساعد ذلك أحياناً على تغيير مجرى المباراة بالفعل، ويُذكّر أيضاً بقول شيلر: «ضد الغباء، حتى الآلهة تحاربُ عبثاً!».

تُلاحظ الدراسة أن العقلاء، بمن فيهم الأذكياء والقراصنة، يُقلّلون دوماً من تقدير دور الأغبياء، يتعاملون معهم براحة بال، ولا يستطيعون الإدراك المسبق للخطورة الناجمة عن سلوكهم.

ذلك خطأٌ فاحش لأن القانون الخامس الرئيس في دراسة سيبولا ينص على أن الغبي أشدّ خطورةً من القرصان. هو، أي الغبي، أخطر الشرائح الأربع دون منازع!

فلو كان أفراد المجتمع كلّهم قراصنةً «نظيفين» مثلاً، لما هُدِرت ثرواته، أي: لكان بلا خسائر، لأن نفس خسارة هذا الفرد مكسبٌ لذاك.

لكن الخسائر الناجمة عن سلوك الأغبياء، ولا سيّما إذا كانوا في قيادة الحكم والجيش، لا يمكن تقديرها مسبقاً، ولا حدّ لفداحتها غالباً.

فضلاً عن أن الأغبياء تمكّنوا دوماً طوال التاريخ من احتلال مواقع قيادية في رأس السلطات والجيوش، مما سبّب كلَّ محنات البشرية وكوارثها.

هم أيضاً دوماً الأكثر ثقةً بِصوابهم وبأنفسهم! تؤكّد ذلك تجربةٌ قام بها باحثان أميركيان، بعد موت سيبولا، تتلخّص في توجيه قائمةٍ محدّدة من الأسئلة كامتحان في مجالٍ ما، لِشرائح مختلفة من الناس.

نتيجة التجربة: «من لا يدرون أنهم لا يدرون»، كما يقول الباحثان بالحرف الواحد، ليسوا فقط أسوأ من يجيب عن هذه الأسئلة، لكنهم أيضاً أكثر من يعتقد، قبل رؤية نتائج الامتحان، أن إجاباتهم صائبة. في حين أن تقدير الأذكياء الذاتي لِصحة إجاباتهم، قبل رؤية النتائج، أقلّ ثقةً بالصواب!

خلاصة القول: في ضوء القانون الخامس، ليس ثقة ما هو أهمّ من الحذر من الأغبياء. عرقلةُ وصولهم إلى السلطة واتخاذ القرار، وتقليص تأثيرِهم في حياة الشعوب قضيةٌ مصيرية، ذات أهميّةٍ حاسمةٍ مفصليّة.

فما يُميّزُ الدول المتطوّرة عن الدول المتخلّفة ليس قلّة نسبة الأغبياء فيها

بالمقارنة بالثانية (النسبة ثابتة واحدةً في الاثنتين)، لكن كون نسبتهم في الدوائر الفاعلة والمؤثِّرة والحاكمة فيها أقل من الثانية بكثير...

ففي الدول المتخلفة والمتدهورة تتزايد نسبتهم في السلطة بنحو ملحوظ، بجانب نسبة فصيلةٍ فتّاكةٍ جداً: «القرصانات ذات الميول الغبيّة» التي تتكاثر هناك بشكلٍ خاص كما لاحظت الدراسة أيضاً، حيث تلعب الانقلابات العسكرية والتوريثُ العرقيّ والدين دوراً خاصاً في تنمية ذلك، كما لعبت نفس الدور في الدول المتقدّمة قبل نهوضها عقب الثورة الصناعية...

تتناغم هذه النتيجة كثيراً مع مقولة الفراهيدي الشديدة العمق والروعة، ولا سيما كلمته الأخيرة: «فاحذروه!» التي تُكثِّف كلّ دراسة سيبولا الممتعة جداً قبل كونها مفيدةً جداً!

استدراك: لا يعفي هذا الكتابُ سيبولا من احتمال انتمائه إلى تلك الشريحة الغبيّة التي لا يعشقها الخليل الفراهيدي كثيراً. ولا يعفيني هذا المقال من تلك البليّة نفسها، قبل كل شيءٍ بالتأكيد. ولا يعفي ذلك مولانا الفراهيدي، قبل هذا وذاك!

في مقالٍ نُشِرَ في أبريل ٢٠١٣، في مجلة «بلوس وَن»، اكتشف عالمان ألمانيان من جامعة توبنجن «شبكةَ عصبونات الدماغ المختصة بالتفاعل مع مصدر صوت الضحك».

وجدا أن أشكال استثارة ونشاط عصبونات هذه الشبكة تختلفُ باختلاف نوعِ الضحك الذي يسمعه المرء: ضحك النكتة، ضحك المرح الاجتماعي، ضحك الفرح، ضحك الكركرة...

قبلهما، في ١٩٩٨، اكتشف علماء في لوس أنجلس «نقطة ج» الضحك في الدماغ التي تكفي إثارتها كهربائياً لينفجر المرء ضاحكاً، على غرار «نقطة ج» الشهيرة، في رحم المرأة، التي تؤدي إثارتُها إلى ِذروة النشوة الجنسية، ما حدا صحيفة «نيويورك تايمز» إلى الحديث عن «القنبلة التي ستقضي على صناعة الفكاهة»، وتحوّل صناعة النكتة خارجاً عن اللزوم!

النكتة، في الحقيقة، ثابتٌ إنسانيٌ جوهري، شأنه شأن القصص والحِكَم والأساطير. درسَها فرويد في كتابه: «كلمات الروح وعلاقاتها باللاوعي» ملاحظاً تشابهها الكبير مع الحلم.

كلاهما تعبيرٌ مكثّفٌ عما يدور في سراديب اللاوعي. يستخدمان نفس أساليب الانزياحِ عن الواقع أو قلبِه، ونفس الإرباكِ لِمنطق الأحداث وسيرورتها.

يخرجان معاً من نفس المنبع في اللاوعي. هدفهما الرئيس: التمرّد على الرقابة الذاتية.

الفرق الجوهري بينهما في رأي فرويد: يصعب تفسير الحلم أحياناًعلى الحالِم نفسه، فيما يلزم أن تُستوعَبَ النكتةُ لِتنجح، وأن تكون ثاقبةً كسهم، على غرار: «وُلِدتُ قبيحاً لدرجة أن قابِلَتي صفعتْ أمّي حالما رأتني».

بخلاف الحلم، يلزم أن تنطوي النكتة على إسقاطاتٍ لغويّةٍ شفّافةٍ مفاجئة مُثيرة. لذلك قال فرويد عبارته الشهيرة: «الحلم نكتة فاشلة».

لاحظ فرويد أيضاً ازدهار النكتة في لحظات أفول الحضارات وسقوطها وزيادة الكبت فيها.

دعا نيتشه إلى تقديس الضحك والاحتفال به «كعلاجٍ لانحرافِ العقل الخالص». من جهته، كشفَ عالِمُ الذكاء الاصطناعي مينسكي، جذورَ الحاجة البشريّة لِصناعة النكتة وأسباب ذلك، من وجهة نظرٍ تطوّريةٍ داروينيةٍ تتّفقُ ورؤيةَ نيتشه.

في كتابهِ: «فلسفة النُكت والفكاهات الصغيرة» (الذي تُرجِمَ من الأميركية إلى الفرنسية في عام ٢٠٠٨)، درس الكاتب الأميركي جيم هولت تاريخَ النكتة. ولاحظ أنها نشاطٌ إنسانيٌ عريق: ظهر أقدمُ كتاب نُكَت في بلاد الإغريق في القرن السادس قبل الميلاد، محتوياً على ٢٦٤ نكتة، عنوانه: «فيليجولوس» (الضاحِك). اختارُ منه هنا هذه التحفة الصغيرة:

ـ «الحلاق: كيف تريدني أن أحلُق لك؟

ـ الزبون: بِصمت!».

طوّر العرَب بشكل واسعٍ وزَاقٍ فنّ النكتة، واحتفلَ بها كبارُ فلاسفتهم كالجاحظ في كثيرٍ من كتبه الخالدة: «البخلاء»، «الحيوان»... ثقة أيضاً «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي، وقبل هذا وذاك «ألف ليلة وليلة».

أدّى كلُ ذلك دوراً مهماً في رفدِ التراث البشري للنكتة وتطويره، كما لاحظ جيم هولت، وفي بلورةِ ما سمّاه: النكتة العربية الإيطالية التي تجسّدتْ في كتاب «سعادات» (١٤٥١م) الذي غزى كل أوروبا.

مؤلّفه: الإيطالي لو بوج، السكرتير الشخصي لعدة بابوات، ورجل الثقافة الذي اشتهر بتسامحه وإنسانيته وعشقهِ للمكتبات. يتابع جيم هولت جينيالوجيا النكتة حتى عصرنا الحديث الذي بدأت فيه الدراسةُ العلميّة لأصناف النكت. يقول: «بعد دراسة ١٣٨٠٤ نُكَت في نيويورك في عام ١٩٦٣، تبيّن أن١٧ في المئة منها مهووسةٌ بالجنس، و١١ في المئة تتحدّث عن السود...» قبل قيامه في كتابه بدراسةِ بعضها من منهجٍ «بنيويّ» ونفسيّ.

تلاحظُ دراسةُ جيم هولت أن الغالبية الساحقة للنُكت إعادةُ صياغةٍ لِنُكتٍ سابقة، عُمرها في الغالب عدّة قرون. يُعطي، كمَثل، هذه النكتةَ التي يردّدها الأطفال في أميركا:

«سؤال: لماذا للضراط رائحة؟

جواب: ليشعرَ بها الأصم!».

ثم يتابع شجرة نشوء هذه النكتة مازاً بِنكتةٍ إنكليزية قديمةٍ شبيهة، عن دوق أكسفورد الذي ضرط بلا وعي أمام الملكة وهو ينحني لتحيّتها... قبل الوصول إلى البذرة الأولى: نكتة في «ألف ليلة وليلة» لأبي حسن، النائم اليقظان!

يعطي جيم هولت، كمثلٍ آخر، نكتةً قِيلت لأوّل مرّة عن الرئيس الأميركي نيكسون الذي فوجئ وهو يتجوّل قرب البيت الأبيض برؤية عبارة: «أكرهُ نيكسون» مكتوبةً على الثلج. طلب من مدير استخباراته كشف النقاب عمّن كتبها. وصله المدير بعد أسبوعٍ من التحرّي والتحليل لِيقول له: «هي

مكتوبة بِبَولِ وزيرِك كيسنجر!». تفجّر غضبُ نيكسون. فحاول مديرالاستخبارات تهدئته قائلاً: «لكنها بخط يد السيّدة الأولى!».

يتابع جيم هولت جينيالوجيا هذه النكتة ليجد أن أصلها آتٍ من ريف جبل أوزارك، في ١٨٩٠، فيما أفترضُ أنها تعودُ لِنكتةٍ عربيّة أقدم بكثير:

طلب هارون الرشيد وهو يتسامر مع أبي نواس أن يشرح له كيف يكون عُذرُ المرءِ أقبحَ من ذنبه. بعد أيام تسلّل أبو نواس خلف الخليفة الذي كان يتأمّل الحديقةَ من النافذة، وداعبَهُ في وركِه بِخفّة. استشاط الخليفة غضباً وقال ويدُهُ على سيفه: «ماذا عملتَ؟». ردّ أبو نواس: «المعذرة، ظننتُ أنّك زبيدة!».

نظرية النكتة، كما يوضح جيم هولت، تتأسّسُ على مزيجٍ مُركّبٍ من ثلاثة أسس:

١) نظرية التعالي: ترى، على غرار أفلاطون وبرجسون، أن مصدر النكتة هو التعالي على الآخر والسخرية منه واحتقاره.

٢) نظرية التنافر: ترى، على غرار باسكال وشوبنهور وكانْت، أن مصدرَها هو انزلاقُ المنطق بشكلٍ مفاجئ نحو العبثِ، أو نحو مخالفةِ ما يتوقّعهُ حدسُ المستمع.

٣) نظرية المصراع: ترى، على طريقة فرويد الذي درس قائمةً طويلةً من النكت، أن النكتةَ تساعد الإنسان في فتح مصراع لاوعيه وتحرير المكبوت فيه. ترسلُ حينها شحنةً عصبيّةً متدفّقة نحو عضلات الوجه والتنفّس تؤدّي إلى تفجّر صوتٍ يتعمّدُ مقاومةَ رقابتِنا الذاتية، وكسرَها في لحظة الضحك.

ثمّة، في نظرية المرح، أجناسٌ عديدة من النكت. منها «النكتة الفلسفية»على غرار: قال المفكّر السياسي برونهام لتلميذه: «كل إنسان يعرف كلَّ شيء عن أيّ شيء» ردّ التلميذ: «لا أعرف ذلك!» (التي تُذكّر بإشكالية «قطّة شرودنجر»).

منها على سبيل المثال أيضاً: «ما وراء النكتة» (أو: النكتة حول النكتة)، على غرار:

«سؤال: بماذا تبدأ النكتة التي يحكيها الرجل الأبيض عن الأسود؟

جواب: بِغمزةٍ ولطمةٍ خفيفة في الكتف!».

في تصنيفهِ للنُّكت، يرى جيم هولت أن ما تُسمّى النكتة اليهودية (أو التلمودية) نكتةٌ تلعبُ على اللغة والمنطق أساساً، وتتأسّسُ على «نظرية التنافر»، على غرار نكتة الجدّة اليهودية التي كانت تراقب حفيدَها وهو يلعب على الشاطئ، قبل أن تجرفه موجةٌ عملاقةٌ مفاجئة. صرخَت بكلّ

ذُعرِ وحزنِ الدنيا: «إلهي أعذ حفيدي لي، أتوسلك!»، تعيد موجةٌ جديدةٌ عملاقة طفلَها سالماً إلى الشاطئ. تنظرُ الجدة باتجاه السماء معاتبة: «لكنه كان يحملُ قبعة!».

خلاصة القول: إذا كانت الدراسات الفيزيولوجية الحديثة تحاول فكّ الأسرار البيولوجية للضحك، فكتاب جيم هولت يفكُّ بعض أسراره التاريخية والفلسفية. لعلّه أشبه بدراسةِ دكتوراه صغيرةٍ ولذيذةٍ جداً.

أترك له العبارةَ الأخيرة: «النكتة ثمرة العبقرية الإنسانية. عندما تكون نقيّةً مكثّفة، تصير ضرباً من الفن!».

ما السعادة؟

«ما السعادة، من وجهة نظرِك؟»؛ سألتني. تلعثمتُ، لأن أبسطَ الأسئلة صياغةً أصعبُها إجابةً. لو سألتني ابن عم السؤال: «ما الحقيقة؟»، لتلعثمتُ أيضاً، وبلا شك. فضلاً عن أن الواقع الراهن لحياتنا المعاصرة التي تتقاذفها أطياف الموت والآلام الجمعية المتلاطمة، من حروب ومجاعات وغرقِ مهاجرين ومنبوذين... تجعل سؤال السعادة غريب المزاج، خارج السياق، في غير محله وزمنه.

كأس قهوة، وبضع دقائق من الانفراد اقترحتها محاورتي، كي ألملم أجابتي عن سؤالها المباغت الذي لم يخطر ببالي يوماً تناوله!

كان من السهل البدء باستبعاد ورفض الردود التقليدية التي أختلف معها، حول السعادة. فالسعادة ليست ابنة الثراء، في تقديري. لذلك، أرى، في منتهى التفاهة والبلاهة، عبارةَ صاحب مكتب الأعلانات الفرنسي، سيجيلا، وهو يدافع عن مَيل ساركوزي، عندما كان رئيساً لفرنسا، إلى إظهار ساعته الرولكس (هل اقتدى به البغدادي بعد ذلك؟): «عندما لا تكون لك ساعة رولكس، وقد تجاوزتَ الخمسين، فحياتك فاشلة!».

فعلاً، «المال لا يصنع السعادة»، كما يقول تعبير شعبي فرنسي، لكنه يتناسب طرداً معها، حسب دراسات، حتى درجةٍ محددة تضمن للمرء تحقيق حاجاته الضرورية لصحته وازدهار حياته وأهله وذويه: علاج صحي، مطعم بين الحين والحين، رحلات سفر، شراء كتب دون حساب الميزانية العائلية... وما إلى ذلك من ضرورات حياتية يشعر المرء بالشقاء إن صعب تحقيقها لظروف مالية. لكن لا علاقة مباشرة بين المال والسعادة، خارج هذا الحد الأدنى، كما تبرهن الدراسات، إن لم يتحوّل المال أحياناً إلى منبع شقاء.

لم أعرف كيف أتقدّم في الرد على محاورتي، قبل أن تفك هي نفسها عقدة لساني بسؤال عملي فطين: «من هم نماذجك في السعادة؟».

هنا أنطلقتُ!

من كل النماذج الفلسفية والدينية والروحانية للسعادة، ثقة واحد يستقطبني وأحاول أن أتناغم معه: سيزيف، أحد أبطال الميثولوجيا الإغريقية، مؤسس مدينة كورنث، الذي يعدّه البعض الأب الحقيقي لبطل الأوديسة وعبقري الإلياذة: عولس.

استطاع سيزيس تقييد إلهة الموت ثاناتوس، كي لا تقود أحداً إلى جهنم.

وكشفَ بعض أسرار الآلهة. لعقوبته، حكم عليه كبير آلهة الإغريق زوس برفع صخرة حتى قمة جبل تارتار، تسقط الصخرة بعدها إلى القاع، ليعاود رفعها نحو القمة من جديد، وهلمّ صعوداً وهبوطاً، دون توقف.

رأى كامو أن سيزيف سعيد لأنه ثار على الآلهة، وصاغ مصيره بنفسه. واجه قيود الواقع بعناد وبسالة. اعتبر كامو خطوات سيزيف بين دحرجتين للصخرة، وعزيمته على رفعها من جديد: لحظات سعادة ذاتية خالصة.

قال كامو: «يلزمنا رؤية سيزيف سعيداً»!

يكفي اعتبار الصخرة، بالنسبة إليّ، استعارةً عن مشروع شخصي: بحث علمي، كتابة رواية، سفر، تحقيق مجموعة أهداف ومشاريع عائلية، إنسانية.

تُعيد لنا أيضاً هذه الرحلات السيزيسية الدائرية، مع الصخرة نحو القمّة، حكمةً يمنية عميقة، افتتح بها علي زيد روايته «زهرة البن»: «من مشنقةٍ إلى مشنقةٍ فرَج!».

من منظور هذه الحكمة، تبدو لحظة السعادة والفرج كما لو كانت: المساحةَ بين مشنقتين، الحرية بين سجنين، النجاح بين مهمتين أو قيدين من مهمات الحياة وقيودها. كل السعادة تكمن هكذا في ديمومة المقاومة، في عدم الهروب من آلام الحياة بالانتحار أو بالخضوع أو بالاستسلام، بل بالمجابهة والاندماج بالمصير وعشقه. أي عبر الـ Amor Fati، حسب مصطلح نيتشه.

«كل ما لا يقتلنا، يزيدنا قوة»، يقول نيتشه في كتابه «غروب الآلهة». ولذلك، في هذه المجابهة الحية، المعجونة بهموم الحاضر والمتفاعلة مع معاناته، تتجسد «إرادة القوة»، حسب مفهوم نيتشه أيضاً، ويتبلور مشروع «العودة الأبدية»، حسب مفهومه أيضاً.

لعل هذا الأخير مفهوم صعب الإدراك، كعادة كثير من المفاهيم النيتشاوية، وإن تُلخِّصه أفضل تلخيص عبارة شهيرة: «عش حياتك بالطريقة التي تسمح لك بأن تتمنى عيشها مراراً وتكراراً إلى الأبد».

أثمة حياة إنسانية حقيقية سعيدة، تتماهى مع هذا النموذج النيتشاوي، بصيغته السيزيفية، كما رمز إليها كامو؟

لم أكن قادراً على الإجابة عن هذا السؤال، قبل مدد الإضاءة المفاجئة، من وحي حياة ماركس، كما برهن فرانسيس وين في كتابه «ماركس، سيرة مفاجئة»: «كثيفة السعادة»!

من يُصدِّق ذلك؟

كارل ماركس الذي كان فقيراً مريضاً مطارداً ومحاصراً ومنبوذاً في كل دولة، عيون كل مخابرات وبوليس العالم تحاصر حركاته وتراقب سكناته كأخطر إنسانٍ في العالَم، والذي لم يمتلك غالباً ثمن أجرة الشقق الرثة التي عاش فيها مع عائلته، كان سعيداً أيضاً!؟ مات طفلان من أبنائه بسبب المرض والظروف الصحية الصعبة لحياتهم العائلية المحاصرة الفقيرة. كان يكتب معظم كتبه وهو مستقيم، بسبب أوجاع مرض جلدي مستأصل فيه يمنعه من الجلوس، لكنه كان سعيداً جدا فعلاً!

سعيد فعلاً لأنه، مثل سيزيس، ثار على الآلهة: كشف دور المال في حياة البشر، والخطيئة الجذرية للرأسمالية، رغم أن مجلدات كتابه «رأس المال» لم تكن تُطبع في خلال حياته إلا في مئات نسخ فقط. وترفض دور النشر غالباً مقالاته وأعماله، وتعتبرها في منتهى الخطورة.

لكنه صار اليوم من أهم عمالقة العصر ومستشرفيه، تُدرَّس أفكاره في الثانويات والجامعات الغربية، وتعدّه أحزاب «الاشتراكية الديموقراطية» التي تقود بعض دول شمال أوروبا، ومعظم اليساريين والتقدميين في العالم، بوصلتهم الدائمة؛ رغم خطأ بعض استشرافاته وتوقعاته كالثورة البروليتارية، وديكتاتورية البروليتاريا.

«لا أظن أن أحداً كتب عن رأس المال بهذه السعة، وهو محروم إيّاه بهذه الدرجة»، قال ساخراً من نفسه. أو كما قالت له زوجته جيني، ورفيقة عمره: «مجلداتك عن رأس المال لم تضمن لك رأس مال شراء سجائرك!».

عجيبٌ جدّاً هذا الثنائي المكافح الذي تشرّد كثيراً وتبادل العشق الحقيقي الكثيف في خلال نصف قرن، لكنه لم يتبادل الرسائل الحميمة إلا قليلاً، وكأنَّ كميّة الثرثرة في العشق تتناسب عكسيّاً مع طاقته الثرموديناميكية!

ظهرت هذه الرسائل أخيراً في كتاب: «رسائل عشق ونضال»، يعكس علاقة عشق مدهش حميمي حقيقي بديع بين هذين الإنسانين النادرين. لعله أحد أهم أبعاد سعادة كارل ماركس. المثير أيضاً أن كارل كان يوقِّع رسائله الغرامية لجيني بتوقيع «العربي»: كلمة السر بينهما! ربما بسبب لونه الذي يميل قليلاً إلى اللون الأسمر، ورغبته في التماهي لذلك مع أوتيلو، أحد أبطال شكسبير («شكسبير أحد شغف قراءات ماركس المتكررة، ووسيلته لاستيعاب تعقيد العالم»، كما قال صاحب «ماركس، سيرة مفاجئة»).

عندما سُحب من ماركس جواز مقاطعته الألمانية بروسيا، وهو في السابعة والعشرين من العمر، شكر حكومته لأنها منحته حريّته!

سخرية أنيقة تترجم «إرادة القوّة» التي يتمتع بها هذا «الإنسان الأعلى»،

بالمعنى النيتشاوي.

تكمن أعلى درجات سعادة ماركس في كونه شاهِد عصره، الذي علّق على كل شؤون العالَم ويوميات حاضره، وتفاعل معها بغزارة وقوة وأفكار نقدية متجددة حزة، كما لو كان العالَم كله بيته الصغير.

انطلق ماركس من مصيره كمهاجر منبوذ، لتشييد أمميةٍ ثورية تتجاوز الحدود الجغرافية: كلّ ما لم يسحقه زاده قوة فعلاً، حسب تعبير نيتشه!

كان ماركس يعيد صياغة أفكاره ويجدد مقترحاته ويمارس شك الباحث الذي يرفض إعطاءها قالباً أيديولوجياً جاهزاً متجمداً. وكان شعلة تساؤلات وفرضيات وتجديد لا تتوقف.

مثل نيتشه الذي ثار وهدَم الأصنام في الجانب الثقافي، كانت ثورة ماركس، في الجانب السياسي والاقتصادي، مشروعا مؤسساً أيضاً على الإرادة والثورة والتغيير والمقاومة والرفض والأمل. منبعَ كفاح وعذاب وصراعات لا تخلو من الهزائم والأخطاء.

في العناق الديالكتيكي بين كل هذه الروافد والفلزّات، يكمن إكسير السعادة الحقيقية.

الخيال أهم من المعرفة

«الخيال أهم من المعرفة» عبارة لآينشتاين، قد تبدو غامضة، لولا استعارة «الدرع والفارس» لمارك تونير التي تفسّرها أفضل تفسير.

يقول: «لعلّ الدرع وسيلة مهمة للفارس للدفاع عن نفسه. لكنها أقلّ أهميّة من الفارس: صانعِ الدرع، وخائض الحروب».

للسبب نفسه: الخيال أهمّ من المعرفة، لأنه صانعها.

لعلّ سبب الغموض مرتبطٌ أساساً بقاموسنا العربي وثقافتنا السائدة:

المخيّلة، مصنع الخيال، تعني في معظم القواميس العربية: الظن، أو الوهم (تطلق على السحب التي تُحسب ماطرة). أو الكبر (يقال: فلان ذو مخيّلة، أي ذو كبر). أما الخيال فهو «ما تَشبّه لك في اليقظة والمنام من صورة»، أو «صورة تمثال الشيء في المرآة»، أو «شيء على صورة الإنسان ينصب في الحقول، فتظنّه الحيوانات والطيور إنساناً فتنفر».

فيما المخيّلة، في مدلولها اللاتيني الجذري الأول، أتت من «صبٌ، قولبَ، شكّلَ شيئاً من مادة خامة». أي إن مدلولها مرتبط بالخلق والابتكار. وعندما تطلق صفة «خصب الخيال» على مشروعٍ هندسي أو روايةٍ أدبية، فهي أرقى الشهادات على كونهما ذروة في الإبداع والتجديد والإدهاش.

ليس الفرق، عربياً وغربياً، في المدلول اللفظي لكلمة الخيال فقط، ولكن في القيمة المجتمعية للكلمة. إذ هدف المدرسة في الغرب، إذا لُخّص بثلاث كلمات: «إطلاق عنان الخيال للطالب». وسائل ذلك: التساؤل بلا حدود، التفكير بحريّة مطلقة، الرفض والنقد، تعلّم مبادئ السببية والبرهنة لكل الأطروحات.

أما التعليم العربي عموماً، فهو سيرورة هدفها العكس تماماً: كبح جماح الخيال عبر الوسائل النقيضة للوسائل السابقة.

تجليات الفرق في مدلول الخيال، «عربياً وغربياً»، تنعكس في كلّ المجالات. فنادراً ما يقع الناقد الغربي في مطب اعتقاد أن الرواية التي يقرأها «سيرة ذاتية» لمجرد أن أمّ الراوي صِربيّة مثل أم الكاتب مثلاً، أو لأن لهما سنة أو مدينة الميلاد نفسهما، أو المهنة نفسها، فيما يكفي الروائي العربي وضع هذا «الطُعم» غالباً ليسقط القارئ والناقد بسهولة في مطبات الروائي، فيظن أنه التهمَ كلّ أسرار حياة الكاتب، بل يقرأها أحياناً بتلصصية ضابط استخبارات، حتى وإن كانت كل الرواية (عدا ذلك الطُعم الزهيد) تخييلاً خالصاً!

السبب: إشكاليتنا الثقافية والتعليمية تكمن في أن مرجعيتنا التصوّرية: الواقع، ونعتبر الخيال غالباً هرطقة نتهرب منها، أو «كلاماً فاضياً» لا نقبله، فيما يلزم أن تكون مرجعيتنا: الخيال، وما الواقع إلا حالة استثنائية من تجلياته الممكنة.

لأن الرواية في الأساس: تخييل (Fiction)، ما لم يصرّح الكاتب بأنها سيرة ذاتية، أو ما لم تكن ثقة براهين ملموسة على أن كلّ حدثٍ فيها ينتمي إلى سيرةٍ حقيقية.

عموماً، لا يجرؤ قارئ حكيم إطلاق كلمتي «سيرة ذاتية» لمجرد رؤية إشارة أو إشارتين تعمّدَ الكاتب نصبهما لجرّ القارئ في متاهاته الأثيرة.

الحق أنه ليس ثقة أنبل من الخيال، بكل منتجاته الأدبية والعلميّة.

على الصعيد الأدبي أوّلاً: كل بنات الخيال الروائي تُمثل أرقى الأنواع الروائية، بفضل كميّة الخلق والإبداع فيها، أكان ذلك ضمن نمط الروايات التي لا تهمها محاكاة الواقع أو تحرّكها الرغبة بإقناع القارئ بحقيقيتها وصدقيتها، مثل الفنتازيا والخيال العلمي... أو نمط روايات التخييل التي تهمّها محاكاة الواقع، لتبدو الرواية كما لو حدثت على أرضيته فعلاً.

ينطلق هذا النمط الثاني من كون «واقعنا المعيش هو أحد العوالم الممكنة» كما قال دافيد لويس، ومهمة الرواية ليست سرد هذا العالم المعيش، بل الأعداد اللانهائية الممكنة الأخرى التي لم نعشها. أي إن مهمتها الأرقى: سرد واكتشاف عوالم وحيوات جديدة.

يبدو عظمة هذا النمط من كونه يحاكي استعارة «اللوح المحفوظ» الذي يمكن، مجازاً، اعتباره أوّل رواية أدبية! غير أن هذه «الرواية الإلهية»، إذا جاز القول، هي الوحيدة التي تجسّدت، من وجهة نظر الدين، على الواقع. أما رواية التخييل فلا يمكن تجسيدها إلا في السينما والعوالم الافتراضية.

لعلّ هذه العلاقة بالاستعارات الدينية، والرغبة الدفينة بالتشبه بالآلهة، لا تفارق لاوعي الروائي ربما. من يدري، لكأنّه يحاول تقمّص دور «علاّم الغيوب» عندما يحاول كتابة رواية استشرافية لمستقبل البشرية، كي تمزّ كسيناريو معقول لمستقبلٍ إنسانيّ ممكن!

إذا كانت إمكانية الخيال الإنساني لا حدّ لها في المجال الأدبي، فهي كذلك تماماً في المجال العلمي. كل الاكتشافات والبراهين والاختراعات العلمية تنبجس دوماً من ملكات الإنسان الخيالية. تنطلق دوماً من تساؤلات جديدة، وفرضيات فضولية، وتصوّرات لعلاقات مبتكرة.

فعندما تساءل آينشتاين مثلاً عما إذا كان سيرى نفسه في المرآة وهو يتحرك وإياها بسرعة الضوء في الوقت نفسه، قاد ذلك إلى اكتشاف أن

سرعة الضوء ثابتة ومستقلة عن كل المراجع!
مثال آخر: المسلَّمة الخامسة لأقليديس تقول: «من نقطة خارج خط مستقيم، لا يمرّ إلا خط مستقيم واحد موازٍ له».
لاحظ علماء الرياضيات في القرن السابع عشر أنه لا يمكن برهنتها رياضياً.
ثم برهن لوباتشسفسكي في القرن التاسع عشر استحالة برهنتها.
قاده ذلك، وقاد علماء رياضيات كباراً، كجوس وريمان، إلى دراسة هندسات أخرى في «فضاءات خيالية»، خالية من هذه المسلمة الإقليديسية.
وجدوا أنفسهم أمام هندسة ريمان «الكرويّة»، حيث عدد زوايا المثلث أكثر من ١٨٠ درجة، وهندسة أخرى عدد زوايا المثلث فيها أقل من من ١٨٠ درجة! لم يكن هذا الخيال عبثياً قط، لأن الفيزياء الحديثة، ولا سيما نظرية النسبية، مبنية على الهندسة الريمانية في فضاء منحنٍ.
المثير أن ثمّة تشابهاً ما في مسعى كتابة رواية التخييل وبرهنة نظرية رياضية: تنبثقان كلاهما، مثل بقية النشاطات الإبداعية، من سيرورات دماغية متشابهة. ألم يقل بيكاسو: «لو كنت صينياً لكنت كاتباً!»؟ كما لو كانت اللوحة رواية، والرواية لوحة. أي كما لو كانا مثل الطاقة الكهربائية والميكانيكة: يمكن تحويل الأولى إلى ثانية، والعكس صحيح! إذ يتخيل عالم الرياضيات، من وحي حدسه وقناعاته وأدوات عمله، نص صيغة نظرية رياضية جديدة، تماماً كما يؤثث الروائي الخطوط العامة الكبرى لمشروع روايته، فوق صرح واقع زماني مكاني اجتماعي ما.
تبدأ بعدها مغامرة صاحب الرياضيات لمحاولة برهنة نظريته، عبر سلسلة من التحوّلات والفصول المستندة إلى كل الفرضيات والحقائق والنظريات والعلاقات المبرهنة.
كذلك حال الروائي وهو يتقدّم في مشروعه، وإن كانت أدواتهما مختلفة: الكلمات هنا، والكائنات الرياضية هناك. الإيحاء والاستعارة هنا، والبرهان الدقيق هناك.
يقول الروائي الروسي الكبير فلاديمير ماكانين في مقابلة معه في صحيفة «رسائل روسيا»:
«أكتب الرواية مثلما ألعب الشطرنج: قبل البدء أعرف أني سألعب بالقطع البيض أو السود. إذا قرّرتُ اللعب بالبيض فأحافظ على نفس الإيقاع، لا أضيع الهدف. وإذا اخترتُ السود أتقدّم ببطء، أدرس كل خطوة، أستوعب موضوعي بعمق وكمال. من يختر القطع السود لا يبحث عن النصر، لكن عن هزيمة العدو!

إذا قارنّا الشطرنجَ بالموسيقى، فمن يلعب بالقطع البيضاء كمن يعزف كونشيرتو، ومن يلعب بالسوداء كمن يعزف سيمفونية... كتبث رواية آسان لعباً بالقطع البيضاء»...وكتب بالتأكيد سيمفونية روايته: «منضدة تتوسطها قطيفةٌ وكوز» وهو يلعب بالقطع السوداء!

المثير هنا أن فلاديمير ماكانين كان باحثاً في الرياضيات، قبل توجهه إلى الرواية فقط. وشقيقه جينادي ماكانين، أحد أكبر علماء الرياضيات الروس المعاصرين، كان شاعراً قبل أن يتوجّه إلى الرياضيات فقط.

كلاهما كانا لاعبي شطرنج روسيين مرموقين.

الأكثر إثارة: الثاني أيضاً يرى أن برهنة نظرية رياضية لا يختلف عن مباراة شطرنج ينتصر فيها الخيال على الواقع!

«الإنسان حيوان ذو خيال» أحد أفضل تعريف لنوعنا البيولوجي، في تقديري. لأن «الخيال أهم من المعرفة»، كما قال آينشتاين وكما تناولناه في فصل سابق. هو منبع ووقود كل الابتكارات، أعظم ملكات الإنسان قاطبة، وما يميّزه عن سائر الحيوانات.

سؤالان يفرضان نفسيهما. الأول معرفي ماضوي: كيف ومتى ظهرت ملَكة الخيال لدى الإنسان؟ والثاني عملي مستقبلي: ما مستقبل الخيال الإنساني في ظلّ الوسائط التكنولوجية الحديثة؟

لأبدأ بالثاني عمداً. ينطلق هذا السؤال من كون الوسائط التكنولوجية وسائل ذهنية تطوّر ملَكات الدماغ: تسمح بالاستيعاب الأسهل والتصوّر الذهني الأدق وتسهيل الخلق والإبداع. وتستطيع ابتكاراتها أن تقضي على كل الحواجز المادية التي تعوق المبدع عن تحويل خياله إلى إنتاج ملموس.

مشاريعها المعاصرة والمستقبلية تجلي أهمية دورها في تطوير الخيال الإنساني وتسهيل ابتكاراته. بعضها ستسمح لنا عمّا قريب أن «نشخطط» رسومنا على الورقة، لِتحوّلها الوسائط التكنولوجية إلى رسمٍ على أبعاد ثلاثة، وأن «ننحت» بحركة اليدين في الهواء، أو بالضغط على «فأرة كمبيوتر صلصالية»، وتحوّل الوسائط، كطابعات الأبعاد الثلاثة المستقبلية وغيرها، حركاتنا وإيماءاتنا الميكانيكية الهوائية أو الصلصالية، إلى تماثيل وأدوات ملموسة. كل ذلك ممكن قريباً. وما عصر «النسخ والإلصاق» على الناشر الإلكتروني في الكمبيوتر، الذي عرفه الإنسان قبل عقود، إلا ما يشبه العصر الحجري أمام ما ينتظرنا من إنجازات تكنولوجية، تحوّل الخيال، دون عوائق مادية، إلى حقيقة ملموسة.

الحاضر، بين هذا الماضي وذلك المستقبل، يجلي موقعنا من الإعراب التكنولوجي اليوم: تكفي رؤية تطوّر تقنيات «الصور الصنعية»، أي تلك التي يصنعها الكمبيوتر لوحده، وتبدو كما لو كانت صوراً واقعية!

من لا يعرف أن معظم صور فيلم «تيتانيك» كانت صنعية؟! وأن اليابانيين انتجوا أخيراً أفلاماً أبطالها ممثلون يابانيون محبوبون ماتوا قبل سنين، بمهارةٍ كمبيوترية لا تبدو للعين المجردة!

ولا يستبعد أن يكتفي الممثل في المستقبل القريب ببيع كل الحقوق لشركة سينمائية، والتوقيع على بطولة عددٍ من الأفلام، في أثناء مماته

وبعده، تتقمص صورته الصنعية كمبيوترياً ما شاءت دور السينما له من الأدوار، دون أن يمثّل فيه شخصياً، ثم يشاهدها وهو يكتشف دوره لأول مرة!

صناعة الصور الرقمية اليوم ثورة حقيقية تعيد تأثيث ميكانيكا الخيال الإنساني، تطوِّره وتفتح له كل الأبواب.

مثل محركات البحث كغوغل، ومثل برامج الذكاء الاصطناعي التي هزمت أبطال العالم في الألعاب الذهنية كـ «الغو»، هي أيضاً أرض خصبة يتحالف فيها عملاقا الخيال الإنساني الجباران: الرياضيات وعلوم الكمبيوتر.

يخلقان بها فضاءات جديدة لتطوير الخيال الإنساني، عبر التمثل الافتراضي على الشاشة لبنات خيال المبدع، وعبر الاختبار وإعادة التشكيل والصناعة الافتراضية لكل ما يؤلفه خياله.

وسائلها الجديدة تنهمر كل يوم: «الصلصال الافتراضي»، طابعات الأبعاد الثلاثة، «القلم السحري» الذي يحوِّل الرسم على الورق إلى أدوات ملموسة وتماثيل.

أرثي لذلك ظروف عمل إنجيلو ودافنتشي، بالمقارنة بظروف عمل فناني اليوم والغد. بل أرثي قبل ذلك الرعيل الأول من فناني ما قبل التاريخ وهم ينقشون بدايات الفنون التخييلية الإنسانية وينحتونها بأظفارهم على الصخر، في ظروف في غاية الصعوبة.

تقودني ذكرى هؤلاء الفنانين الأول إلى السؤال الأول: متى بدأ الخيال الإنساني؟!

حسب علماء الحفريات، «عرف الإنسان أنه يعرف» قبل نحو ثلاثة ملايين سنة. لكنه لم يأخذ صيغته البيولوجية الحالية: هومو سابيانس، إلا قبل نحو خمسين ألف سنة فقط، تطوّرت حينها فنونه ومعتقداته بفضل امتلاك دماغه ملكة الخيال.

ماذا حدث من تغيّرات في دماغ الإنسان حينها ليمتلك مِلكة الملَكات؟

من المعروف أولاً أن الدماغ يضم عدداً كبيراً من «المنظومات الاستنباطية»، مثل منظومة «الفيزياء البديهية» التي تسمح باستنتاج ما يحصل للأشياء المادية كانكسار الزجاج إذا سقط، وتبلل الجسد تحت المطر؛ «منظومة تعيين هويّة الأشياء» التي تسمح بتحديد هويّة ما يراه الإنسان: حيوان، حجرة... من أطياء موسوعة تراتبية متناثرة في عصبونات الدماغ، «منظومة علم النفس البديهي» التي تسمح بتفسير ما يدور في رأس الآخر وما ينوي عمله.

قبل نحو خمسين ألف سنة اندمجت، رويداً رويداً، جموع هذه المنظومات،

وبدأت تعمل كشبكة واحدة. تفجّرت حينها بنحو مفاجئ ابتكارات الإنسان الإبداعية كالنقوش والتماثيل، ومفاهيمه الجديدة المجردة كمفهوم الآلهة والطقوس الدينية، ونواة لغته المتطورة.

ظهرت حينها فنياً نقوش الكاميريا: حيوان خيالي تمتزج فيه أعضاء حيوانات رهيبة مختلفة وطيور فاتكة متنوعة.

مغارات إنسان ما قبل التاريخ عجّت حينها بـ «كاتدرائيات» مملوءة بالجداريات التي تفجّر فيها خيال الإنسان، وجسّد بها علاقته الروحية ببقية الحيوانات المحيطة ببيئته، ولا سيما تلك التي ابتكرها وخاف منها وعبدها كالكاميريا. معظم هذه المغارات أُتلِفت اليوم لقدمها، ولإهمالها، ولا سيما مغارات أفريقيا والشرق الأوسط العريقة.

نحو ثلاثمئة مغارة منها موجودة في أوروبا، أهمّها مغارة «لاسكو» الشاسعة الشهيرة في مونتونياك بجنوب فرنسا التي اكتشفها أطفال بالصدفة في سبتمبر عام ١٩٤٠: نحو ثلاثمئة نقش جداري لبقر وحشي، أحصنة، وحيدي القرن، ثيران وغيرها، عمرها نحو ثمانية عشر ألف سنة، قال عنها جورج باتاي: «مغارة ألف ليلة وليلة. سحر مشحون بالألغاز المفاجئة التي تعيد لنا أصداء أحد أقدم أعياد العالم».

أغلق وزير الثقافة أندريه مالرو المغارة في ١٩٦٣، بسبب تلفها جراء فرط تلويث زيارات السيّاح لها، ولعطبٍ مناخيٍّ أيضاً. ثمّ جرت محاكاتها في ١٩٨٣ بمغارة «لاسكو٢»: نسخة طبق الأصل، في مغارة أخرى قريبة، نقشها عدد هائل من الفنّانين في خلال عدّة سنين.

في صالة الثيران بمدخل المغارة مباشرة جدارية شهيرة تبدأ بكاميريا «ليكورن». حيوان خيالي كليّ، غامض يصعب تفسيره. له رأس حيوان مفترس غير محدد، وقوائم أربع. بطن متورم ضخم. يخرج من منتصف جبهته قرنان طويلان جداً. تليه أحصنة في حركة ديناميكية مثيرة، في مقدمتها حصان بِلَونين. يتقدمه حيوانان مهيبان متجانسان ومتواجهان من فصيلة الأثوار، يقع بينهما النصف العلوي لحصان، وأربعة أيلات. بعض أوجه الأحصنة مرسومة بدقّة أكثر الفنانين الماهرين اليوم.

لعلّ ذروة الخيال التشكيلي حينها جدارية غامضة في «صالة البئر» أشهر من نار على علم: «البئر»، تكزرت بكل تفاصيلها في مغارات أخرى، كما لو كان لها مدلول ديني أو فلسفي: بقرة وحشيّة في وضع استنفاريٍّ هجومي. أسفل بطنها مبقور برمح، تسيل منه دواخلها وأحشاؤها. أمامها رجل فمه يشبه منقار طائر، مستلقٍ في وضع ميّت، ذكَره منتصبٌ في الوقت نفسه، ساعداه مفتوحان، وبكل يدٍ له أربع أصابع فقط!

أمامه عودٌ مرفوع يجلس عليه طائر. وعلى يساره ست نقاط سوداء تؤدي لِوحيد قرن داكن، يبتعد بهدوء، كما لو كان غير مكترثٍ بالمشهد!

لم يتوقف المختصون عن دراسة هذه اللوحة المهيبة الغامضة وتفسيرها.

لم أستطع زيارة لاسكو١ التي لم تفتح إلا لأعداد قليلة من الناس أحيانا، منذ إغلاقها الرسمي، ولأغراض دراسيّة بحتة.

ارتجفت اندهاشاً وإعجاباً أمام مجمل الغاليرات في لاسكو ٢.

لم أتوقف حتى اليوم عن محاولة تخيّل كل فنّاني تلك العصور، نجوم طفولة الخيال البشري، وعن الدخول بعلاقة تخييلة روحية وحوار باطني مستديم معهم.

أحاول بصعوبة أن أحدّثهم عن مغامرات عوالمنا الافتراضية، وصورنا الرقمية الصنعية، ومستقبل ميكانيكا الخيال في عصرنا التكنولوجي!

في ديسمبر ٢٠١٦، إنتهى مشروع لاسكو٤: متحف جديد عملاق (يتسع لأربعة آلاف زائر يومياً)، يعيد لرابع مرّة خلق كل لوحات لاسكو١ باستخدام الشاشات الرقمية وأحدث التقنيات الحديثة هذه المرّة، في غاليرات تحت أرضية، قريباً من لاسكو١.

طفولة الخيال، في أغوار الجبال، تتنقّل هكذا عبر الأجيال، من محال إلى محال.

ماذا لو استيقظ الخوارزمي؟

أتساءل أحياناً: ماذا لو بُعث اليوم من جديد أحد أعظم علماء «بيت الحكمة»، مؤلف «المختصر في الجبر والمقابلة» و«الجمع والتفريق في الحساب الهندي» وغيرها، عبقريّ الرياضيات والفلك والجغرافيا، محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨٠ -٨٥٠م)؟

يبدو لي أن مفاجأتين ستعصفان به سريعاً. الأولى سعيدة جداً، والأخرى شديدة الإيلام.

المفاجأة الأولى: سيلاحظ أنه العالِم الوحيد، من كل علماء الماضي والحاضر، الذي لا يمرّ يوم واحد دون أن يُذكَر اسمه ضمناً في أهم صحف ومجلات العالَم!

نعم: الوحيد!

فغيره ممن ارتبطت أسماؤهم مثلاً بوحدات قياس كهربائية، كواط (نسبةً إلى جيمس واط)، تُذكر أسماؤهم ضمناً عند الحديث عن تلك الوحدات القياسية فقط. لكنها مجالات ذِكرٍ نادرة في كل الأحوال، ترتبط بالكهرباء، في حال واط.

وثمة آخرون سُمِّيَت مدنٌ بأسمائهم، من أستراليا إلى الإكوادور، وصالات محاضرات وعمارات جامعية بلا عد؛ وتوجد عملات نقدية تحمل صورهم، كما هو حال داروين، لكن ذكر أسمائهم في الصحف والمجلات، رغم ذلك، ليس يومياً مثل حال مولانا الخوارزمي؛ إذ يرتبط فقط بالحديث بين الحين والحين عن نظرياتهم وسِيَر حيواتهم!

أما هو فاسمه يوميّ الإشراق، في الحقيقة: يقضي كل الباحثين في كل فروع العلوم، من البيولوجيا إلى الجغرافيا، مروراً بعلوم الكمبيوتر والرياضيات والفيزياء، نصفَ حياتهم في البحث عن«خوارزميات».

آه، هذه الكلمة الجليلة دخلت قاموس العالَم منذ بضعة عقود فقط، مشتقّةً من اسم عالمنا النبيل!

فبفضل هذه الكلمة، عندما تفتح أية صحيفة كبرى، ستجد في مقالٍ ما اسم الخوارزمي.

ما رأيته اليوم، وأنا اكتب هذا الفصل مثلاً، مقال يتحدث عن خوارزميات الفيسبوك وغوغل التي أدّت دوراً في نجاح ترامب للرئاسة الأميركية، وآخر عن بنية خوارزميات بعض الدول لِمراقبة الإرهابيين وكشفهم، وآخر في مجلة فلسفية يستشرف خوارزميات الذكاء الاصطناعي المستقبلية،

وآخر عن خوارزميات تأجيج إدمان الإنسان للشبكات الاجتماعية، وآخر عن أول مرشح رئاسي فرنسي صاغت خوارزميةُ كل برنامجه الانتخابي، وهلمّ خوارزميات تخلّد اسم صاحبنا الأثير.

حتى عند الحديث عن وصفة طباخة، صارت كلمة «وصفة» تُستبدل مجازاً أحياناً بخوارزمية!

الحق أن الخوارزمية تعني وصفةً منهجية، بلغة محددة دقيقة، لحلّ هذه الإشكالية أو تلك، ويمكن تحويلها آلياً إلى برمجية تُنفَّذ على الكمبيوتر.

لماذا ارتبطت هذه الكلمة الجوهرية الفذّة باسم مولانا الخوارزمي؟ ولماذا منح العالَمُ هذا الشرفَ الاستثنائي لعالِمنا الجليل؟

لاستيعاب ذلك، تكفي العودة إلى القرن التاسع الميلادي واستحضار مستوى العِلم والفكر آنذاك، وملاحظة الأهمية الحاسمة للنقلات والثورات التي ابتكرها هذا العبقري الخالد، ومعه العلوم العربية عموماً آنذاك.

كانت الأعداد قبل ذاك تُكتب بالأحرف الأبجدية غالباً جداً أو بمنظومات معقّدة، باستثناء حال بعض البقاع الهندية. رقم ٢٨ مثلاً يكتب: XXVIII في الترقيم الروماني.

يصعب بالطبع قراءة أعدادِ هذا النظام، وإجراء العمليات الحسابية بهذه الوسيلة الترقيمية.

للخوارزمي الفضل في تعميم الترقيم العُشري الحالي (المسمى: الأرقام العربية، والمستوحى من منظومة أرقام هندية مختلفة)، ذي الأبجدية المكوّنة من عشرة أحرف (تبدأ بصفر، وتنتهي بتسعة)، وبلورة ذلك للعالَم أجمع، بفضل مؤلفاته التي أصبحت مرجع الجميع.

تبدأ كل صفحة في بعض الترجمات الأوروبية لها بهذه العبارة: «قال الخوارزمي» Dixit Algorizmi.

ليس ذلك فقط، لكن الخوارزمي نفسه من اخترع علم «الجبر»، لتصبح هذه الكلمة العربية، بعد ذلك، الاسمَ الدولي لهذا العلم الجديد.

سرد ابتكاراته في هذا المجال شاسعة. كمثَل: عندما ترى أمامك صيغة كهذه: $3x^2+2x+5=0$

فاعلم أن كلّ شيء فيها جاء بفضل الخوارزمي!

فهو أول من اخترع فكرة المتغير الرياضي x، وسمّاه «شيء»، قبل أن تصل هذه الكلمة العربية بدورها إلى إسبانيا وتلفظ في لغتها القديمة: «إكسي»، ثم تغزو أوروبا بعد ذلك بصيغتها النهائية: «إكس».

ما المعادلات الرياضية، وما علم المنطق الرياضي، بل وما كل العلوم، لو كانت دون استخدام المتغيرات والمجاهيل التي اخترعها صاحبنا العزيز؟

ثمّ هناك هذا الرقم الخطير: «٠»، في المعادلة السابقة، الذي يعود أصله كرقم إلى بعض سياقات الحساب في الهند. لكن لم ينل موقعه الجذري الحالي بين كوكبة الأرقام العشرة، ولم يستخدم في الحسابات الجبرية، ويتعمّم على العالَم، إلا بفضل الخوارزمي. منه جاءت كلمات: Chiffre، Zéro في اللغات الأوروبية.

ليست كل هذه المقدرة التنظيرية التجريدية الفذّة وحدها ما جعلت العالَم المعاصر يُطلِق اسم الخوارزمية لتخليد اسم عالمنا الفذ.

السبب الأكبر: الرياضيات قبل الخوارزمي كانت في الجوهر هندسة أقليديسية، ورسماً لأشكال هندسية في الأساس، تُستخدم لحل هذه الإشكالية العملية أو تلك، لا غير.

جاء الخوارزمي ليحوّل الرياضيات إلى لغة ومنهج يسمحان بتنظير تجريدي كلي.

شرح مثلاً نظرية معادلات الدرجة الأولى والثانية في الرياضيات بلغة دقيقة استخدم فيها مصطلحات جديدة: «الشيء»، «الجذر» (الرقم الذي يحلّ المعادلة)، «الدرهم» (الرقم الثابت في المعادلة)... تضاف إلى اختراعات عربية جديدة في المفاهيم الرياضية، ولا سيما في «حساب المثلثات»، كمفهوم «ظل» الزاوية.

قسّمَ هذه المعادلات إلى ستة أنواع.

أعطى كل نوع وصفةً منهجية لِحلّه (أي: خوارزمية)، تلاها ببرهانٍ رياضي دقيق، بلغته الرياضية الجديدة.

لعلّ هذه اللغة المنهجية الجديدة هي إحدى أهم عطاءاته الفكرية. بها ارتفعت مقدرات التنظير الرياضي، لتتحوّل الرياضيات رويداً رويداً، بفضل ذلك، إلى «ملِكة العلوم» التي أنجبت لاحقاً وليّة العهد: علوم الكمبيوتر، الذي يشكّل علم الخوارزميات قلبها النابض.

أما المفاجأة الثانية التي ستصدم الخوارزمي لو بُعث من جديد، فهي ما آلت إليه لغته العربية في المجال العلمي خصوصاً، هي التي كانت لغة العلم الدولية في عصره! فهذه اللغة العملاقة لم تعد تستخدم لكتابة العلم اليوم: يُدرَس العلم في عقر جامعات بلدانها العربية باللغات الأجنبية؛ أو منذ المدارس الثانوية والإعدادية، في أحيان كثيرة أيضاً. إذ تفتقر لغة الخوارزمي اليوم إلى ـمرادفٍ لكل جديدٍ في القاموس العلمي، وذلك منذ دهر. ويعلم الله أن هذا الجديد يهطل بغزارة من كل حدب وصوب هذه الأيام، ولا سيما في علوم التكنولوجيا الحديثة.

تفتقر لغة الضاد أيضاً إلى صيغٍ تعبيرية موحّدة مرادفة لبعض الصيغ

التقليدية المستخدمة في السياقات العلمية.
ثم ليست الكلمات العلمية وحدها فقط ما تنقص العربية في الحقيقة، لكنّ عدد هائل من كلمات الحياة اليومية لم يدخل العربية حتى اليوم. أسماء كثير من الحيوانات والعصافير، والأدوات العملية، لا توجد في لغة الضاد، على سبيل المثال.
تكفي رؤية ضحالة وجود العربية في ترجمات صفحات موسوعة ويكيبيديا على الإنترنت، ولا سيما الصفحات العلمية، لإدراك حجم الكارثة؛ دون الحديث عن أنيميا صناعة «المووكات» بالعربية، بل انعدامها المطلق.
الجميع مع ذلك، ولا سيما كبار الأغنياء والحكّام والمموّلين، المتدينين وغير المتدينين، يعبّر عن عشقه للغة الضاد، ويمدح لغة القرآن، لكنه يرسل مع ذلك أبناءه، بكل ارتياح، لتعلم المواد العلمية الجوهرية بلغةٍ أجنبية!
لا أستطيع التعبير عن حجم الصدمة التي ستهزّ مولانا الخوارزمي وهو يرى الواقع المزري للغته الحبيبة!
ومع ذلك، يكفي البدء ببناء «بوابات» على الإنترنت، مفتوحة للعالَم، تضمّ فصولاً لدروس مكتملة أساسية نموذجية، في كل فروع العلوم الأساسية، بدءاً بعلوم التكنولوجيا الحديثة حيث تغيب العربية كلاً تقريباً.
لكل اللغات الكبرى، وغير الكبرى أحياناً، تجاربها الطويلة المهمة في بناء هذه البوابات بلغاتها الوطنية، يمكن الاستلهام منها كثيراً.
في كل ثقافة ونظام تعليم حديث، تُعَدّ هذه البوابات طوبات المعرفة التي ينهل منها الطلاب ويستقي منها المدرسون، ويبنون منها جميعاً محاضراتهم ومعارفهم.
يحتاج بناء بوابات عربية مشابهة إلى مشروعٍ قومي عربي، تُعطى له الأولية، ويُنفَّذ على مراحل.
بعد تحديد فصول البوابات التي يلزم إعدادها في ضوء أولوياتِ مدى الحاجة الماسّة، يجري فتح عروضٍ لكتابة كل فصل، ينتهي باختيار ثلاثة أساتذة مثلاً من أقدر مستخدمي العربية والمتخصصين في مجال ذلك الفصل، من مختلف أنحاء العالم، ولا سيما الدول العربية، يساعدهم جميعاً، إذا لزمت الحاجة، بضعة مستشارين لغويين لإدخال مصطلحات أو كلمات عربية جديدة، ستصبح بفضل هذه البوابات المرجعَ والمعيارَ لكل من يريد استخدامها بعد ذلك. فابتكار كلمات جديدة مثل: رقمنة numérisation، واسترقام dématérialisation، تحتاج أحياناً لتخصص لغوي.
كذلك، يلزم أن يستند إعداد هذه الفصول إلى مبادئ ومعايير دولية راقية، لصنع محتوى وشكل مواد بوابات هذه المواد العلمية على الإنترنت،

مستفيداً من تجارب اللغات الأخرى، ومن تقنيات إعدادها تكنولوجيا بهذه اللغات، ونشرها واستخدامها على الإنترنت لطلاب العالم.

إنجاز مشروع كهذا قد يدوم أقل من ١٠ سنين، إذا عُدَّ هدفاً قومياً ملحاً، بل أكثر: إذا عُدَّ أبا الأهداف العاجلة، الضرورية لإيقاظ عملاق اللغة العربية النائم منذ دهر، وتدشين حضوره في التعليم والبحث العلمي الحديثين.

هل «باس» الهنديّ الهنديّة؟
أو: في تمجيد «التليفون العربي»

«التليفون العربي» مصطلح برز في الديار المغربية في القرن التاسع عشر. اخترعه المستعمرون الفرنسيون للحديث عن سرعة تفشي وانتشار الخبر هناك، عبر قناة القيل والقال.

على العكس من كثير من المصطلحات الاستعمارية المقيتة، يخلو هذا المصطلح من العنصرية، بل هو إيجابي: يمدح شبكة العلاقات الاجتماعية وفعالية مقدراتها على تقارب الناس ونشر المعلومات بينهم بسرعة ملفتة.

لعله إيجابي جداً في الحقيقة، لأن بعث الإيميلات، لإرسال خبر لمجموعة من الناس، ليس أكثر من ممارسة طقوس «التليفون العربي» في حلّةٍ تكنولوجية عنكبوتية جديدة. وما كتابة منشور على الفيسبوك أو «مشاركة» الآخرين بمنشور، بل وما الفيسبوك نفسه، إلا مجرّد رقمنةٍ للتليفون العربي في العصر الرقمي.

أما «التليفون العربي» في عصر الهاتف المحمول، فقد زادت مقدراته على التفشي والانتشار، وأضحى يحمل اسمه المجازي بكل جدارة.

عشتُ أخيراً قصةً تجلي مقدرات هذا التليفون في بثّ الأخبار بسرعة البرق، انتشرت هي نفسها عبر «التليفون العربي» من طرف الأرض إلى طرفها: اتجهتُ أخيراً مع صديق، ع.ش، نحو مقهى هادئ، عقب مشاهدة مسرحية «كارمن الكوبية» في مسرح شاتليه بباريس. مكثنا في صالة صغيرة في نهاية المقهى، تسمح بالحديث دون ضجيج. هو أمامي، قبل أن يصل خلفه، بعد قليل، شاب وشابة من الهند، في العشرين من العمر. هي بملابس هندية تقليدية، وهو بهيئة شباب جيل العولمة.

كنت أتحدث مع صديقي عن كتاب في الأنثروبولوجيا غيّر مجرى حياتي، عندما لاحظت نضال الشاب لمحاولة ترك قبلةٍ على ثغر رفيقته التي كانت تتجنب ذلك بضراوة، وبودّ رقيق أيضاً. أعرف أن الهنديات لا يحببن تدخين السجائر، جهراً أو في الخلاء. أما القُبَل فينفرن تماماً من ممارستها على مرأى الناس في الشارع.

ألاحظ: يتصبب الشاب أمامي عرقاً وهو يحاول باستماتة.

أسررتُ إلى صديقي، في معمعان تلخيصي للكتاب الأنثروبولوجي:

- خلفك ثنائي، هندي وهندية، الشاب يجاهد بعزيمة من حديد للفوز بقبلة العمر من حبيبته!

كان صديقي مهذباً. لم يستدر لرمق المشهد، لكنه كان يقاطعني، بلا وعي، كل خمس دقائق بسؤال: «الهندي باس الهنديّة؟».

في منتصف حوارنا ورد إلى صديقي اتصالاً من صديقٍ له، باح له في منتصف حديثهما بأن أمامه، وخلفهُ شاب وشاب هندية، إلى نهاية القصّة... أدهشني أن صديق صديقي اتصل بالأخير مرتين، يسأله السؤال نفسه الذي وجّهه إليّ. أمتعني ما يحدث، وما يلخص أهم ظواهر أنثروبولوجيا نوعنا البيولوجي: ظمأ الإنسان للمعلومة. يقضي الدماغ الإنساني معظم وقته بتحليلها، بالبحث عنها، بأرشفتها، بتبادلها مع الآخر... حاجته الحادّة لمعرفة ما وراء الأكمة، للتلصص، ولهتك كنه السر، عضوية.

تواصلث دردشتنا مع صديقي حول كل شيء ولا شيء لمدة ساعتين في المقهى، بعدها وردني اتصال من كندا، من صديق شخصيّ لي هذه المرّة، انقطعت أخباره عني طويلاً. سرّب لي في نهاية المكالمة هذا الاستفسار الغريب:

- نسيت أن أسألك: ما أخبار الهندي الذي أمامك في المقهى؟

- عفواً؟

- الهندي باس الهنديّة، أم لا؟

نسيتُ هذه القصة في خضم أحداث هذه الأيام التي يلغي كل حدث فيها ما سبقه ويمحوه من الذاكرة، قبل أن تصلني بعد أسبوع منها مكالمة من اليمن، دامت نصف ساعة تقريباً، عن أحداث دامية. قبيل نهاية المكالمة، يوجه إليّ صديقي هذا السؤال الذي فاجأني تماماً:

- عندما كنتَ قبل أسبوع مع صديقنا ع.ش في المقهى، كيف انتهى لقاء الهندي بالهندية؟!

عادت إلى ذاكرتي عبارات لِفرانس كافكا، في «رسالة إلى ميلينا»، ١٩٢٢، لا أجد أروع وأكثر نورانية منها لشرح الصراع بين الواقعي والافتراضي في هذه القصة، وفي كل حياة الإنسان المعاصر: «البوسات» المكتوبة في نهاية الرسائل لا تصل صوب وجهتها لأن الأشباح الافتراضية تشربها في منتصف الطريق. بفضل هذا الغذاء الدسم تتضاعف الأشباح على نحوٍ خرافي. تشعر الإنسانية بذلك، وتناضل ضد خطورته: حاولَت قدر ما تستطيع إقصاء العلاقات الشبحية بين الناس، بحثاً عن علاقات طبيعية ملموسة، وعن ترميم السلام بين الناس، مخترعةً لذلك السكك الحديدية، السيارة، الطائرة...

لكن السقوط كان قد بدأ قبل ذلك، والعدو الشبحي قد انتصر. هو هادئ واثق من نفسه بلا حدود. فبعد البريد، اخترع البرقيات اللاسلكية، [أضيفُ:

الإيميل، النصيصات الهاتفية (إس إم إس)، واتساب...]...
الأشباح لن تموت من الجوع، أما نحن فمندثرون».
أيقنتُ، في الحقيقة، بعد هاتف صديقي اليمني أن مصطلح «التليفون العربي» ليس مجرد استعارة إنشائية، بل ظاهرة متجذّرة في صميم الطبيعة الإنسانية.
فمنذ أن صار الإنسان إنساناً، وجد نفسه مثلنا اليوم أمام محيط لجاج من المعلومات التي تصله من كل مكان: من تاريخه، من محيطه الاجتماعي، من توقعاته واستنتاجاته التي يفترضها أو يختلقها بواسطة ملَكته الذهنية الفردية: الخيال، ولا سيّما أن «المعلومة مشكاة الإنسان»، كما يقول باسكال بوييه، صاحب الكتاب الأنثروبولوجي المهم الذي بدأت مع صديقي حوارنا بالحديث عنه.
إنتاج المعلومة الدائم، وتبادلها مع الآخر، منذ المراحل الأولية لحياة الإنسان، أهم الخصائص الجوهرية في نشاطه اليومي الذي سمح له بالبقاء على وجه المعمورة، وبالفرار من سباعها وضواريها، وبتبادل التجارب مع الآخرين والتغلب على مصاعب الحياة. غير أن كثيراً من هذه المعلومات تسقط عاجلاً أو آجلاً في هاوية النسيان. وثقة خصوصيات محدّدة تجعل بعضها تستحوذ الذهن، تثير حب استطلاعه، وتبقى فيه أكثر من غيرها، إن لم تنتقل أيضاً من جيل إلى جيل:
أولاها المعلومات التي «تغتصب» (أي: تخالف) توقعاتنا الذهنية في جانب واحدٍ فقط. أضرب أمثلة على ذلك: «زرقاء اليمامة» الأسطورية امرأة كأية امرأة، لكنها قادرة، بعينيها الزرقاوين، على مشاهدة الأشياء البعيدة التي تفصلها عنها مسافة ثلاثة أيام!
برهنت تجارب علماء الذهن أن هذا النوع من المعلومات يستحوذ على الذهن ويلتصق بذاكرته طويلاً.
ثانيتها تلك التي تثير أكبر عدد ممكن من «المنظومات الاستنباطية» في الدماغ، التي تحدّثنا عنها في فصل: «أصداء أقدم أعياد العالم».
مثال: الكائنات الميتافيزيقية في كثير من المعتقدات الدينية التي تمتلك قدرات خارقة (تثير بذلك «منظومة الفيزياء البديهية»)، تراقب حياتنا الاجتماعية من خلف السماوات، وتعرف خفاياها ومستقبلها (تثير بذلك «منظومة علم النفس البديهي»).
ثالثتها تلك التي تؤثر بنحو ملموس في مشاعرنا وحب استطلاعنا، وتجعلنا نتمثلها في الدماغ (تتقاطع، في الحقيقة، مناطق التمثل في الدماغ مع مناطق الإحساس فيه). لهذا السبب نشعر بالألم أو السعادة عند

تمثلنا لألم أو سعادة الآخر، في فيلم سينمائيّ أو رواية أدبية.

ولهذا يهيج سؤال: «كيف انتهى لقاء الهنديّ بالهنديّة؟» ذكريات سعيدةً عند هذا، وحب استطلاع تلصصي جارف عند ذاك، تجعل المستمع عموماً يرسم في خياله السياق والمسرح الذي يدور فيه النضال الإنساني البريء للشاب الهنديّ للحصول على قبلة العمر من حبيبته الصغيرة.

لعل سيلاً من الأسئلة يجتاح ذهن السامع: كيف كان منظر الشابين في ذلك الركن القصيّ من المقهى؟ هل كان رفض الشابة وديّاً غنجاً، أم تحوّل إلى رفضٍ قاطع؟ هل استمرت الشابة في رفضها، أم جبرَتْ خاطر حبيبها أخيراً بربعِ قبلة صغيرة على الأقل؟ لاحظتُ ذلك عندما نشرتُ هذه القصة، فانهمرت عليّ الأسئلة من كل مكان عن تفاصيل لقاء الهندي بالهنديّة ونهايته، لأجد نفسي بأهميّة «من يعلم السرّ وأخفى»: كاتب الرواية الذي يعرف وحده نهايتها، فيما يحترق الجميع انتظاراً لها!

تأجيج تمثّل دماغ القارئ لما يتلقاه من معلومات، وتفاعله معها، هو جذوة رجاء العمل الإبداعي. ولا تخلو هذه القصة الصغيرة من عناصر تتناغم مع سليقة الدماغ البشري وحاجاته، تستقطب انتباه عدد من منظوماته الاستنباطية، وتنشط الحساسية الإيقاعية والجمالية والإنسانية التي اكتسبها في خلال مراحل تطوّره.

قد يبدو هنا أن للتليفون العربي أهميّة في العلاقات الاجتماعية فقط. كلا، آليات القيل والقال، وفن بثّ الشائعة، أهم ركائز الاقتصاد الرقمي الجديد: موضوعنا القادم!

مثلث الرغبة!

استعارة «التليفون العربي» تطلق على سرعة بث الخبر وتفشيه بين الناس، عبر وسائل «من الفم إلى الأذن»، بكل أشكالها وألوانها: دردشات، همز ولمز، غيبة ونميمة، تواصل اجتماعي...

هو وسيلة تواصل أفقيّة بين الناس، تتشعّب وتتفزع على نحو عنكبوتي، مبنيّ على نموذج «من الواحد إلى الواحد»، peer to peer.

قد يظن البعض أن للتليفون العربي بعداً اجتماعياً فقط. له في الحقيقة بعدٌ اقتصادي أهم، حوّله اليوم إلى أولى ركائز الاقتصاد الحديث!

هو في الحقيقة أنجع الوسائل لنشر بضائع الأسواق التجارية وبيعها. ٦٠٪ من التسويق، حسب مكتب دراسات أميركي أحصى ذلك في ٢٠١٤، سببه أن صديقاً أو قريباً أو إنساناً محبوباً اشترى أو أوصى بشراء هذه السلعة أو تلك، أو قال كلاماً طيباً عنها، أو يحلم بشرائها لا غير.

وصول هذه المعلومة للمستهلك، عبر قنوات «القيل والقال» بكلّ أشكالها التقليدية، أو الحديثة كشبكات التواصل الاجتماعي، هو ما تسعى الاستراتيجيات التسويقية للشركات الاقتصادية إلى تنظيمه.

«الإنسان يرغب دوماً من وحي رغبة الآخر» تقول أطروحة الأنثربولوجي الكبير رونيه جيرار الذي درس هذه الظاهرة الجوهرية في الطبيعة الإنسانية، منذ أوّل كتبه: «أكذوبات رومانسية، وحقائق روائية» (١٩٦١) الذي قال عنه كونديرا إنه أفضل كتاب عرفه في فنّ الرواية.

لتحليل طبيعة الرغبة الإنسانية، ينطلق جيرار من دراسة «مثلث الرغبة»: الراغب، موضوع الرغبة، والوسيط الذي يتوق الراغب لمحاكاة رغبته، وذلك عبر دراسة وتحليل أعمال روائية مهمّة لسيرفانتيس، بروست، دستوفيسكي، ستاندال، فلوبير... وعبر تحليل الأساطير الإنسانية أيضاً.

يكفي، لاستيعاب هذه الظاهرة العميقة في الإنسان، توزيع نسخٍ متطابقة كافية من لعبةٍ ما لعدد من الأطفال، ورؤيتهم يتخاصمون على امتلاك إحداها!

منبع الرغبة غالباً، في مثلث جيرار، هو تقليد رغبة الآخر وليس موضوع رغبته. فنظرة إنسانٍ ما (سين) الإعجابية بموضوع ما (صاد)، بإمكانها إثارة رغبات إنسانٍ آخر (نون).

ولأن صاد يمكن أن يتغيّر على الدوام بين سين و نون، فمنبع رغبة المحاكاة لانهائي، ويمكنه أن يقود إلى تصاعد التسويق والأرباح دون

انقطاع، أو إلى ظواهر مختلفة كالغيرة والعداء والعنف والتضحية...
كذلك حال دَور الإعلانات التجارية في حياتنا الإنسانية، لا يمكن إدراكه إلا من وحي نظرية جيرار.
استوعبت الشركات التجارية هذه النظرية أفضل استيعاب. لذلك، هدفها الرئيس خلق نواة مستهلكين، عبر التليفون العربي وغيره من الطرائق، تمدح سلعتها وتثير رغبة الآخر.
كل الوسائل مهمة هنا: البدء بصنع سلعة ذات مزايا تجذب المستهلكين. ذلك لا يكفي بالطبع، لشدة التنافس وتشابه السلع.
يليه إمطار المستهلك بالإعلانات التجارية للفت نظره واستحواذه وتهييج رغباته عبر نشر صور وفيديو لـ «نجوم» يحبون ويمدحون السلعة: رؤية زين الدين زيدان مثلاً وهو يضع هذا الحذاء، أو ناتالي بورتمان وهي تستخدم هذا العطر، يسيل لعاب المستهلك، وإن لم يجرّب الحذاء أو يشم العطر.
ثم هناك أشكال متنوعة لاستخدام التلفون العربي وفنّ الشائعة لأهداف تسويقية محضة، عبر توليع رغبة محاكاة الآخر، في ضوء نظرية مثلث الرغبة: النقر على أيقونة «توصية»، في المواقع التجارية على الإنترنت، أو على أيقونة «إعجاب» بهذه السلعة وضمّها إلى «قائمة الرغبات»، أو وضع روابط إنترنتية على غرار: «من اشترى هذه السلعة، أشترى أيضاً هذه السلع المكملة».
حلم كل الشركات التجارية، في الحقيقة، خلق قاعدة من المستهلكين المعجبين بسلعها، على نمط جمهور كاميكاز سلع شركة آبل، المعجبين بها على نحوٍ ديني أعمى: ينامون قرب مستودعات بيع أية سلعة جديدة لآبل، ليلة ظهورها، ويهيجون بذلك رغبات الآخرين لشرائها، حتى وإن لم يختلف الآيفون الجديد مثلاً، في الجوهر، عن السابق (الذي يلبي كل الحاجات، ويمتلك كل التطبيقات أيضاً) إلا في لونٍ أو شكلٍ جديد لا غير!
يعرف المسوّقون أنه لم تعد غالباً هناك حاجات جديدة لم تلبّها سلعهم القديمة، وأن استراتيجياتهم تكمن اليوم في الدقّ على أوتار خلق رغبات محاكاة جديدة لا غير، لموضات جديدة، عبر أوسع استخدامٍ كميٍّ وكيفيٍّ للترغيب والدعاية، يسمح بولادة رغبةٍ جديدة، وتفشيها في المجتمع الاستهلاكي، بفضل آليات تفعيل مثلث الرغبة.
يكفي، على سبيل المثال فقط، مراقبة بعض الشركات الكبرى التي تهيمن على السوق اليوم: الفيسبوك، ملك سوق البيانات الشخصية؛ غوغل، سيّد سوق المعلومات؛ إيربي.إن.بي، فخل سوق كراء الشقق؛ أوبر، فارس سوق

التاكسيات التي تحجزها حيثما كنت، وترى حينها مباشرة، على خريطة تنطبع في شاشة هاتفك المحمول، صورة سائقها وسيارته وهو يقترب نحوك.

مجموع هذه الشركات وشبيهاتها (التي صارت أثرى وأقوى من سلطات دول) لا تمتلك أو تصنع وحدها أية سلعة؛ كل ثرواتها الفرعونية تنبع من كونها همزة وصل لا غير، في اقتصادٍ رقميٍ جديد: الشقق المؤجّرة والتاكسيات ملك أصحابها وليست ملكاً لإيربي.إن.بي أو أوبر؛ المعلومات والبيانات الشخصية ملك الناس يضعونها للحديث عن أنفسهم، ولإثراء إمبراطورية الفيسبوك في الوقت نفسه... فسائق التاكسي مثلاً ليس «موظفاً» لدى شركة أوبر، بل «عميل» لها! هي مجرد جسر بينه والمستهلك، تجني حقوقها من عمله، دون ممارسة واجبات رب العمل تجاهه!

ثراء هذه الشركات العملاقة الجديدة يتراكم من مجرد عرض ما يمتلكه هذا لذاك، بفضل براعتها وفطنتها في فنّ استخدام التلفون العربي على الإنترنت، لخلق شبكة مستهلكين قويّة مخلصة تنشر الدعاية لها، وتحثّ الآخر على مزيدٍ من التفاعل معها. أي: في فنّ رقمنة تفاعلات الناس وآرائهم وتقويماتهم؛ وإعطاء ملخصات وإحصائيات لأمزجتهم حول أي سائق تاكسي أو شقّة سكن أو مطعم مثلاً؛ ونشر تعليقاتهم حول أية خدمة؛ والتلويح بعدد إشارات إعجابهم الفيسبوكي لكل منشور أو صورة أو سلعة. يعطي كل ذلك لكل خدمة قيمةً ورقماً في سوق بورصة الحياة، بإمكانها جذب المستهلكين سريعاً عندما ترتفع قيمة الإعجاب بهذه السلعة أو تلك، أو تكون ذات خمسة نجوم!

وصلت ممارسة هذه الرقمنة للتقييمات البشرية، بغية جذب اهتمام المستهلك و«بَوأرته» في سلع فَنارية، حداً متطرفاً مرَضياً: كل برامج التلفاز تخضع اليوم في الغرب لديكتاتورية سلطة شعبية البرنامج، حسب الإحصائيات المباشرة لعدد من يتابعونه («الأوديمات»)، لا لأهميته وجودته وضرورته.

من هبطت قيمته في سوق «الأوديمات» سقط، ومن ارتفع علت درجته.

ملحقات الصحف تحمل قائمة أسماء الكتب الأكثر مبيعاً، التي تصبح لمجرد هذه المعلومة أكثر فأكثر انتشاراً، وإن كانت ضحلةً تافهة.

كذلك، يقضي اليوم الطالب والمدرس الجامعي، أو الموظف عموماً، جزءاً من وقته أمام برامج كمبيوترية متخصصة، لإعطاء تقويمات عن السلع، المواد الدراسية، الزميل أو المدرس...

وقريباً (من يدري؟)، سيحمل كل إنسان في جبينه، كما لو كان سلعة، «كود بار» (شفرة من خطوط) تحوي، ضمن ما تحوي، إحصائيات تتغيّر يومياً، عن قيمته في سوق التجارة والعمل والحياة!

لا يخلو كل ذلك من الزيف الذي يتفشى بالضرورة مع توسّع الانتشار السريع للقيل والقال الرقمي، ومن مخاطر التعتيم والرقابة والتوجيه.

فاستفحال الخطأ يتعاظم حتماً مع تفشي المعلومة وترديدها بين الناس.

يكفي تذكّر اللعبة الشهيرة المسماة «التليفون العربي»: يهامس أحدهم بجملة من نحو ٢٠ كلمة لجاره، الذي يلزمه ترديدها مهامساً جاره الآخر، وهكذا دواليك.

عند الوصول إلى الأخير، يردّد الجملة جهراً أمام مسمع الجميع، وتقارن بجملة الأول، ليضحك الجميع من وصولها في النهاية محرّفة جداً أو معكوسة تماماً!

علاوة على ذلك، رقمنة القيل والقال يمكن أن تقود عمداً إلى التعتيم والإقصاء الناجم عن «التلخيص الإحصائي لاتجاهات اهتمامات الناس ومحاور جدلهم ونقاشاتهم»، كما تفعل يومياً بعض تطبيقات الفيسبوك، الخاصة بأميركا:

اتهامات الحزب الجمهوري بأن خوارزميات هذه التطبيقات تتناساه عند استخلاصها لتلك الاتجاهات، بهدف إسقاطه في الانتخابات، تكشف ما تحمله الرقمنة للعلاقات الاجتماعية من مخاطر كمينة ممكنة!

لغة آدم!

ثمة سؤالٌ ممتعٌ قادني إلى الحديث هنا عن أصل اللغة ونشأتها، برزَ في حوارٍ جماعيٍ شاركتُ فيه: «ما هو أعظم حدثٍ غيّرَ تاريخ الإنسان؟».

ردّ أحد المساهمين سريعاً: «الكمبيوتر!».

ردّ آخرُ، يشعر بالاختناق إذا لم يكن مرتبطاً بشبكة الإنترنت، ويرى أننا في عصرٍ صارت فيه الشبكةُ أهمَّ من الكمبيوتر، إذ بها يستطيع عمل كل شيء ولو بالهاتف أو الآيباد: «الإنترنت!».

ردّ آخر: «لا، الأهم قطعاً: الكهرباء، أجمل بنات القرن ١٩! ما الإنترنت والكمبيوتر بدونها؟».

توالت الردود تُعدِّدُ منعطفاتٍ جوهريةً حاسمة، تغوص في الماضي أكثر فأكثر. قال أحدنا: «تدجين الكلب قبل ١٥٠ ألف عام هو الأهم. حمى الكلبُ بشراسةٍ ووفاء الإنسانَ المنبوذ في عراء أديم السافانا الأفريقية وساعده على الاصطياد. كان الإنسان الأوّل يدين له بكل شيء. يقيم حفلات تأبينٍ له عند الموت كما يفعلُ لِذويه. أمّا بشريةُ اليوم فقد انقطع من جبينها عِرق العرفان بالجميل، ولم تحتفل بعدُ بمرور١٥٠٠ قرنٍ على صداقة الإنسانِ والكلب!».

قال آخر: «اكتشافُ النار قبل ٨٠٠ ألف سنة. بها واجه الإنسان الضواري، وحسّن لاحقاً ووسّع من قائمة مأكولاته، ولها فوائد لا تعدّ ولا تحصى!».

كان هذا السؤال الممتع قد شغلني قبل الحوار الجماعي بزمن.

ثمّة، في الحقيقة، حدثٌ أراه في أقصى الجوهرية، تفوق أهميته كل الأحداث التي ذكرها أصدقائي، ولولاه لما كان الإنسان إنساناً بكلّ بساطة.

قبل التطرّقِ إليه، سؤالٌ تمهيديٌ آخر: ما لغةُ «الإنسانِ الأوّل»، أو «لغة آدم»، كما تسمّيها مجازاً بعض الكتب العلمية.

بتحديدٍ أدق: ما لغةُ الرعيلِ الأوّلِ من بشر السلالات الإنسانية القديمة؟ أي بشر شجرة السلالات التي انتقلتْ فروعُها من نوعٍ إنسانيٍ إلى نوع، من «آدمَ لآدم» كما قال أبو العلاء المعرّي بصيغةٍ حلزونيّةٍ عبقرية استشعرَتْ «شجرة الأوادم»، قبل عشرة قرون من اكتشافات حفريات العلم الحديث:

جائزٌ أن يكونَ آدمُ هذا

قبلَهُ آدمٌ على إثرِ آدم!

بعض أهم فروعها التي تؤكد صواب حدسِ شاعر الفلاسفة، المدجّجِ بالحواس السادسة والسابعة والثامنة:

١) هومو ايبيليس: الإنسان الحاذق، الذي استخدم الحجارة الحادّة كآلاتٍ بدائية للدفاع عن النفس والهجوم على الحيوانات الضارية، قبل أكثر من مليوني عام.
٢) هومو اريكتوس: الإنسان المنتصب، الذي صنع الفؤوس قبل نحو مليون ونصف مليون عام.
٣) ثمّ أخيراً جدّاً هومو نارانس: الإنسان الحاكي، الذي بدأ يسردُ ويخترعُ أولى القصص البدائية بنواةِ لغةٍ جنينية من كلماتٍ متراصّة دون بناءِ جمل، بعد أن تطوّرَتْ وتوسّعَتْ مناطقُ اللغة في عصبونات دماغه... لعلّهُ سلفُ شهرزاد الذي اخترع الصيغة السحريّة الخالدة: «كان يا ما كان» وأخواتها.
قبل الوصولِ إلى بيت القصيد، قبل نحو خمسين ألف عامٍ فقط:
٤) هومو سابيانس: الإنسان الحديث، الذي يُتوِّجُ رأسَهُ نفسُ دماغِ إنسان اليوم (ضعف حجم دماغ ايبيليس)، بِنفسِ جغرافيةِ عصبوناته، بكلّ ملَكاتهِ التخيُّلِيّةِ واللغوية الراقية، وبكلّ قلقهِ الوجوديّ وتفكيرهِ المحموم، وبكلّ هوسهِ باختراع ألفِ سيناريو وسيناريو تُفسّرُ بدايةَ الحياةِ على الأرض ومآلَ الإنسان بعد الموت.
أهم حدثٍ في تاريخ الإنسان، في رأيي، اندلع بين منعطفين تاريخيين مفصليين سبقا تدجين الكلب واكتشاف النار بأكثر من مليون سنة.
الأوّل: لحظة استخدام هومو إيبيليس الحجارة كآلات بدائية، والثاني: لحظة استخدام هومو اريكتوس للفؤوس.
ما هو هذا الحدث الواحد الأوحد، الألفا والأوميجا، جذر الجذر، وشرارة بدء الأنسنة؟
لأُطيلَ التشويقَ قليلاً، يلزم التذكير أوّلاً: قبل هاذين المنعطفين الحاسمين بملايين السنين، كان أجدادُنا الأوائل يعيشون في أطوار بدائية جداً فوق أشجار أفريقيا، قبل أن يحلّ على الأرض جفافٌ هائلٌ لحق عصراً جليدياً عمّ المعمورة.
أدّى الجفاف رويداً رويداً إلى استبدال غابات شرق أفريقيا بأديم السافانا، وإلى هبوط أجدادنا من أشجارهم الذاوية إلى الأرض. فيما ظلّت غابات غرب أفريقيا مأوىً لكبار القرود التي استمرت تسكن أعاليها، وتعيش وتتطوّر بشكلٍ مختلف عن أجدادنا الذين هبطوا من «جنّة» أعالي أشجارهم إلى الأرض، لِيبدأوا حياةً مختلفة في عشٍّ جديد.
صارت السافانا حضنَ جدّنا الأول، احتاج فيها إلى المشي بساقين، والانتصاب لرؤية الضواري البعيدة وما وراء الأكمات، ولرمي الحجارة بشكلٍ أفضل.

خلال بضعة ملايين سنة، انتصبَ ظهرُه رويداً رويداً، كما تكشف الحفريات المتعاقبة. تمكّن من المشي أفضل فأفضل على قَدَمين فقط، بِفضلِ تلاؤمِ بُنيانِ وميكانيكا مفاصِلِهِ وجسدِهِ مع بيئتهِ الجديدة، أكثر من غيره!

احتلَّ دماغُهُ العموديُّ على جسدِهِ موضعاً متميزاً مؤهلاً لأن تنموَ فيه مساحاتٌ وملَكاتٌ جديدة، تتواصلُ وتنضمُّ مع بعضها.

باختصارٍ شديد تأنسن جدُّنا رويداً رويداً، أكثر فأكثر.

لم تكن لِجدّنا قبل المنعطفين التاريخيين الجوهريين لغةٌ. لم يختلف بذلك عن بقية الحيوانات وهي تتبادل إشارات صوتية عند الشعور بالخطر جرّاء رؤية حيوان مفترس أو سماعه. كانت تلك النبرات كلَّ قاموسهِ اللغويِّ الغريزي الذي لا حاجة لتعلّمهِ كما يتعلم الطفل اللغةَ اليوم.

إذ هو ليس بقاموس كلمات، بل منظومة تواصلٍ غريزيةٍ مغلقة، لا علاقة لها بلغات الإنسان الحديث، المفتوحات إلى ما لا نهاية، واللواتي يتجاوز عددهنّ ٥٠٠٠ لغة يلزم تعلّمهن واكتسابهن. أي إشارات فطريّة، مثلها مثل منظومة التواصل لدى النحل والنمل، أو مثل صوتٍ معروف للقردة اليوم، مدلوله: «هنا أسد»، وآخر «هنا ثعبان».

المثير جداً، عند تسجيل الصوت الأوّل على شريط، وفتحِهِ أمام مجموعة قردة في الغابة، ينُظَون بهلع إلى أعلى الشجر للاختباء! لكنهم لا ينُظون إليها عند الصوت الثاني، بل تتسمّرُ نظراتهم في الأرض، وإن كان هلعهم لا يقل عند سماعه!

رحلة تطوّر اللغة الإنسانية موضوعٌ لا حدّ لثرائهِ وغِناه، يُكثّف كل تاريخ الإنسان.

أقصدُ: رحلتها منذ النبرات الغريزية: «هنا أسد!»، وحتى قصيدة «فصل في الجحيم» لرامبو، و«الجدارية» لمحمود درويش. رحلةٌ ساحرةٌ مدهشة، لولاها لما سمعنا شاعراً يقول لنا ذات يوم:«جاءت مُعذّبتي في غيهبِ الغسقِ»؛ يبوح لنا بسؤالهِ لِـ«معذّبتهِ»: «أما خشيتِ من الحرّاسِ في الطرقِ؟»؛ قبل إجابتها المذهلة ودمعُ العينِ يسبقها: «من يركب البحر لا يخشى من الغرقِ»، وما يلي الحوار من فضاءٍ إيحائيٍّ حميم، صمتَ عن سردهِ الشاعرُ ليترك القارئَ يتصوّرهُ مرتعشاً ملتهباً كما يحب.

أدعو القارئَ إلى أن يقضي أسبوعاً في التأملِ في هذه الرحلة وتصوّرِ مراحلها، قبل سرد شذرات من أهمّ عتباتها في فصلٍ قادم. ليتأمّلَ تحديداً في يوميات أجدادنا وظروفِ حياتهم أثناء المنعطفين التاريخيّين، وحاجتِهم العضوية بينهما لتجاوز منظومة الاتصالات الحيوانية الغريزية، وكيف أدّى ذلك إلى اندلاعِ نواةِ ومداميكِ لغةٍ بدائيةٍ جداً، هي ما أعتبرهُ:

أعظمَ وأهمَّ وأسمى حدثٍ في تاريخ الإنسان!
فاللغةُ مفتاح الطبيعة الإنسانية. كل ما يميّز الإنسان على سائر الحيوانات مسراهُ ومجراهُ اللغة: حديثهُ اليومي، كتاباتهُ وقراءتُه، علاقاتهُ بالآخر وبنفسِه، تفكيرهُ، وعيهُ ولاوعيه...
ما الأحداث التي ذكرها أصدقائي إن لم تكن ثقة لغةٌ إنسانية للتفكير بها واكتشافها؟
ما الانفجار الكوني الكبير (البيغ بانغ) قبل ١٣.٧ مليار عام، وما بدء تشكّل الجزيئات العضوية من المواد اللاعضوية في الأرض قبل ٣.٨ مليارات عام، أي بدء البيولوجيا والحياة، وما اكتشاف وجود الماء على المريخ مؤخراً، إن لم تكن ثقة لغة للحديث عنها جميعاً؟

في البدءِ كانت كلمةُ ميام ميام!

في حوارٍ جماعيٍّ، تحدّثتُ عنه في فصلٍ سابق، عن أهمّ حدثٍ أنسنَ الإنسان، اتفق الجميع على أنه «اكتسابُ اللغة». غير أن سؤال «كيف نشأت اللغة وتطوّرت، ولا سيما في مراحلها الجنينية؟»، كما لاحظ المتحاورون، من أكثر الأسئلة العلمية حساسية، ومن أصعبها أيضاً، لأن الكلمات الشفوية لم ترتسم آنذاك بما يُوثّقها.

اعتبرَ مجمعُ اللغويين الفرنسيين في ١٨٦٦ الحديثَ عن «أصل اللغة» موضوعاً شديد الخطورة (Top secret) ومنع، في البند الثاني من ميثاقه، نشر أية دراسةٍ عنه!

نحن الآن في القرن الواحد والعشرين. المختبرات العلمية المتخصصة به، والكتب والدراسات عنه، بلا عد، أحدُ أهمّها: «لغة آدم» لديريك بيكرتون الذي سأسرد هنا، فيما سأسرد، بعض خلاصاته.

شغلَ سؤال اللغة الأولى فلاسفة العرب أيضاً. وها هو أبو العلاء المعري في رواية «رسالة الغفران» يدحض بالمنطق والتفكيك اللغوي والنقد العقلاني ادّعاءات أن سيّدَنا آدم كان يتكلم العربية!:

البطل الرئيس لرواية أبي العلاء، ابن القارح، يزور الجنة، يقابل فيها سيّدَنا آدم ويسأله عن أبيات شعرٍ منسوبةٍ إليه:

«... فيلقى آدمَ، عليه السلام، في الطريق فيقول: يا أبانا، صلّى الله عليك، قد رويَ عنك شِعرٌ منه قولك:

نحن بنو الأرضِ وسكّانُها

منها خُلِقنا وإليها نعُود

والسَّعدُ لا يبقى لأصحابِهِ

والنحسُ تمحوهُ ليالي السُّعود»

يُعبّر آدم عن اتفاقهِ معهما، لكنه يدحض أنه من قالهما: «لم أسمع بهما حتّى الساعة!»، قبل أن يبرهن ذلك بتفكيكٍ وتحليلٍ منطقيٍّ أفلاطونيٍّ أنيقٍ لهما، لا يخلو من السخرية.

«فيقول آدم: إن هذا القول حق، وما نطقهُ إلا بعضُ الحكماء، ولكني لم اسمع بهِ حتى الساعة!

فيقول ابن القارح: لعلّك يا أبانا قلتَهُ ثمّ نسيت! فقد علمتُ أن النسيان متسرّعٌ إليك، وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوّة في فرقانٍ محقد، صلى اللهُ عليه: «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنَسيَ، ولم نجد له عزماً!».

يقول آدم، صلّى اللهُ عليه وسلّم: «أبيتم إلا عقوقاً وأذيّة. إنما كنتُ أتكلّمُ العربية وأنا في الجنّة، فلّما هبطتُ إلى الأرض نُقِلَ لِساني إلى السريانية، فلم أنطق بغيرِها إلى أن هلكتُ، فلمّا ردّني الله، سبحانه وتعالى، إلى الجنّة عادت عليّ العربية!

فأي حينٍ نظمتُ هذا الشّعر: في العاجلة أو الآجلة؟ والذي قال ذلك يجبُ أن يكون قاله في الدّار الماكرة، ألا ترى قوله: «منها خُلِقنا وإليها نعود»؟ فكيف أقول ذلك ولساني سرياني؟...

وأما الجنّة، قبل أن أخرجَ منها، لم أكن أدري بالموت فيها. وأما بعد رجوعي إليها فلا معنى لقولي: «وإليها نعود» لأنه كذبٌ لا محالة، ونحن معشر أهلِ الجنّة خالدون مخلّدون!».

لِنموضعَ أنفسَنا الآن بين منعطفَين حاسمَين عرفهما تاريخ الإنسان. الأوّل: لحظة استخدام هومو ايبيليس الحجارة كآلات بدائية، قبل أكثر من مليوني عام. والثاني: لحظة استخدام هومو اركتوس للفؤوس، قبل نحو مليون ونصف مليون عام.

في المنعطف الأول، كان الإنسان كائناً ضعيفاً لا قيمة له في هذه المعمورة، اللهمّ أنه كان يجيد استخدام الحجارة الحادّة، ليس لكسر بقايا عظام الحيوانات الميتة فقط كما يكسر القردة بها بعض الثمار، بل أيضاً للدفاع عن النفس والهجوم أحياناً على الوحوش الضارية.

كان غذاءَه النباتُ والحيواناتُ الصغيرة التي يصطادها، وبقايا بقايا الفيلة والحيوانات الضخمة الميتة التي تلتهمها الضواري، وتترك له ما بقي من عظامها الكبيرة التي لا تستطيع مضّ نخاعها.

كان جدّنا يتوجّه حينذاك مع عائلتهِ إليها، ليكسر بأحجاره الحادّة تلك العظام. يلتهمُ بِنَهمٍ مُخَّها الذي ساعده على تطوير بنيته الجسدية ودماغه.

لم يكن جدُّنا حينها يمتلك لغةً متميزةً عن منظومة الاتصالات الحيوانية الغرائزية: نبراتٌ وإشاراتٌ للإشعار بالخطر: «هنا أسد!»، «هنا ثعبان!»، وهلمّ صرخاً...

أما بعد نحو نصف مليون عامٍ من ذلك، فقد كان الإنسانُ في عصرٍ تاريخيٍّ جديد، متطوّرٍ جداً، أجاد فيه صنعَ فؤوسٍ بدائية.

لم يعد غذاؤه فيه بقايا الحيوانات الضخمة الميتة، ولكن بقاياها الأرستقراطية: يلتهمها قبل الحيوانات الضارية، كما أكدت الحفريات وهي تكشف انطباع آثار ADN الإنسان عليها، قبل غيره.

كان يصل إلى تلك الحيوانات الميّتة بمجاميع إنسانية كبيرة (على عكس زمن جدّه ايبيليس)، لِيهجم جميعُهم على جثّة فيل الماموث الميّت.

يصرخون بصوتٍ طرزانيٍ مشتركٍ يرعب الوحوش، ويرمونهم بالحجارة الحادة لإبعادهم عن المائدة، فيما تقطع النساء بالفؤوس أفضلَ أضلاع الماموث. ثم يهربون بغنيمتهم سريعاً، بعد أن يتركوا بذكاء شذرات لحوم للحيوانات الضارية حتى لا تلاحقهم.

يعودون هكذا إلى كهوفهم للاحتفال بما جنوه، وقضاء إجازةٍ سعيدةٍ بضعة أيّام.

بين هذين المنعطفين التاريخيين نشأت نواة المداميك الأولى للغة الإنسانية:

فلقد احتاج الإنسان إلى تطويع وتوظيف قطيعٍ أوسع من البشر في التعاون معه للهجوم على غنيمة الماموث الميت، عندما يراها وهو يجول في التخوم المحيطة بِسكنهِ بحثاً عن الغذاء.

احتاج لأن يوصل إلى رفاقه شفوياً معلومات أوليّة تتجاوز كمّاً ونوعاً الحدود التعبيرية لِمنظومة التواصل الغريزية الحيوانية: «هنا، الآن، خطر»، وتوصيل رسائل مثل: «هناك، بعيداً، ماموثٌ ميت. يلزمنا التعاون للانقضاض عليه!»، ولِيقودهم إلى الكنز، ولِيجذب إعجاب الإناث بذلك، ولِيخطط معهم جميعاً عمليةَ الهجوم على المائدة، والانسحاب السريع الآمن منها بأدسم الغنائم.

لا أدري كيف وماذا كانت كلمة الإنسان الأولى: إشارةٌ صوتية لتقليد الماموث؟ ميام ميام؟ نبرةٌ ما تعني: «مائدة ماموث» تناقلتها الأجيال بالتعلم، وليس بالغريزة؟

ساعد هذا القاموسُ الجديدُ، الضئيلُ جداً، الإنسانَ على حياةٍ أفضل. تحسنث بفضله ظروفُ حياته وملَكاتُه الجسدية أيضاً، ومكانتُه في سوق التطوّر والانتقاء.وأصبح ذلك القاموس مع مرور الزمن الثقبَ الذي انفتح في جدار منظومة التواصل الحيواني الغريزية، وقاد إلى تغيّرات جينية ودماغية تواكب نشوء بدايات اللغات الإنسانية.

لمدة مليون عامٍ بعد ذلك، لم يتطوّر الإنسان إلا ببطءٍ لا يزال يثير بشدّة تساؤلات الباحثين وحيرتَهم: لم يصنع شيئاً يستحق الذكر غير تحسين فؤوسه، قبل أن تنتهي نومة «أهل الكهف» هذه، التي دامت حوالي مليون عام، بنقلةٍ نوعية، عندما اخترع الرماحَ والحرابَ المنتهية بحجر الصوان السلكيّ الرسوبيّ الحاد.

عكست بنيةُ هذه الأسلحة الفتاكة الجديدة تطوّراتٍ شاسعةً فذّة في مقدرات الإنسان الفكرية والتخييلية، وفي لغته الوليدة بالضرورة.

يكفي أن نتصوّر ماذا يدور في دماغِ الإنسان من تساؤلات وتخييل

وخطط، وهو يُصمِّم الحراب والرماح.

بها يستطيع مع رفاقه التسكُّعَ في الفلوات النائية، ومباغتةَ فِيلِ ماموثٍ حيٍّ هذه المرّة. يهجمُون عليه بالمشاعل والحراب من كلّ الجهات، وفي نفس الثانيةِ كبرقٍ خاطف. ينقضُّون عليه أمام الضباع والسباع الخائفة من عددهم ونيرانهم ورماحهم، ثمّ يبدأُون أسبوعاً من الولائمِ والإجازاتِ الجماعيّة، يمارِسُون فيه السعادة حتى الثمالة، وكثيراً من الرقصِ الجماعيّ الليلي، والفنونِ الميتافيزيقيةِ التي ينقشُونها في جدرانِ مغارةِ الجبل المجاور.

تطوّرَ الإنسان بعد ذلك بشكلٍ أسرع فأسرع، قبل أن يصل إلى صيغتهِ الأخيرة: الإنسان الحديث، بكلّ ثرثراتهِ ودردشاتهِ ونميمتهِ التي لم تتغيّر اليوم بالطبع في عصر الإنترنت:

يكفي قراءة كل إيميلات إنسان اليوم، ومنشوراته الفيسبوكية، لندرك كم يحتاج هذا الحيوان الثرثار للفضفضة كما يحتاج للماء والهواء، هو الذي يسبك في ذهنهِ أو يلفظُ منذ خمسين ألف عام نحو خمس عشرة ألف كلمة يومياً!

الأسلوب هو الإنسان!

اللغة والتفكيرُ ثنائيٌ تربطه علاقةٌ فيزيولوجية محفورةٌ في سيليسيوم الدماغ. يمكن تشبيه اللغة بالطوبات التي تُبنَى بها العمارة، والتفكير بالأرضية والفضاء الذي تحتلُّه.

الجسر الذي يربط بين الطرفين: الأسلوب، أشبهُ بالتصميم الهندسي الذي به يكون إخراج عمارةِ التفكير وبناؤها من طوبات الكلمات.

اللغة وعاء الذات، كما يقول هيديجر. والأسلوبُ هو طريقة التعبير عن الذات: «الأسلوب هو الإنسان»، يقول بوفون. إذ ثمة أكثر من طريقة مختلفة لقول الفكرة نفسها. ولكلٍّ أسلوبُه: طريقتُه الخاصةُ النابعة من طبقات الرغبة واللاوعي،حسب لاكان الذي درس هذه المقولة.

ولعل ما قاله شاعرٌ عربيٌّ قديم:

ولي صاحبٌ من بني الشيصبان

فحيناً أقولُ، وحيناً هوَ

يصبُ في الاتجاه نفسه. حيث اعتقد العرب حينها أن نصف مصدر إلهام الشِّعر يأتي من الرغبة: «فحيناً أقولُ»، ونصفه من جِنيٍّ من قبيلة جن بني الشيصبان، يُصاحب الشاعر؛ أي اللاوعي، في لغة علماء النفس. فاللاوعي الإنساني في نظرية لاكان مصمَّمٌ كاللغة: له قوانينهُ وقواعدُ بناءِ عباراته وصفاتُهُ الجوهرية.

لذلك، في اختلاف تفاصيل تعبيرنا، الذي يترجم اختلاف رغباتنا ولاوعينا، نقول نصوصاً مختلفة متباعدة، وإن سعت جميعُها إلى ترجمة نفس المضمون. لذلك، كم أصاب من قال: «الشيطان يكمن في التفاصيل»!

ما هو الأسلوب المبدع؟

هو هذا الصياد الرهيف الذي يلهث لاقتناص التيارات الكهروكيميائية، التي تحمل تفكيرنا الواعي ورغباتنا وأحلامنا اللاواعية، وهي تنتقل بين عصبونات الدماغ.

يحاول هذا الصيادُ المهندسُ الفنانُ محاكاتها والقبض عليها، وتقديمها في فساتين من كلمات، بعد تمسيدها بالإيحاءات والإشارات والرموز والاقتباسات والاستشهادات والصور البلاغية والأدوات السيريالية.

يعجن كل ذلك بتناغمٍ وانسجام، في وحدةٍ عضويّة كلها إيقاعٌ وموسيقى، وعباراتٌ نبيلةٌ تنطبع أبداً في الذاكرة الإنسانية.

هو باختصار: ذلك الرياضي الماهر الذي يجيد «الصعود الشاق لزقاق الإلهام

الوعر»، كما يقول فيكتور هوغو.

فالأسلوب فنٌ قبل كل شيء. فنٌ صعبٌ يتطلّب شغلاً يومياً مثابراً لا يتوقّف. فلِكَي يكتبَ المرءُ نصاً مؤثراً نقياً يسيل سلساً رقراقاً، يبدو طبيعياً صادقاً حقيقياً لا تظهر عليه التكلفة أو الصنعة، وإن كان مسبوكاً من الخيال الخالص، أو إن أعاد صياغتَه أكثر من عشرين مرّة كما يفعل كل المبدعين الكبار، يلزمهُ المثابرة في الكتابة، الإصغاء إلى النص، وحسن القراءة قبل كل ذلك. فلكي تكتب جيّداً، يلزمُ أن تقرأ جيداً. إذ إنّ قراءة النص الأدبي عشقٌ بطيء، وعلاقةٌ غرامية طويلة مع الكلمات وموسيقى الفقرات. حتى الصمتُ بين العبارات يحلو الإصغاء الرهيف إليه وتذوّقه. وإيقاعُ التنقيط أيضاً. كل ذلك بجانب القراءة المجردة للنص، والحوار مع الأفكار بعمق.

أعترف بأنني عندما أقرأ عملاً أدبياً أبحث أوّلاً عن جمالية الأسلوب، أكثر ما أبحث. وعن الأفكار أيضاً بعد ذلك. أضعُ، في الكتاب الورقي، خطوطاً أفقية معرجنة بالقلم الرصاص تحت عبارات الصور البلاغية الجديدة المبتكرة في النص. كذلك أضعُ في الحاشية، على يمين فقرات النص التي تلفت انتباهي وإعجابي بأفكارها - وإن اختلفتُ معها - خطوطاً مستقيمة تشير إلى تلك الفقرات.

وبعد نهاية قراءة الكتاب، أنسخ بخطٍّ صغير، في الصفحات البيضاء المتاخمة للغلاف الأخير، أهمّ العبارات التي وضعتُ أسفلها خطوطاً معرجنة.

قيمةُ الكتاب بالنسبة إليّ، وقوّةُ تأثيره، تتناسب طرداً مع عدد هذه «الشخاطيط». الصورُ والصيغُ الجديدة التي يبتكرها الكاتب، وإيقاع نصّهِ وموسيقاهُ الخاصة، ترفعُ أو تخفض بارومتر إعجابي به. تليها نباهة أفكاره وقوّة مضامينه.

فالصور البلاغية جواهر الأسلوب فعلاً. أتذكّر أني شهقتُ يوماً عندما قرأتُ قبل عقود واستوعبتُ الصورة البلاغية لهاتين الكلمتين: «انتعلَ الظلُّ» أي: انتصف النهار.

يقول القاموس: انتعلت المطيُّ ظلالها: أي انتصف النّهار في القيظ فلم يكن للمطايا ظلّ. قال الزاجز: «وانتعل الظلّ فكان جوربا» (تهذيب اللغة للأزهري ٢: ٣٩٩، ولسان العرب).

الأمثلة الأخرى لا تحصى: تهزُّني الصورُ الصغيرة مثل: «نغمات الصمت»، «شتاء القلب»...؛ تُدوّخني العبارات الكثيفة مثل: «انتظركِ بنهم»، «توأمي الروحي يتحول إلى توأمي الجسدي»...؛ تعصفُ بي الصور الشاعرية

العميقة: «يجيد الإصغاء لنمو الأعشاب»، «قلبٌ يتسع لكلّ رياض الجنة»، «أجواء الجحيم لا تحتمل التراتيل» (رامبو)...؛ يأسرُني الوصف التحبيبي الرخيم: «فستان من الموسلين بلون الياقوت ومزين بأزهار مخملية باللون نفسه»، مثلما يأسرني الوصف التكريهي الذكي: «تردعُ كلَّ استيهامٍ إيروتيكي».

بالطبع، الإبداع لا يقبل النقل، لذلك يلزم دوماً ابتكار صورٍ جديدة. وعندما أقرأ الصورة البلاغية نفسها مرة ثانية، في نصٍ أحدث، أعيب على الكاتب كسلَهُ وتكرارَهُ لإبداعات سابقيه.

لا أحب أيضاً القصفَ بالصور المركبة المبالغ بها. أتذكّرُ حينها كونفوشيوس الذي قال: تجاوزُ الحدّ ليس أفضل من عدم الوصول إليه.

الأمثلة بلا عدّ هنا أيضاً: لا أحب هذه العبارة مثلاً: «كاتدرائية تثقب الفضاء بنبلٍ مخيف». السبب: كلمةُ «مخيف» التي خدشت روعة ما قبلها.

لا أحب هذه الصورة: «أغمسُ أصابعي المحترقة في حنجرةِ الجليد» التي تقصف القارئ بتركيباتٍ وتداخلاتٍ متزاحمة لا تخلو من التكلف.

لا أهضم هذا البيت الشهير:

أتاك الربيع الطلق يختال باسماً

من الحسنِ حتّى كاد أن يتكلما

الذي ألبس الربيعَ قبعةً اختيالية تزعج همس الورود وتراتيل الينابيع: «يختال باسماً من الحسنِ»، وأنهاها بنتيجةٍ لا تحترمُ حساسية من يجيد الإصغاء لِهمس الورود وتراتيل الينابيع: «كاد أن يتكلما».

لا أحب بيت السيّاب:

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعة السحر

أو شرفتانِ راح ينأى عنهما القمر

فالعينان الجميلتان أروع وأثرى وأفتك بكثير من شرفتين راح ينأى عنهما القمر، في كلّ الأحوال.

لا أحب الصور الغامضة والنصوص المعقّدة. مع الأولى أتذكّر عبارة: «الظلمات الكثيفة ليست عمقاً»، ومع الثانية عبارة الشاعر بوالو: «ما يُصمَّمُ جيداً، يُعبّرُ عنه بسيولةٍ رقراقة».

أما أكثر ما أمقتهُ في الأسلوب فهو سوءُ الذوق والحذلقة و«البلطجة». والأمثلة على ذلك بلا عد أيضاً.

أكثر ما أحبّه في الأدب، مثلما أكثر ما أحبه في الحياة: الصدق في التعبير الذي يصل عمودياً عميقاً إلى قلبي، فأعرفُ قائلَهُ من أسلوبه وصدقِ عباراته، وإن غاب اسمه بجانب النص، لأن «الأسلوب هو الإنسان» فعلاً.

فمن غير الفارس البوهيمي والشاعر اللدُنيّ، المتنبي، يستطيع أن يلخِّص بِنبلٍ ملحمةَ حياة، في بيتٍ تعبرهُ نغمةٌ خفّاقة لِفعلٍ يتيمِ: «تعرفني»، وسط سيلٍ من سوناتات الأسماء المجرّدة، انتهت بشهقةٍ أخيرة، إلهيةٍ جدّاً: «القرطاس والقلم»؟:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني

والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

ومن غير الشاب المتمرّد الموهوب، رامبو، يستطيع تلخيصَ ذاتهِ بأجمل من هذه الآيات؟:

هاكم، يا من تحبون في الكاتب غياب ملكات الوصف والإرشاد، بضع صفحاتٍ شنيعةٍ من دفتري، أنا الرجيم!

كان «الغاليّون»: سالخي جلود الحيوانات ومُحرقي العشبِ، الأكثر غباءً في حقبتهم.

لديّ منهم: الوثنيّة وحبّ الخطيئة؛ جميع الرذائل، الغضب والفجور- رائعٌ هو الفجور؛ وخصوصاً الكسل والكذب.

جميع المهن تفزعني. السادة والعمال جميعاً فلاحون بلا نبالة. اليد الحاملة اليراع تتساوى واليد الحاملة المحراث.

اللغة سلاحٌ ذو حدّين. «يمكن استخدامها للإعلام أو للتضليل والمخاتلة»، كما يقول شومسكي. من يمتلكها للتأثير في الآخر، إما بتخديره أو بتنويره، بإخضاعه أو بتحريره، يمتلك السلطة.

فهي سلاح الطغاة والظلاميين: تبدأ سيطرتهم على الإنسان بترسيخ لغةٍ خشبيةٍ سلفيةٍ تغلق أبواب التساؤل، وتفرض الخطوط الحمراء على التفكير الحر، وتُسبّح للطاغية أو «للحزب الواحد»، وتمنع الروح النقدية والمعارضة والرفض.

يبدأون خطاباتهم، أكانوا شموليين أم ظلاميين، بالشكل والمضمون نفسه: استشهادات قطعية بمقولات أيديولوجية أو دينية قاطعة، هي الصحيحة التي يلزم الإيمان المطلق بها. هدف هذا الخطاب منذ فاتحته: إلغاء الإرادة الخاصة والتفكير الحر والجدل.

ثم تتجذّر هيمنتهم على الإنسان عندما يجيدون استخدام اللغة للسيطرة على دماغه، عبر المدارس ووسائل الإعلام، وعبر سرد وتعليم تاريخٍ لا علميٍ ملفق، وإلغاءٍ ممنهج للذاكرة. يجعلونه بذلك كائناً يعشق عبوديتَهُ طوعاً، ويعتنق الأيديولوجيا التوليتارية أو الأفكار الظلامية ويدافع عنها بيقين كلّي.

يقول وزير الإعلام النازي غوبلز: «بفضل معرفةٍ عميقة بسيكولوجيا الناس، وبفضل التكرار، يمكن برهنة أن المربع دائرة!».

وتتأبّد أخيراً هيمنتهم على الإنسان عندما يقاومون تجديدَ اللغة وتطويرها، لتظلّ كما هي: لغة الأجداد. ولأن ثمة علاقةً فيزيولوجية بين اللغة والتفكير، يظلّ الأخير تفكيراً بروح عصر الأجداد.

في ندوةٍ أخيرة حضرتُها قال لي أحدهم بإعجاب: إننا نفهم أبياتَ شعرٍ قيلت في عصر الجاهلية، بينما لا تفهم شعوبٌ أخرى ما قاله كتّابُها قبل قرون قليلة.

قلت له: بالعكس، مقلقٌ ذلك جداً. من غير الطبيعي أن يمرّ ١٥ قرناً دون أن تتغيّر لغتنا. ذلك دليلٌ على جمود تفكيرنا وعدم مواكبتنا لتطوّر الحياة والحضارة الإنسانية.

لا يوجد أعمق من جورج أورويل في روايته العظيمة «١٩٨٤» (كتبها في ١٩٤٨، متعمّداً قلب الرقمين الأخيرين في العنوان) وهو يرسم طرائق سيطرة «الأخ الكبير» على إنسان «أوراسيا»، عبر لغة «النوفالانج» التي لم

تكتفِ مثلاً بتثبيت شعارات مثل «الحرية هي العبودية»، بل سعَت لإلغاء واندثار كلمات من القاموس كـ «الحرية»، ليختفي مفهوم «الحرية» بذلك أيضاً.

لأن مساحة العالم الذي نحيا فيه هي مساحة اللغة التي نستخدمها، ومساحة التفكير هي مساحة القاموس اللغوي الذي يستند إليه.

لذلك فإن تقليص هذا القاموس بحرمانه كل كلمات الحضارة والمعارف الحديثة التي تتدفَّق يومياً، ولا تجد لها مرادفاً في اللغة هو تقليص للتفكير وإضعافه.

يعود الاهتمام الكبير بهذه الرواية الاستشرافية، مجدّداً اليوم، بسبب تطوّر التجسس الآلي (الذي سنتناوله في بضعة فصول محور: معالم حضارتنا الجديدة)، حيث تراقب لاقطات التجسس الآلي اليوم «البيانات العملاقة»، وتسعى إلى السيطرة على الإنسان على غرار أخطبوط أجهزة «الأخ الأكبر» في رواية أورويل العبقرية.

ماذا تعني «البيانات العملاقة» (Big Data)، أوّلاً؟

هي كل ما نترك من نصوصٍ وآثار في حياتنا اليومية: تعليقاتنا، منشورات الفيسبوك، تويتر، ما نبحث عنه في غوغل، عناوين المواقع الإلكترونية التي نزورها، محاضراتنا، أغانينا المفضّلة، أصدقاؤنا، ما نشتريه بالبطاقة البنكية... تُشفَط جميعها كل يوم لِتؤرشفَ وتُفهرَس في مستودعات ضخمة من الكمبيوترات، وتقدَّمَ لبرمجيات أكثر فأكثر ذكاءً لتحليلها.

لا يكتفي أخطبوط أورويل في الرواية بمراقبة كل صغيرةٍ وكبيرة في حياة البريطانيين الذين ترتكز في كل شوارعهم لوحات هذه العبارة الشهيرة:

Big Brother is watching you «الأخ الأكبر يراقبكم»، بل يستطيع بفضل قواعد نحويّة وقاموسية للغة النوفالونج، تستعرضها الرواية بالتفصيل، من منع الشك والتساؤل والجدل والتفكير.

لغة السيطرة التضليلية على أدمغة الناس ليست سهلة الكشف والدحض والتعرية. تستند إلى أبديّةٍ من التجارب التاريخية، والمعرفة بخريطة نفسيّة الإنسان.

لذلك أوصى شومسكي بأن يكون هدفنا الأوّل الاهتمام بأدمغتنا والحفاظ عليها من تأثيرات المنظومات العقائدية والخطابات التضليلية للدولة ووسائل الإعلام. «لو كان لدينا مدرسة جيّدة، لكان أوّل موادها: تعليم الدفاع الذاتي من هذه التأثيرات»، كما يقول.

واللغة أيضاً سلاح التنويريين والأحرار والثوريين: بها يوقظون لدى

الإنسان روح حب الحرية. ينشرون التنوير والمعارف. يحرّرون الدماغ من تضليل ثقافة الطغاة والظلاميين وثوابتهم الأيديولوجية. يقارعون بها، عبر الأدب وبالخطاب التنويري، لغةَ التخلف والتقوقع والانكفاء. يؤججون الحلم، يفجّرون الأمل والبهجة، ويشيّدون ثقافة «حرية الضمير» والانفتاح على الآخر.

كلّ الثورات التي نقلت الإنسانية إلى الأمام، منذ الثورة الفرنسية حتى سقوط الأبارتايد وعددٍ من الأنظمة القمعية الأيديولوجية في العقود الأخيرة، لم تنتصر إلا لأن لغةً جديدة قاومت بنجاح اللغة الخشبية أو الظلامية السائدة.

وذلك منذ لغة قرن الأنوار الذي مهّد للثورة الفرنسية، إلى لغات مقاومة الستالينية السوفياتية وطغاة العالم الثالث، مروراً بـ «ربيع براغ» في ١٩٦٨ من «أجل اشتراكية بوجهٍ إنساني»، تألّقت في أثنائه الإبداعات الأدبية المناهضة للتوتاليتارية، والنشاطات الأدبية تحت الأرضية Samizdat، لِتُفجّر لدى الناس مزيداً من العطش للانعتاق والحرية.

أذكّرُ كممثل التصفيقَ الشعبي المحموم للممثل التشيكي رودفان لوكافسكي عندما انزلقت منه وهو يمثّل مسرحية هاملت هذه العبارة الشهيرة الخالدة: «ثمّة شيءٌ عفنٌ في مملكة الدانمارك!»، ساخراً من الإمبراطورية السوفياتية التي سقطت بعد عقدين من ذلك، خلال ربيع شعوب أوروبا الشرقية.

تحرير اللغة من المسلمات الظلامية، من الكذب والتضليل، من عداء العِلم والحريّة والآخر، ومن سلطة فقهاء الظلمات، يتطلب لغةً ثائرةً حرّةً مناهضة، تتناغم مع العصر، تتجذر قواميسها كل عام، تنفتح على الحداثة شكلاً ومواضيع كل لحظة، وتفتح فضاءات الحرية والخلق والإبداع على مصراعيها.

لغةً ترفض لغة الطغاة والظلاميين الخشبية الموبوءة الممسوخة. تواجه منعهم للتفكير والنقد والرأي الشخصي، بلغة مضادّة: «لغة الدفاع الذاتي»، كما سمّاها شومسكي، لغة الحرية دون قيدٍ أو حدود. تواجه طمسهم للإنسان وتضليله، بفضل لغة الحقيقة و«الأنا» الحرّ، لغة الإنسان الذي يصنع ذاته متحرراً من كل السلطات.

يبدأ كل شيء بالكتابة والإبداع. الكتابة أوّلاً حربٌ ضدّ هدفِ السلطات القمعية الأوّل: النسيان. يقول كونديرا: «نضال الإنسان ضد السلطة، هو نضال الذاكرة ضد النسيان». ثمّ هي المدخل الرئيس لثقافة التنوير والعقل والمعرفة البهيجة، ولِنشر لغة الحريّة والمقاومة والثورة وتجذير قيمهم في

حياة الإنسان.

وهي الوسيلة لِمعرفة الآخر الذي تسعى الثقافة الظلامية إلى طمسِه، والطريق للتفاعل معه والتوخد به تحت شعار: «أنا الآخر».

هي وعاء الجدل الحي، والتجديد الدائم، واليقظة من تأثير لغة الظلمات والتوليتارية.أي باختصارٍ شديد: لغة بناء الحضارة والدفاع عنها وتطويرها المتواصل.

فكما يقول نيتشه: دور اللغة في تطوير الحضارة تكمن في اتكاء الإنسان عليها لبناء فضاء متماسك صلب يهزّ به العالَم ويسيطر عليه.

ثقة من يُعرّف مفهومَ الوطن بأنه أرض الأجداد، أو دولة الولادة، أو دولة الجواز، أو الدولة التي تختارُها لتحيا فيها سعيداً، وإن لا يربطها بالتعريفات الثلاثة السابقة رابط.

يتلخّص تعريف الوطن هنا بِمساحةٍ جغرافية، وحدودٍ جيوسياسية باركها عنوان كتاب ريجيس دوبريه: «في مديح الحدود» (ترجمَتهُ إلى العربية الأستاذة ديمة الشكر) وأثار جدلاً واسعاً:

يعتبرُ البعضُ تمجيدَ الحدود ارتماءً في أحضان الفكر اليميني المنغلق، وخيانةً للمبادئ الإنسانية الكونية المتمثلّةِ بِكوكبٍ أزرق تتلاشى فيه الحدود بين الإنسان والإنسان. ويعتبره البعض الآخر أفضل حلٍّ للقضاء على الجدران الإسمنتية العازلة بين الدول، وتمكين الشعوب المقموعة من امتلاك أرضها وحقوقها المنهوبة.

بالنسبة إليّ، أرى أنّ كل تلك التعريفات لا تصلح لكلمة «وطن»، بل لكلمة «بلد». أما كلمة «وطن» فهي بالنسبة إليّ لا ماديّة، روحيّة خالصة، هوائية ساحرة، أفَضّلُ تعريفَها من وحي مقولة كامو «وطني اللغة الفرنسية»: «وطن المرء لغتُه». فاللغة وعاء التفكير والثقافة والتاريخ والمشاعر. هي وطن الإنسان بامتياز.

تعريفٌ كهذا يتجاوز مفهوم الحدود، لأن كلَّ اللغات أخواتٌ في الرضاعة: لهنّ في خريطة عصبونات دماغ الإنسان، منذ ولادته، المناطقُ نفسها التي يعشش فيزيولوجيّاً فيها ما سمّاه شومسكي «النحو التوليدي»:

قواعد نحوية تنبثق منها كل اللغات الإنسانية. يفسّر ذلك لماذا تتشكّلُ جميعها من العناصر نفسها: أفعال، أسماء، صفات...

بفضل هذا النحو التوليدي يتكيّف دماغ الطفل بعد الولادة، وخلال السنين الأولى من العمر، مع البناء اللغوي لِلّغة التي يسمعها في بيئته. وبفضله يستطيع أن يتعلم لغةَ أي شعبٍ كان، وإن لم تكن لغة أهلِهِ وذويه، بالطريقة نفسها التي يتعلّم بها لغة أمّه.

لغاتُ البشر هكذا ألوانُ لِقوس قزحٍ من أكثر من ٥٠٠٠ لغة، لها جميعاً بنية مشتركة. انسلّت جميعاً من مداميك نواة اللغة التي نشأت أثناء التطور البشري خلال ملايين السنين، كما شرحناه في فصول سابقة، وتجذّرت أسلاكها في عصبونات الدماغ البشري. لا تفصل هذه اللغات حدودٌ أو حواجز: بإمكان الإنسان أن ينتمي إلى أكثر من وطنٍ لغويٍّ في الوقت

نفسه!

وطن اللغة ليس بمعزلٍ بالطبع عن تأثيرات أقطاب الاقتصاد والجغرافيا والسياسة والدين. تتجاذبه جميعها حسب مصالحها الحيويه.

لعلّ لذلك يرى المواطن الإنكليزي (الذي لا يميز بين فيلمٍ بريطانيٍ أو أميركي عندما يضع فيلم الفيديو على كمبيوتره بعد العودة من العمل) أنه يميل إلى أميركا، ذات الاقتصاد القوي، والتي يعيش معها في حضنٍ لغويٍ مشترك؛ أكثر من ميله إلى أوروبا، حضنه الجغرافي رغم ذلك.

ولذلك أيضاً تميل أستراليا إلى نموذج أميركا أكثر من ميلها إلى نموذج بريطانيا، بلد أجدادها الإنكليز.

ولذلك أيضاً يعكس العداء الجيوسياسي بين الهند وباكستان نفسه على اللغتين الهندية والأوردية اللتين كانتا لغة واحدة تقريباً قبل فصل الهند وباكستان ذات أصولٍ سانسكريتية فارسية مشتركة. يعكس نفسه بمزيدٍ من «سنكرةٍ» اللغة الهندية التي تُستخدم في الهند، ومن «فورسة» اللغة الأوردية التي تستخدم في باكستان.

ولذلك أيضاً يلاحظ من يعرفُ مدينة ميتز الفرنسية (التي كانت في القرن الماضي سويسرية، ثم ألمانية، ثمّ فرنسية) أن شبابها اليوم لا يختلف عن شباب فرنسا بشيء: وطنهم اللغة الفرنسية، وإن كانوا يسمعون بعض أجدادهم أحياناً يتحدّثون بلغاتٍ أجنبية لا يفهمون منها كلمة.

وأخيراً، لذلك أيضاً لا تخلو البلدان ذات اللغات المحلية المتنوعة، ولا سيّما عندما لا تعمل السياسة على تعايشها وتطويرها المتناغم، من نزعات لحقوق تقرير المصير، للاستقلال الفيدرالي، للحروب الإثنية، ولمزيدٍ من الاستقلالية الجغرافية اللغوية.

المفارقة العربية المباركة هنا: رغم تشقُّق البلدان العربية وتبلقنها وتشظيها الراهن، لم يكن الوطن العربي، كوطنٍ لغوي، بالوحدةِ التي هو عليها اليوم، رغم الضعف الجذري للغة العربية في العالم الرقمي، الذي طالما أشارتْ مقالاتي إلى دوافعه ومظاهره.

السبب: تبلور لغة عربية جديدة، تقع في منتصف الطريق بين اللغة العربية الفصحى التقليدية والعاميات المحلية.

يعود الفضل في ذلك إلى القنوات التلفزيونية العربية والصحف الحديثة التي يتجاوز اهتمامها البعدَ القُطري، وإلى فضاءات الحوار والتفاعل الاجتماعي في الفضاء الرقمي والشبكات الاجتماعية، وللأدبِ الحديث الذي ينتشر اليوم بشكلٍ أسرع بفضل الفضاء الرقمي.

يبشر ذلك بخيرٍ ما، لأن لِلُغتنا العربية ملَكاتٍ تاريخية هائلة لأنها كانت في

القرون الوسطى، مثل الإغريقية قبل الميلاد، والإنكليزية والفرنسية في القرنين الأخيرين، لغةَ المعرفة الكونية الأولى حينذاك، وإن عانت من تحجُّرٍ وتجمُّدٍ دام قروناً بعد ذلك. ثم هي لم تحمل على أكتافها فقط ثقافتنا العربية، لكنها أتسعت آنذاك لثقافات مجاورة، وصانت ولقّحت وترجمت حينها كثيراً من تراث الإنسانية الثقافي والعلمي خلال قرون.

الحاجة لإصلاحاتٍ عميقةٍ لِلُغتنا ضرورةٌ قصوى اليوم، لتكون وطناً حديثاً، يسمح بتفكيرٍ عصريٍّ منفتحٍ على المعارف والعلوم وترجمات اللغات الأخرى وأدوات العالم الرقمي. أي لِتكونَ وسيلةً للخروج من مأزقنا التاريخي. لأن ثمة علاقة فيزيولوجية بين التفكير واللغة: اللغة العتيقة لا تنجب إلا تفكيراً عتيقاً وانتماءً إلى زمنٍ بائد.

قائمة الإصلاحات المرجوّة طويلةٌ طول مرض وطننا اللغوي. لن أكرر هنا قائمة الإصلاحات الرقمية الجوهرية الضرورية لتدخل العربية العصر الرقمي من أوسع أبوابه. تحدّثتُ عن ذلك في كتابي: «لا إمام سوى العقل». وإنّما أتحدّث هنا عن الإصلاحات البنيوية والمنهجية لها كوطنٍ لغويٍّ مندمجٍ بالعصر الحديث، وفي مقدمته: التجديد السنوي لِقاموسها (كما تفعل كل اللغات المهمة) وتحديثهِ ورفدهِ بجديد الكلمات والمصطلحات ليتّسع لتعقيد العصر الراهن، ويحول دون أن تتحوّل اللغة إلى رميمةٍ ميتة.

فاللغةُ العربية التي لم تعد تُستخدم غالباً لكتابة المقالات العلمية والمعرفية، غائبةٌ غياباً شبه كلي عن كتابة وتدريس المواد العلمية في الجامعات العربية، والمدارس الأولية أحياناً. ولذلك فغيابنا المعرفي والعلميّ مضمونٌ ما دامت العربية غائبة معرفياً وعلمياً، ولم تعد من منظور الكثيرين إلا لغة الدين والأدب.

أتحدّث أيضاً عن الإصلاحات المرجوّة في قواعد كتابتها وقواعدها النحوية، لتستجيب لتطوّر الحياة بدلاً من أن تظلّ بنفس صيغتها الأحفورية العتيقة التي تجاوزها الدهر، والتي لا تستجيب إلا لمصالح المحافظين والظلاميين وحاجاتهم للحفاظ على لغةٍ لا تختلف عن لغة مواعظهم وطريقتهم في التفكير.

أتحدّث أيضاً عن الإصلاحات الضرورية لتقريب صيغتها الكتابية من صيغتها الشفوية، إذ تعاني حضرتُها اليوم من ازدواجٍ في الشخصية بين وضعها الكتابي والشفهي المتباعدَين أشدّ التباعد لأسبابٍ معروفةٍ عديدة:

كل من يكتب حواراً في روايةٍ عربيةٍ مثلاً، يجد نفسه مضطراً، بكلّ أسفٍ وانزعاج، إلى أن يتحدّث لغةً لا علاقة لها تقريباً بِلغةِ الناس في الحديث

اليومي!
أتحدث عن سياسة قومية لِعلاج مرضٍ بالغ الخطورة تعيشه اللغة العربية: أنيميا الترجمة، وإصلاحات عديدة عاجلة جوهرية أخرى كثيرة تسمح للعربية بأن تنفض غبارها، وتكون وطناً حديثاً يحيا في الألفية الثالثة، مفتوحاً للآخر، وعلى الآخر.

في الحياة الإنسانية اليومية، يسير خط الزمن كالسهم في اتجاه واحد، دون تماثل هندسي بين الماضي والمستقبل. من الأول نحو الثاني، وليس في الاتجاه المعاكس. فيما يتماثل الماضي والمستقبل في زمن الرياضيات: عندما تضع في صيغة رياضيةٍ (أحدُ متغيراتها: الزمن، ز) مقداراً سالباً لهذا المتغير، أو مقداراً موجباً له، تصل إلى القيمة النهائية المطلوبة للصيغة، سيّان أكانت في الماضي (المقدار السالب)، أم المستقبل (المقدار الموجب)!

زمن الحياة الاجتماعية أحادي الاتجاه. لذلك يمتلك الإنسان ذاكرة الماضي، لكنه لا يمتلك ذاكرة المستقبل، تلك التي يموضعها الميتافيزيقيون في ما يسمونه «علم الغيب». ولذلك مثلاً بإمكانك معرفة كل تاريخ مرآتك الزجاجية، منذ خروجها من المصنع، لكنك لا تعرف مستقبلها: يمكنها أن تنكسر، لهذا السبب غير المتعمد أو المتعمد، اليوم أو بعد أسبوع. وإن انكسرت فلن تستطيع ترميمها وإعادتها كما كانت في الماضي.

كذلك، يمكن تحليل حفريةٍ عمرها ملايين السنين، بالكربون ١٤، لمعرفة موعد ولادتها، ومراحل تاريخها. لكن يصعب التنبؤ بالطقس الجوي بدقة، لِما بعد أسبوعين فقط من الآن، وذلك لتداخل مليارات العوامل والظروف والمتغيرات الطبيعية والصناعية والإنسانية الممكنة، الإرادية وغير الإرادية، التي قد تقود إلى هذا الطقس أو ذاك.

كم يزعج ويقلق الإنسان عدمُ امتلاكه ذاكرة المستقبل، ويقنعه بضعفه الوجودي الجذري. لا تهمه كثيراً ذاكرة الماضي. يردد غالباً: «ما فات مات»، فيما تحملق عيناه في القادم، وفيما «وراء الأكمة»، بقلق وترقب، مهووساً باستقراء ما يحمله المستقبل والتنبؤ به.

وما عصر «البيانات العملاقة» اليوم، Big Data، إلا سعي إلى استنطاق ما سيفعله الإنسان (ما ينوي شراءه من سلع، وما سيقوم به في كل المجالات) لأسباب تجارية وسياسية واستخبارية، عبر التجسس على كل تاريخه المبعثر في العالم الرقمي.

لذلك يجد المرء كل الفلسفات والأديان تُنظِّر له حول اتجاه الحياة والمصير المستقبلي، وما سيحمل له الزمن من خواتم. وما اهتمامها بتقديم سيناريوهات لأصول ماضيه، وسر وجوده وكيفية نشوئه، إلا لتهيئة نظرياتها عن مستقبله الذي يهمه في المقدمة، لتجعله بذلك يعتنق

أطروحاتها، فتقود سلوكه ومسيرة حياته.

بعد سقوط جدار برلين، ومعه نظرية المعسكر الاشتراكي المستقبلية: «اتجاه التاريخ حتمية انتصار المعسكر الاشتراكي (بصيغته السوفياتية)، وسقوط الرأسمالية»، برزت نظريتان حول مستقبلنا القادم، لباحثَين كبيرين، ترسمان لنا المستقبل الجديد الذي ينتظرنا، من وجهة نظرهما.

الأولى: نظرية «نهاية التاريخ» لفوكوياما. مفادها أن التاريخ وصل إلى صيغة نهائية بعد سقوط الجدار. اعتنق معظم العالَم فيه الرأسمالية وقيمها الليبرالية، مؤشراً على تبدد جميع الأيديولوجيات والاختيارات الأخرى.

جليّ اليوم أن هذه النظرية أخطأت، كما يكشفه واقعنا المعاصر بصراعاته الدينية والطائفية العتيقة، وبعودته لأيديولوجيات مغبَرة. وكما يوحي به مأزق الرأسمالية نفسها وتعثراتها الجذريّة، وما يبدو طريقا مخنوقاً مسدوداً لها اليوم.

الثانية: نظرية تتناقض كلياً مع الأولى: نظرية «صدام الحضارات» لهنتغتون التي تنبأت بصراع صدامي بين الحضارات البشرية الرئيسة، بعد الحرب الباردة.

جليٌ أنها لا تخلو من السطحية في رؤيتها للحضارات ككيانات مغلقة. إذ ليست هناك اليوم حروب من هذا القبيل. ثمة حروب طائفية وأهلية ودينية داخلية في بعض المجتمعات الإسلامية مثلاً، تصل بعض تداعياتها وفيضاناتها نحو الغرب، لكن تدميرها العربي الذاتي هو السائد.

فالتطور التكنولوجي والعلمي، وما يقود إليه من تغيرات اجتماعية في العالم أجمع، وصل المجتمعات العربية والإسلامية مثل غيرها. وما كل ما تحلم به شعوب هذه المجتمعات التي حاول بعضها الانتفاض على طغاته، تحت شعارات الحرية والكرامة و«الشعب يريد إسقاط النظام»، إلا انسجام مع قيم العالم الحديث، عالم حقوق الإنسان، الذي وصلت إليه أوروبا نفسها مثلاً بعد حروب دينية ومراحل شبيهة.

أما ما يدور حالياً من صراعات ونكسات عربية فليس إلا تعبيراً، في الأساس، عن مشاق الكفاح الذاتي ضد الطغاة والقوى السلفية والجهادية التي ترفض الجوهر العصري لهذه الثورات، وعن عدم مقدرة القوى الجديدة بعد على تغيير موازين القوى، كما استطاعت تقريباً في تونس فقط.

أما صراع الحضارات، بمدلول تلك النظرية، فلا تتمناه في الحقيقة إلا أقليتان في كلتا الحضارتين معاً: القوى اليمينية المتطرفة هنا، والأصولية الظلامية هناك.

ماذا بقي لنا إذن من مشروع معقول يفسّر معالم القادم؟
مشروعٌ أقلّ تطرفاً وفرقعات من «قراءة فنجان» النظريتين السابقتين المتناقضتين، تلخصها عبارة بسيطة صفاء: «العودة إلى التاريخ»!
كان هذا العنوان أحد مواضيع نقاشات «ورش الفكر» التي نظمتها صحيفة اللوموند الفرنسية (بجانب ورش أخرى نظمتها غيرها من الصحف، في مهرجان أفينيون للمسرح في يوليو ٢٠١٦) مع المؤرخ المتخصص بالقرون الوسطى، باتريك بوشرون، البروفيسور في كوليج دو فرانس.
فحوى أطروحة المؤرخ أن أحداث اليوم الكبرى: غياب الأفق العام والاضطراب واليأس والانحطاط، والحروب المعاصرة، والخطابات التي تذكي العصبوية هنا وهناك، وأطروحات «نحن، وهم» التي تفصل بين البشر والتي كان آخر تجلياتها «البريكسيت» الإنكليزي والمد اليميني المتطرف والعنصري في الغرب عموماً... يمكن استيعابها وتصور توجهاتها المستقبلية عبر دراسة التاريخ، وتصفحه العميق، بمنهج استقصائي كليّ، مقارن ومفتوح على تاريخ العالم؛ والبحث فيه عن الممكن عمله لمواجهة تحديات الحاضر من زاوية أفضل.
إذ إن «الحاضر تاريخ متراكم»، و«المستقبل تاريخ بلا نهاية»، كما يقول.
لا يعني ذلك أن الحاضر تكرار رتيب للماضي. إذ ثمة جديدٌ يشق طريقه دائماً، مخالفاً لكل التوقعات أحياناً.
أكبر مثال: سقوط الأبارتايد دون تمزق جنوب أفريقيا، والدور الاستثنائي التاريخي لنيلسون مانديلا في تثبيت قيم تعايش إنسانية جديدة راقية، أسقطت معاقل التمييز العِرقي التاريخية؛ أهمُّ أحداث القرن العشرين، كما قال المؤرخ.
بيد أن استيعاب الحاضر والتوجه نحو المستقبل يحتاج لدراسة عميقة مختلفة للتاريخ، من وجهة نظره، بعينٍ تستشفّ منه أضواء تساعدنا على معرفة أفعالِ وردود أفعال البشر، وعلى إدراكٍ أفضل لحاضرنا، وعلى رؤية مختلف الإمكانيات للقادم الذي ينتظرنا.
«يهرب المؤرخون من الحاضر نحو الماضي غالباً، يدرسونه لذاته، فيما نحتاج لأن يدرسونه لاستيعاب الحاضر واستنطاق الممكن المستقبلي الأفضل»، قال.
عدتُ إلى محاضرة المؤرخ الافتتاحية، عند دخوله كوليج دو فرانس، لأجد بعض الاتجاهات التي اقترحها لمنهجه في دراسة التاريخ، مع فريق من الباحثين.
طريقته الأولى هي دراسة التاريخ بشكل استقصائي تام، ومن كل المصادر،

بما فيها استنطاق اللوحات الفنية، وتحليل السرد اليومي. نموذجه في ذلك العالِم الجغرافي الجليل: الإدريسي، وهو يكتب في فجر القرن الثاني عشر جغرافية أوروبا في سياق دولي كلي «كضاحية للإمبراطورية الإسلامية»، عبر وصف استقصائي شامل استخلصه من الرحالة والبحارة والعابرين، والإدارات الرسمية الصقلية، ومن بحث كلي دقيق لم يترك أدنى تفصيل حول الطقس واتساع الطرقات والعادات والتقاليد والحياة الحضرية، دون عرضهِ وتحليله.

ثم «تاريخ السلطات هو تاريخ السلطات المقارن»، يقول المؤرخ. إذ لا يمكن دراسة التاريخ دون المقارنة بين أشكال تجلياته المختلفة هنا وهناك، في هذا العصر أو ذاك.

أستحضرُ هنا دخول الديانة المسيحية للإمبراطورية الرومانية. لعلّ اعتناق إمبراطور غرب أوروبا، قسطنطين، لها، وما لعبه بعد ذلك من دور تأسيسي في تعايش المسيحية مع الوثنية (دون إراقة قطرة دم واحدة بين عامي ٣١٢-٣٩٤ الذي تعاقبت خلاله سلطات دينية تعددية كان بعض قياصرتها مسيحيين وبعضهم وثنيين) أسهم في اكتساح هذه الديانة كل أوروبا آنذاك، لتصير لاحقاً أول ديانة في العالم (من أستراليا إلى الأميركيتين، اليوم)، وإن غدت في بعض مراحلها الظلامية لاحقاً ديانة محاكم التفتيش والحروب الدينية وعداء العلم والحروب الصليبية.

لعل التاريخ المقارن مفيد لنا، معشر العرب والمسلمين، لمعرفة مدى ما تركه تدمير الأصنام، وحروب الردة التي تلته في بدء نشوء الإسلام، من مبررات سمحت اليوم لبعض القوى الدينية القمعية اللجوء إلى العنف لفرض قناعاتها الدينية.

ودراسة التاريخ تلزم أيضاً أن تكون في سياق دولي مقارن مفتوح على العالم، كما يقول المؤرخ، وليس في سياق محلي.

إنسكلوبيديا «التاريخ الدولي لفرنسا»، (وليس «تاريخ فرنسا الدولي») الذي ينهي المؤرخ إعدادها مع فريقه، يسير على هذا المنوال في البحث.

متى بدأ الإنسان؟

في حوارٍ جماعيٍ، تحدّثتُ عنه في فصلٍ سابق، عن أهمّ حدثٍ أنسنَ الإنسان، اتفق الجميع على أنه: اكتساب اللغة.

لاحظ المتحاورون - وأنا منهم- أن الحاجة للغةٍ أنسنتِ الإنسان وطوّرت دماغه بدأتْ عندما طردَت التغيّراتُ البيئيّة الإنسان من «جنّتِهِ» السماويّة في أعالي الأشجار، إلى أديم السافانا الأفريقية إثر تغيرات جيولوجية، ليمشيَ فيها برِجلينِ عموديتين، بِعمودٍ فقريٍ وجُمجمةٍ يتّجهان صوب الأنجم، وبِعينينِ مُصوَّبتَين باتجاه الأفقِ المفتوح.

فالإنسان الحديث، «الذي حارتِ البريّةُ فيه»، لا يختلفُ عن كلّ الكائنات الحية: هو محضُ ضرورةٍ لا غير، وابن قطيعة! بيد أن اللغة الإنسانية الأولى بدائيةٌ جدّاً: إيماءاتٌ، ثمّ طقطقةٌ، ثمّ نواةُ مداميك لغةٍ بدون رموزٍ وخيالٍ وتجريدٍ وبناءِ جمل: قاموسُ ضحلٌ يمكن، كما يعرف الجميع، إجراء تجاربٍ مختبريةٍ أو منزليةٍ لتعليمِ بعض الحيوانات، كالقرود، استيعابَ مدلول بعضِ كلماته!

لكن الإنسان لم يغدُ إنساناً حقّاً إلا عند استخدامِ الرمز والخيال، وتصميمِ معتقداتهِ التخييلية التي تستطيع وحدها فقط أن تربط الوشائج بين أرقام خيالية من البشر وتؤثر فيهم: تُجنّدهم معاً للخير أو للشرّ، لِتشييدِ مدينةٍ ذكيّةٍ ضخمة أو لِلقيام بحربٍ لا تبقي ولا تذر.

ففي حين أنه منذ ولادة نواة تلك اللغة البدائية، لم تختلف كثيراً أذن الإنسان الحديث بيولوجياً عن أُذنِ أجدادهِ الأول وأبناءِ عمّهِ كبار القرود، لم يتوقّف بلعومه وحنجرته عن التغيّر والتطوّر البيولوجي لمواكبة احتياجاته اللغوية المتصاعدة. لأن «كلُّ التاريخ الاجتماعي للإنسان نضالٌ لاستحواذِ أُذنِ الآخر!»، كما قال كونديرا.

ثمّ انتقل الحوار الجماعي إلى سؤالٍ جديد: متى وصلت لغات البشر لِدرجةٍ رمزية يمكن القول بعدها: بدأ الإنسانُ الحديثُ الآن؟

قال المتحاورون: لِيغمضْ كلٌّ منّا عينيه، وليتخيّلْ حياة أجدادِنا في لحظة الصفر التي يمكن أن نقول عندها: «بدأ الإنسانُ الآن!». غُصنا في الماضي طويلاً نُفتّش عن تلك اللحظة المفصلية، كمن يبحث عن دبوسٍ في كومة قش.

قال صاحبنا الأول، وهو مغمضٌ عينيه:

أشاهدُ الآن عاشقاً وعاشقةً جالسَين قرب ينبوعِ ماء، يعومان معاً بسَدَرٍ ممتع، تحت ضوء القمر. نسماتٌ ليليةٌ رقيقة. يتعانقان عناقَ شابَّينِ في أوجِ الصبا وسعيرِ الرغبة. ينظرُ الشاب إلى القمرِ مشدوهاً بجمالِهِ ورقَّتِه وكأنهُ يراهُ لأوّل مرّة، رغم أنه يعبدهُ ويُصلّي له كلَّ ليلةٍ في هيكل القرية. يخطرُ ببالِهِ أن يقولَ لِمعشوقتِه: «أنتِ القمر، أنتِ قمري!».

تفتحُ عينيها مندهشةً، لم تسمع يوماً عبارةً مثيرةً جميلةً كهذه. تتساءل: «أيقصدُ: أنتِ إلهي؟». تحاول أن تفهم، عبثاً! ثمّ تشعر بِنشوةٍ رقيقةٍ سريّةٍ ممتعة تسري في جسدِها وغُدَدِها لأوّل مرّة.

ثم دوّى صاحبنا الأول: «وُلِدَت الاستعارة، إذن وُلِدَ الإنسان!».

قال المُحاور الثاني، وهو مغمضٌ عينيه أيضاً:

أرى شابّاً كسولاً فضُلَ أن يجلس في المغارة فيما خرج رفاقُهُ بِجرابِهم للصيد. يحاولُ النوم، لا يستطيع.

تراودُهُ فكرةٌ مثيرةٌ ورغبةٌ غريبةٌ في نفس الآن. يأخذ خضاباً أحمر، ينقش به على جدار المغارة، بانفعالٍ كبيرٍ، ردفاً دائريّاً يعلوهُ خصرٌ بمنحنياتٍ غير ضاوية، يعلوه نهدان ثريّان.

لم ينقش قبل ذلك اليوم إلا خطوطاً تقريبيّةً تشبهُ حيواناتٍ ضارية، حراباً وأدوات صيد، سباعاً كاميريائية تثير كلَّ إعجابٍ وتقديسِ قبيلته.

لِرفاقهِ همٌّ آخر أقلُّ ارستقراطية: يختبئون بصمت في السهل المجاور بانتظار حيوانٍ يسقط في فخٍّ أعدّوهُ بمهارة.

يُحدّقُ الشابُ بِالورقِ الذي رسمهُ وقتاً طويلا. يكتنفه الفخرُ، ونشوةٌ لم تجتحه من قبل.

ثمّ يضطجعُ مثبّتاً عينيه على منحنيات الردف، تدهمهُ رعشةٌ غير أليفة، يغفو، يغرق في نومٍ عميقٍ، لذيذٍ جدّاً.

يعودُ رفاقُهُ بِغزال، يضرمون شعلةً لِشوائه قرب باب المغارة. يلمحُون مع ارتعاش وهجِ ألْسِنةِ النار ورقصِ ظلالِها على جدران المغارة شيئاً غريباً يتلألأ على أحد الجدران.

يلاحظون في الحقيقة نقشاً جديداً يُشبهُ: خاصرة؟ نهدين؟ وركاً؟

صخبٌ، فرحٌ ومرح. فوضى بريئة. نسوا الغزال يضطرمُ ويتفحّمُ خارج المغارة وهم يحدّقونَ في الجدار، مستغرقين بالمقارنة بين نقشِ الخاصرةِ وخاصرات بنات القبيلة.

يتقاسمون ما تيسّر من لحمٍ غير محروقٍ جدّاً. ضحكٌ يملأُ المغارة، قهقهةٌ وشدٌّ وجذب.

غبطةٌ وسعادةٌ ومتعةٌ تمتزجُ بنخيرِ «بيكاسو القرية» الذي تُحلّقُ أحلامُهُ

في سماءِ الألوانِ والمنحنياتِ الساحرة. لو يدري أنه بعد أن يستيقظ، سيصيرُ نجمَ القرية، فنّانها الأعظم، ساحرَها الأكبر.

يقول صاحبنا الثاني، وهو يتنفّسُ الصعداء: «وُلِدَ عشقُ فنون المنحنيات التشكيلية الحميمة، وُلِدَ الإنسان الآن فقط!».

يُلاحظُ صديقنا الثالث أمّاً يعثو بِها الحزنُ، تبكي بعنف. ينام بين يديها طفلٌ صغيرٌ توقّفَتْ أنفاسه. (وَقِيدُ نارٍ قريبٌ منها انطفأ قبل ذلك بلحظات).

لماذا تشتعلُ النارُ عندما «يُنفَخُ» فيها، و«تنطفئ» في الثقب المسدود؟ لماذا «أنطفأ» طفلُها؟ ماذا غادر جسدَهُ كي يفقد بعد ذلك مقدرتَهُ على التنفُّسِ والحياة؟

أيقنَتِ الأمُّ أن «نفخةً» تُشعِلُ الحياةَ كانت تسكنُ جسدَ طفلِها، ثمّ غادرَتْهُ لسببٍ مجهولٍ، وطارت نحو «بلاد النفخات» في أعالي السماء. تنظرُ الأمُّ المنكوبةُ إلى السماء بِعينَين مستجديتين، تبحث فيها عن «نفخة»، عن شيءٍ ما يُشبِهُ خيطَ دخانٍ بلا لون، آخرَ أنفاسِ طفلِها. في معمعان هذيانها مكثتِ الأمُّ تصرخُ صيغاتٍ تُشبِهُ الأدعية. تنادي فيها «نفخات» الأجداد التي تقطنُ «بلاد النفخات» السعيدة. تتوسّلهم رعايةَ «نفخةِ» جثمانِ ابنِها التي هاجرت نحو ديارهم.

يصرخُ صاحبنا: «وُلِدَ مفهومُ النفخة: الروح! وُلِدَ الإنسانُ الآن!». ثمّ استغرق الجميع في التأمل في كلّ ما كلّفهُ هذا المفهوم البدائي من تبعات وكوارث في تاريخ الإنسان.

رأى صاحبنا الرابع شاباً وفتاةً يرسمان على الأرض مُربّعاً تتصلُ أركانُ زواياه بخطوطٍ قُطرِيّة. يضعان في رؤوسِ زواياه ثلاث حجارةٍ صغيرة، الأولى بعد الأخرى. (يلعبان لُعبةً اخترعاها انطلاقاً من لُعبةٍ أقلّ تعقيداً وأكثر بدائيّة).

ثمّ يحرّكُ كلُّ واحدٍ منهما حصاهُ بين أركان المربع ومركزِه ونقاطٍ في منتصفِ أضلاعِه.

يفكّران، يدفعان بعضهما بِرقّةٍ، يُقهقهان، يُثبّتان نظرَهما في اللعبة. يختلسان النظر لبعضِهما بابتسامةٍ ماكرةٍ تُخفي محاولةً تلصُّصيةً لاستقراءِ ما ينوي الآخرُ لعبَهُ في النقلة القادمة (يُعجبُ كلُّ واحدٍ منهما بِلمعةِ عيني الآخر).

هما في غايةِ الإثارة والمتعة. نشوةٌ جديدة.

تنتصرُ الفتاةُ في الأخير (ترصُّ كلّ حجارتِها على نفس الخط في المربع). تُدوّي ضحكتُها المنتصرة من سهول السافانا المجاورة حتّى بُحيرة

مانيارا.يرمِقُها رفيقُها باستغرابٍ وإعجابٍ وغِيرة: أيُّ إلهٍ ساعدَها، جعلَها تُحرّكُ حصاها كما يلزم، ومنحَها قوّةً سِحريّةً خفيّة؟

يدفعُ الشابُ فتاتَهُ إلى الأمام بقوّة، وكأنهُ يريدُ أن ينتصرَ بِطريقته!

تسقطُ على الأرض، رجّةٌ كهربائيةٌ عذْبةٌ تتماوجُ في ورِكِها الكرويّ الشاب. أمواجُ إلكترونيّةٌ رقيقةٌ تعبرُ جسدَها البلاستيكيّ الطازج. تُقاومهُ لِتضاعفَ إثارته، تسخرُ منه جهراً: «هزمتُك!»، تقولُها رافعةً ذراعيها...

تزدادُ، في نفس الوقت، رغبةً واستثارةً بهذا الشدّ والجذب.

يتوحّدان تحت السماء دون خوفٍ أو حواجز، يتوحّدان بعشقٍ وضراوة، غير بعيدٍ من مرأى القبيلة التي لا تكترثُ كثيراً بتفاصيل سيناريوهات هذه الطقوس البيولوجية الأليفة التي تضمنُ للقبيلةِ التناسلَ والبقاءَ على الأرض.

يصرخ صاحبنا:«وُلِدَ الإنسانُ هنا الآن فقط!».

أختتم هذه الفصول، حول الخيال الإنساني وتطور اللغة: منبت ووعاء الطبيعة الإنسانية، بهذا الفصل الصغير من روايتي: «تقرير الهدهد»، بعنوان: اثنان أهل الأرض:

حيّا «الأعلى جداً» وباركَ بِحماسة هذا الإنسان الصغير الذي امتلك بِفضلِ دماغهِ أعظمَ وأهمَّ وأخطرَ وأقوى الملَكاتِ التي أكسبَتْهُ سلطتَهُ الهائلةَ على الأرض: الخيال!

وجد «الأقدسُ جداً» أن لهذه الكلمة أحرفاً من أبجديتهِ الخاصة، نوتاتٍ من سيمفونيتهِ الحميمة، شذىً من ضوعِهِ الذي يغمرُ عبقُهُ الأكوانَ والأبديّة!

دوّى بذهول: «يا للعجب! ما أروع روايةَ الحياة، أمَ الروايات! صدقَ آينشتاين إذ قال: "الخيالُ أهمُّ من المعرفة"!».

لاحظ «الأعظمُ جداً» أن الخيال سيفٌ جبارٌ ذو حدّين، أنجب عملاقين هائلين يسيطران على رؤيةِ الإنسانِ للكونِ والحياة، وعلى طرائق فهمهِ وتفكيرهِ ومعيشتهِ: العِلمُ والدّين!

أجاد شاعرٌ عربيٌّ ضرير، عاش في معرّة النعمان قبل ألف عام، تصويرَ ذلك عندما قال:

اثنانُ أهلُ الأرضِ: ذو عَقلٍ بلا

دِينٍ، وآخرُ دِيّنٌ لا عقلَ له

الدّينُ والعِلمُ أخوان شقيقان، بكْرُهما الدّين: كاهلٌ كسولٌ كثيرُ الادّعاء، لا يجيدُ أية حرفةٍ عمليّةٍ مفيدة! نال مع ذلك كلَّ تدليلِ الإنسان واهتمامِه منذ عشرات آلاف السنين. منحهُ كلَّ السلطات والحقوق المظلَقة، تركَ له الحقَّ في قول الكلمة الأخيرة في كل شيء. الزمكانُ ملكُه هو وحده، العوالمُ الميتافيزيقية أيضاً!

وصغيرُهما العِلم: مراهقٌ متوقّدُ النشاط والألمعية! وُلِد متأخراً جداً، وأدرك مُذّاك أن عليه لإثباتِ وجودِهِ على أي مترٍ مربّعٍ أن يزيحَ منهُ أخاه الأكبر، الشديدَ الحضورِ والتسلّطِ والسطوة!

أراد منذ البدء أن يُحدّدَ أراضيه. اقترحَ بلا هوادة: «ليَ الزمكان فقط. والعوالمُ الميتافيزيقية، كلُّ العوالمِ الميتافيزيقية، لأخي الأكبر!»

يا لهُ من ماكرٍ أريبٍ عندما كرّرَ: «كلُّ العوالمِ الميتافيزيقية» وهو يقصدُ في قرارة نفسه: «المجموعة الرياضية الفارغة»، العدَم!

يا لهُ من متواضعٍ كاذب عندما قال: «لي الزمكان فقط» مشدّداً على كلمة

«فقط»، هو الذي لا يمنعُ نفسَهُ من وضعِ أنفِهِ خارج الزمكان، عندما قال على لسان أبي العلاء:

قلتم «لنا خالقٌ حكيمٌ»

قلنا: «صدقتُم، كذا نقولُ!»

زعمتموهُ بلا مكانٍ

ولا زمانٍ، ألا فقولوا

هذا كلامٌ لهُ خبيءٌ

معناهُ ليست لنا عقولُ!

- لماذا العوالمُ الميتافيزيقية لأخيك وحدِه؟

- هذه عوالمُهُ التي يعرفُ وحدهُ كيف يملأها سماوات وجهنمات وجنّات وآلهة وشياطين وعفاريت وأم الصبيان! عوالمهُ لا تطيق وجودي، تعتبرني عدوَّها المطلق، حافرَ قبرِها (مثل الضوء الذي يبتلع الظلمات)، وإن كنتُ لا أحبُّ أن أتدخّلَ في شؤونها!

- لماذا الزمكانُ لك وحدك؟

- أحيا فيه مثل السمكةِ في الماء، لا أستطيعُ أن أتنفّس خارجه! أشيّدهُ وأدرسهُ على الدوام، هو لا شيء تقريباً بِدوني!

- ولماذا تريدُ أن تطردَ أخاك منه؟

- الزمكانُ لا يحتاج لأخي، يحيا سعيداً بِدونه! أخي يملأهُ معابد مطرّزةً بتماثيلِ ثعابين وشياطين وتنّينات تنفثُ النار، يصرخُ الأطفالُ هلعاً عند رؤيتها! يملأهُ هياكلَ وجدرانَ غفران وضرائح أولياء لِرطم الرأس ولكزِ الجسد، ومحاريبَ تُدوِّي ميكروفوناتها بفجائعِ عذابِ القبر وأهوالِ ليالي جهنمَ الساهرة.

يملأه قصصاً تُجرجَرُ من شَعرِها، لا أميزُ بين رأسِها وأرجلِها!

- تطردُ منهُ أخاك الأكبر إذَن؟

- لا! أموضِعهُ بشكلٍ عقلانيٍّ رشيد!

- أين تُموضِعهُ؟

- «ليس لِلعدَمِ وسط، لا حدود لِلعدَمِ إلا مع العدَم!»، كما قال ليناردو دافينشي.

- لا مكان لأخيك إذن في هذا الكون؟

- لا مكانَ له في الكونِ الماديّ فقط، كونِ ميكروسكوباتي وتيلسكوباتي!

- لن يبقى له شيءٌ إذن؟

- كلّا!

- ماذا يبقى له؟

- كلُّ شيءٍ تقريباً!
- لا أفهم، ماذا تقصد؟
- الأدب، أخي نجمُ الأدبِ الساطع! الفكرُ والفلسفة، أخي موضوعهما الأثير! العقيدةُ والإيمانُ لمن يريدُ بِحُريّة، أخي يعرفُ كيف يكتسحُهُما بِثوان!
- يا لهذا الكرَم!
- شُكراً! (ردّ هذا «الصعلوك» الصغير كما لو لم يَلمَح سخريَةً من أحد!)

فنُّ الحدادِ على الذات

الحداد، والحداد على الذات، ضرورةٌ سيكولوجية إشار إليها فرويد. تسمحُ بِقبول الموت كخسارةٍ كليّةٍ لا مناص منها والتصالح معها، وبأرشفة ذكريات من نفقدهم ومواصلة الحياة الطبيعية بجوار ذكراهم.

الحداد على الذات، لمن ينتظرهُ موعدُ موتٍ مُحدَّدٍ قريب، فنٌّ صعبٌ لا يجيد ممارسته بأناقة إلا القليلون ممن يهزمون الخوفَ من الموت ويتجاوزونه، لِيتركوا عند رحيلهم ذكريات ساميةً آسرة، تثير كل الإعجابِ والحبِّ الدائم.

لعلّ لحظة موت الفيلسوف سقراط، كما حكاها تلميذه أفلاطون الذي كان من حواريي سقراط في تلك الليلة الليلاء، أحد أشهر وأجلّ أمثلة الحداد الذاتي.

اتُّهِمَ سقراط، كما يعرف الجميع، بإفساد الشباب، وأُدِينَ بالموت بالسم. لم يهرب من السجن كما اقترح له أصدقاؤه، بل فضّل الموتَ انطلاقاً من التزامه قوانين المدينة، كما علّمهم ذلك على الدوام.

قضّى ليلتَهُ الأخيرة يحثُّ تلاميذه على عدم الخوف من الموت. «عندما يقترب الموت من الإنسان، يغادرهُ الزائلُ من كينونته فقط، أمّا الأبديُّ منها فينصرف بعيداً تاركاً محلّه للموت»، قال لتلاميذه.

شرب سقراطُ السمَّ هو نفسه، تاركاً لتلاميذه تساؤلاً فلسفياً يسبق لحظة الانصراف الأخير: «حانت ساعة مغادرة بعضنا البعض. أنا للموت، وأنتم للحياة. من منّا فاز بالقسمة الأفضل؟ لا يعلم ذلك أحد!».

في هذا التسامي أثناء نعي الذات أناقةُ ما تستحضرُ وفاةَ عالِم نحوٍ عربي تجمّعَ قومُهُ حول بيته لِقتله. لم يهرب أو يرتجف. بالعكس: بشجاعةٍ استعراضية، وبذكاء معرفيٍّ لغويٍّ لطيفٍ مدهش ينضحُ سخريةً رفيعةً وسموّاً نبيلاً (وإن كان لا يخلو من الذكورية المقرفة بالتأكيد)، قال:

إنّ قــومي تجمّعــوا

وبقتلي تحدّثوا

لا أبــالي بِجمــعِهــم

كل جمعٍ مؤنثُ!

حيث يقصد أن جمع المذكّرِ باللغة العربية يُعامَل نحوياً كمؤنث، إذ نقول: «جاءت الرجال» مثلاً، وذلك بالمعنى التصغيري التحقيري الذي تُكنُّهُ الثقافة العربية التقليدية للأنثى!

يقود ذلك إلى استذكار الصورة الشهيرة على الإنترنت، التي التصقت بذاكرتي منذ رأيتها، لِشابٍّ إيرانيٍّ وسيمٍ باهي الطلعة، مُدانٍ بالموت شنقاً، وهو يحمل حبل المشنقة بيد، ويُدير قفاهُ للعامّة الذين جاؤوا لمشاهدة شنقهِ بسعادةٍ واستمتاع، محزكاً يده الأخرى لهم بإشارة سلامٍ وداعٍ مؤقتٍ رقيق، مُبتسماً ابتسامةَ شكرٍ ملائكية مخلصة، كما لو جاؤوا للانحناء عند قدميه!

ينقلني هذا المشهد مباشرة إلى كتابٍ كبير، فريدٍ ومثيرٍ جداً: «سبعة أجيال من قاطعي الرقاب»، نشره في عام ١٨٦٢ هنري كليمان سانسون، آخر سلالةٍ من سبعة سيّافين، قَطعَتْ رقاب آلاف ممن حكمتْ عليهم محكمة باريس بالإعدام، منهم: الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت، قادة الثورة الفرنسية: دانتون، روبيسبيير ورفاقهم... وأسماء أخرى متنوعة كثيرة: «مجرمون ستتقيأهم جهنم»، أبرياء، عشاق متهمون بجرائم غرامية.

رهبة الموت أقوى من صمود الغالبية الساحقة من المدانين الذين سحقهم قاطعوا الرقاب، كما يسردها ذلك الجلّاد الأديب، وهو يرسم بإيقاعٍ مدهش تفاصيل ساعاتهم الأخيرة أمام جحافل من كانوا يحضرون حفلات الموت بتلذّذ.

تنوّعُ حالات مواجهة تلك الرهبة تختلف من إنسانٍ لآخر، وتجعل قراءة الألف حالةٍ وحالة التي يسردها الكتاب استثنائيةَ الإثارة والدهشة.

أسردُ هنا حالتين نادرتين كان الحدادُ الذاتي ومواجهةُ الموت فيهما فريداً شديد الأناقة:

مدام أنجيليك تيكيت في الثانية والأربعين من العمر، «مخلوقةٌ ساحرة»، كما قال شارل سانسون. «كانت أجمل وأروع وأذكى نساء باريس حينها، كما يقال. اتُّهِمَتْ بقتل زوجها بعد تدهور علاقتهما، وسقوطها في عشق آخر».

يحكي سانسون دقائق عبورها ساحة الإعدام بمعطفها الوثير الأبيض، بقوامٍ بديع وخطوات ملوكية. تشكر القسيس بصوتٍ ساحر ولغة متعالية حصيفة على «مواساته وسلوانه بكلماتٍ طيبة ستحملها معها للرب». يصف السيّاف «لمساتها الأخيرة لِشعرها الراقص على كتفيها، وكأنها ستقابل عاشقها بعد لحظات». تسأل السفّاح قرب خشبة بتر الرأس، بلغةٍ ارستقراطية: «أيمكنكم، أيها السيّد الطيب، أن تشرحوا لي في أي وضعٍ تحبون أن أكون؟».

أمام هيام شارل سانسون وهو يرى هذه المخلوقة الساحرة تواجه الموت

بهذه النعومة، تضع أنجيليك رأسها لوحدها على خشبة البترا! «هل هيئتي مناسبةٌ هكذا أيها السيّد؟»، تضيف. «ها هي تواصل إثراء حياتها الأنيقة حتى آخر لحظة»، كما يقول الجلّاد الحصيف.

أما أروع قصص ذلك الكتاب فهي في رأيي حالةُ مدانٍ مارس حدادَه الذاتي بروعةٍ خالدةٍ استثنائيةٍ لم أتوقّف عن الانحناء أمام جلالها:

ظلّ ذلك المدان يقرأ الكتب في السجن بحماسة هائجة، دون توقّف، طوال الأيام التي سبقت لحظة إعدامه. ثمّ، بصَلفِ ارستقراطيٍّ نبيل وتعالٍ لا حدّ لرهافته، توقّف عن القراءة قبل الإعدام بدقائق، أثنَى زاويةَ رأس صفحة الكتاب الذي كان يقرأه (وكأنه سيواصل قراءته بعد قليل!)، قبل أن يضطجع أسفل المقصلة.

يا لسحر وعظمة حركة ثَنيِهِ لزاويةِ رأس تلك الصفحة! أعادت لي أصداء نبرات رِينا وهي تقول عشيّة رحيلها: «إلى اللقاء، حبيب!».

تعرَّفنا، زوجتي وأنا، إلى رِينا (التركيةِ الفرنسية، اللانهائيةِ الطيبة والجمال) وزوجِها وطفليهما عند باب الروضة التي كنا نبحث فيها عن طفلينا. ارتبطنا بهم بعلاقة حميمية. كنّا نقضي جميعاً في بيت أحدنا، في معظم أيام أواخر التسعينيات عقب مغادرة الأطفال مدارسهم مباشرة، ساعتين معاً نعتبرها جميعاً من أمتع وأحلى ساعات الحياة.

دَهَم رِينا، وهي في ريعان شبابِها آنذاك سرطانٌ في النهد. لم تفقد ساعتا لقاءاتنا في نهاية العصر حميميّتها وروعتها، وذلك رغم استفحالِ المرض خلال سنواتٍ أربع، وتطورِهِ التراجيدي في العام الأخير (الذي قالت رِينا لنا فيه إنها لو فقدت النظر فستتوقف عن تناول الأدوية، لِتغادر الحياة!).

كان حدادُها الذاتي وتهيئتُها لعائلتها وأصدقائها لموعد موتها، بشجاعة وأناقة استثنائيين، ملحمةً أدهشتني على الدوام. فرغم انحسارها الجسدي في الفترة الأخيرة، لم تفقد تألُّقها وعشقها للحياة ورغبتها في توهيج السعادة اليومية في حياة من يعاشرها.

ثمّ فقدتُ نظرَها كلّياً ذات يوم. كان لقاء الساعتين لعائلتينا فيه لا يختلف تقريباً عن سابقيه، رغم رجفةِ أحشائي التي كانت تُدمي قلقاً صامتاً حينها، لن أنساهُ مدى الحياة.

«إلى اللقاء، حبيب!»، قالت رِينا ونحن نغادر شقّتهم العائلية. اتصل بي زوجُها قبيل الفجر ليشعرني بخبر رحيلها.

يطنُّ في أذنَيّ رنينُ تلك الكلمات الثلاث منذ ذلك اليوم، بنبرات صوتها الاستثنائي الرقّة والحلاوة. «إلى اللقاء، حبيب!»، وداعُ سقراطيٍّ رفيع!

كيف يبدأ كلُّ هؤلاء الموتى، الذين أجادوا نعي الذات، الدقائقَ الأولى التي

تلي الموت، إن كانت ثمة دقائق أولى تلي الموت؟
لعلّهم يستقبلونها كما استقبلها سارذ قصتي القصيرة الطويلة: «همساتٌ حرّى من مملكة الموتى» وهو يفتتحها قائلاً:
««سايبه!»، كما يقولُ بفرنسيّةٍ طليقة جاري الذي عاش طويلاً في جيبوتي. «خلاص!»، كما تقولُ كلمة عربية أعشقها بامتياز. نعم، خلاص، مُتّ الآن! مُتّ حقاً! مُتّ ولله الحمد! بلغتُ أجلي. تحقّقَ الحلم الذي انتظرته منذ أكثر من دهر. ها أنا الآن روحٌ أثيريّة تنسلخُ من جسدِها، تغادرُ الأرض مثل شعاع ضوء، مثل نظرة وداع.
ياللروعة! ها أنذا أرفرف. أجنحةٌ تنبثقُ من جوانب روحي، تنبتُ وتمتدّ فوق ضلوعي. كلّ أوصالي تتماوج في الفضاء بحبور ودهشة. أحلّق بحرية بعيدا عن عالمكم الطيني، بعيدا عن كلّ أجرام السماء، بعيداً عن المادة والزمن... أكاد لا أصدّق: لم أعد أعيش «على قيد الحياةِ» كتلةً جسدية هشّة تتلذذ بِقزعِها مطارقُ حياتكم القاسية. (أتذكر الآن كم كنت أكره انذاك هذه العبارة المبرطمة: «على قيد الحياة»... لا يهمّ كلّ ذلك الآن. جاء الخلاص. ما أحلى الحرية! ما أمتع الحرية! ما أعظم الحرية! أريد ان أزقزق مثل عصافير الفجر. آه! عاد إلى ذهني فجأة نغمٌ تليد نهض من أنقاض أعشاش المدرسة الابتدائية:
تزقزقُ الطيور فرحانـةً بالنـور
تقولُ في سرور ما أجمل الضياء!
هاأنذا أزغرد! لا تسمعني إلا أرواح الموتى التي غادرت الأرض مثلي. لا تلتقط أغاريد روحي إلا آذان الأطياف الهائمة في هذا المدى الرحيب. يبدو أني أزغرد كالمجنون، أزغرد من كل جوارحي: واوووووو! زغردةً سميكة المخرج، حلزونية الالتواء، مخروطية المنحنى، حادة النهاية. تبتسم جذلى أمام أصدائها المتواترة أزواج الملائكة التي تتفسح في بطاح السماء».

شلالات شفرة الحياة

بعد أربع سنين من الانتظار، ها هما عمارتا «حدائق أجورا» تنوّران قلب عاصمة تايوان: توأمان فنيّان فريدان، يأسران النظر.

لهما شكل هندسي لولبي مزدوج، مثل حلزونين متعانقين كحرف X. في وسط كل دور من أدوار العمارة: حديقة صغيرة معلقة، تحت سماء مفتوحة.

استلهم فانسان كاليبو، مصمّم العمارتين، شكلهما من قدس أقداس بيولوجيا الكائن الحي: جزيء الـ D.N.A، الـ «دي أن إي»، القابع وسط الخلايا الحيّة.

هكذا، تبدو عمارتا «حدائق أجورا» أشبه بشلالات من حدائق، تسيل في شكلٍ هندسي مستوحىً تماماً من دي أن إي الكائن الحيّ.

أثار منظرهما فيّ شلالات من الشجون والذكريات. ها أنا في ١٩٦٢ والعالِمان جيمس واستن وفرانسيس كريك يتسلمان جائزة نوبل لاكتشافهما في ١٩٥٣ جزيء الـ«دي أن إي»، إثر مقال علمي شهير نشراه في مجلة «نيتشر» الرفيعة جداً.

عُدَّ المقال حال نشره منعطفاً في تاريخ الاكتشافات العلميّة، لأن شفرة الحياة تختبئ في هذا الجزيء!

أستحضرُ الفنان سلفادور دالي، وهو يهدي العالِمين في ١٩٦٣ لوحته الشهيرة، ذات الاسم الغريب: Galacidalacidesoxyribonucleicacid الذي دمج فيه اسم زوجته جالا، باسمه، وبالاسم الكيماوي الخشن لجزيء الـ«دي أن إي»: ديزوكسيريبونوكييك، جوهر فكرة اللوحة.

أستحضر أيضاً سلسلة نتائج هذا الاكتشاف الجوهري الذي غيّر مجرى حياة الإنسان، وأثّر في كل المجالات العلمية والاجتماعية والأدبية والموسيقية والتشكيلية.

ثم ألاحظ: ما أبعدنا عن ثقافة الـ «دي أن إي»، نحن العرب الذين لم يقتنع بعضنا بكروية الأرض بعد. (محاضرات الفقهاء الذين ينكرون ذلك تملأ الإنترنت).

لا يزعجني إنكارهم، في الحقيقة، عندما يستخدمون منطق الجدل بالحجة ويقولون: «لو كانت كروية، لما استطاع الإنسان المشي فيها، ولَتدحرج!». إذ لا يمكن طفلاً طبيعياً في السابعة من العمر أن لا يخطر بباله هذا

الاعتراض اللطيف البريء. بل من حقّهم - إذا أرادوا اعتبار - الصور الآتية من الفضاء مزوّرة، رغم أنهم لا يستطيعون إنكار أن الإنسان اخترع الطائرة، وصعد الفضاء.

ما يزعجني فعلاً، أولئك الذين يسخرون ويقهقهون، على نحوٍ ديني أعمى، من طرح الرافضين لكروية الأرض، دون المقدرة على المحاججة المعارِضة: «النملة تسير فوق التفاحة دون أن تتدحرج، لِصغر جسمها بالمقارنة بحجم التفاحة. فما بالكم بحجم الإنسان بالنسبة إلى كوكب الأرض!»؛ هكذا تردّ الأم أو الأب المحترمان النبيهان، لابنهما في السابعة، عند استغرابه الحميد من فكرة كروية الأرض، ورفضه لقبولها في البدء.

لكننا كعرب، في عصر التبجحات العرقية والصراعات والحروب الطائفية، اليوم أكثر حاجة من أي وقت مضى لنشر ثقافة الـ «دي أن إي»، لأنها الأقدر على ضرب العنصرية وهي تبرهن للإنسان، بما لا يدع مجالاً للشك، أن مهد البشرية أفريقيا السوداء؛ وتردع الافتراءات الإثنية التي تتسلّق على شجرة الأنساب الإنسانية، دون برهان، للتعلّق بهذا الفرع الجنكيزخاني أو الهاشمي، لأغراض استغلالية مقيتة، كما سنوضح لاحقاً.

حاجتنا ماسة لذلك، حتى وإن لم نخرج تماماً بعد، كعرب، من إشكالية عدم اقتناع بعضنا بكروية الأرض ودورانها حول الشمس، بفعل الأمية الثقافية والتضليل الظلامي الفعّالين!

لأذكّر أوّلاً بمعلومات أولية درسناها في الصغر: يحتوي كل جسدٍ إنساني على نحو ستين ألف مليار خلية. في مركز كلّ واحدةٍ منها نواة. في وسط كل نواة، لمن رآها بالميكروسكوب: ٢٣ زوجاً من «شتلات» تسمّى كروموزومات. في كل واحدٍ منها يقبع جزيء الـ«دي أن إي» العجيب، هذا «اللوح المحفوظ» الذي اكتشفه واستن وكريك.

يبدو هذا الجزيء فعلاً كسلّم، ضلعاه لولبيان ممطوطان، يرتبطان بجسور تبدو كما لو كانت درجات للسلّم. كل درجة تتشكّل من اثنتين من أربعة «مركبات قاعدية كيماوية»، يرمز إليها بـ: «A،C،G،T».

تمثّل هذه الأحرف الأربعة أبجدية لغة ميكانيكا بيولوجيا الكائن الحي وتاريخه، مثلما يمثّل الصفر والواحد أبجدية لغة الكمبيوتر.

لم تنقلب الدنيا رأساً على عقب، بعد اكتشاف الـ«دي أن إي»، إلا في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، عندما تطوّرت علوم الكمبيوتر ومقدراتها الحسابية، وصار بالإمكان، عند أخذ شذرة من لعاب أو دم أو عظم أو بقية جسد الإنسان، قراءة كل درجات سلّم الـ«دي أن إي»، كما لو كانت كلمة واحدة (أبجديتها الأحرف الأربعة)، شاسعة الطول في الحقيقة: مئات

الجيجابايتات!
كتابٌ لا نهائي تقريباً، يسمّى «الجينوم»، يحوي كل أسرار بيولوجيا المرء كلون عينيه وطول أصابعه، كل خلله وأمراضه، كل ماضيه وتراثه الوراثي، وكل تاريخ بيولوجيا الإنسانية عموماً أيضاً!
هاكم مثلاً: قطرة من بين ملايين صفحات محيط جينوم ذبابة: CAAGCTGCATGT... بعض قطرات هذا الكتاب العملاق صفحات تسمى «جينات» تحدّد صفات صاحبها البيولوجية وتسرد تعليمات لتشكيل ونمو بروتينات جسده. بعضها شفرات ورثها من الأب دون تغيير؛ وأخرى من الأم دون تغيير؛ وبعضها صفحات خاصّة جداً تشكّل بصمة صاحبها الفريدة، وبطاقته الشخصية وحده لا شريك له. لذلك، فقراءة هذا الكتاب تكشف كل أسرار الإنسان.
مثال: عندما أصرّت أورور دروسار على أنها ابنة الفنان الراحل إيف مونتان (لأسباب حقوق في الميراث ربما)، أمر القضاء باستخراج رفاته، وفحص الـ«دي أن إي» لإحدى خلاياه، ليتبيّن أنها ليست ابنته. انتهى الأمر لأن قرار الـ«دي أن إي» قرآن رادع، لا يقف أمام أحكامه أحد.
كل الأسرار تتعرّى عندما تبدأ قراءة هذا الكتاب: كان الرئيس الأميركي توماس جيفرسون أب لآخر أبناء عبدته السوداء سالي هيمنجس!
المفاجآت الناجمة عن قراءة هذا الكتاب تتجاوز أحياناً كلّ خيال: جيري وينكلر، مهفش هولندي شخاذ، كان الابن الخفي للملياردير آلفريد وينكلر. وأم هذا لم تكن ابنة شرعية لمن ظنّ الناس أنه أبوها!
لذلك، هناك جدل حول القيمة الأخلاقية للسماح بفحص أي إنسان للـ«دي أن إي» الخاص به. مسموحٌ ذلك في بعض الدول الأنكلوسكسونية كأميركا، وممنوع في فرنسا مثلاً إلا لأغراض صحيّة أو قانونية، وإن كان يحق للمرء فيها، عبر الإنترنت فقط، اللجوء لفحص الـ«دي أن إي» في أميركا أو سويسرا بسعر يقل عن ٢٠٠ دولار!
الموافقون على السماح للفحص يرون أنه ضروري كي لا يعيش المرء على أكذوبة ووهم، فيما يرى الرافضون أن الهويّة ليست مجرّد قضية بيولوجيا، بل انتماء عاطفي ثقافي، يمكن الحقيقة البيولوجية الرعناء أن تدمّره وتلغيه.
جدلٌ لا يتوقّف...
لكن الجميع متفق على أن هذا الفحص غيّر مجرى القضاء والعدالة، بفضل ما يسمّى اليوم «البوليس العلمي» الذي تسمح مختبراته بكشف مرتكبي الجرائم بدقّة لا متناهية، حتّى وإن كانت جرائم عتيقة عفا عليها الزمن!

يكفي أن يعثر القضاء في موقع الجريمة على أثر قطرة منوية، أو قطرة دم، أو بصيص لعاب على أعقاب سجائر، أو نتفة من لحم أو عظم أو ضرس، ليمتلك صورة دقيقة لهوية مرتكب الجريمة، يقارنها بقاعدة البيانات التي تحتوي اليوم، في الدول المتقدمة، على مئات الآلاف من «دي أن إي» المواطنين، ولا تتوقف عن التزايد بفضل كل الحالات الجديدة التي تصل إلى القضاء.

سوق قاعدة بيانات الـ«دي أن إي» صار من أهم الأسواق الاقتصادية الذي تتضارب على امتلاكه واحتكاره الشركات الاقتصادية الكبرى، ولا سيما غافا (غوغل، آبل، فيسبوك، آمازون)، كما سنوضّح لاحقاً.

عدد الملفات التي أقفِلت بعد كشف القناع عن المجرمين، بفضل إمكانية هذا الفحص منذ نهاية الثمانينيات من القرن المنصرم، حتى وإن كان عمر جرائمهم عدة عقود، لا يعد ولا يحصى. سرد كل هذ الملفات يحتاج إلى مجلدات مدهشة حقاً: كثير ممن قاموا باغتصابات جنسية أو قتل، ثم اختفوا، أو بدأوا حياة جديدة، وصلت إليهم يد العدالة بعد عدة عقود من جرائمهم، وها هم قابعون اليوم في السجون.

لكن الأكثر عمقاً في تقديري هو دور الـ«دي أن إي» في تعرية شجرة الأنساب للإنسان، وفضح أكذوبات تاريخ السلالات العنصرية، أو التلفيقية لأغراض استغلالية: موضوع نصّ قادم يضع شجرة الأنساب تحت المجهر.

«يولد الناس أحراراً ومتساويين»، يقول «ميثاق حقوق الإنسان» الذي أقرّ في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨، وتلتزمه نظرياً جميع الدول.

لذلك، الادعاء بأفضلية المنتمي إلى هذا العرق أو النسب أو الدين أو الإلحاد على غيره، ينتمي إلى عصر بائد مظلم، تجاوزته الحضارة الإنسانية، نظرياً على الأقل. تجاوزته نسبياً دول المواطنة المتساوية. لكن ما زالت تكتوي بناره، أكثر من أي وقتٍ مضى، دول الحروب الطائفية والدينية كدولنا التي عاد في بعضها استغلال ادعاء الانتساب إلى سلالة النبي أو بعض الصحابة، للهيمنة المقدّسة والقرصنة السياسية والعسكرية.

الموضوع خطير ومؤلم مرتين: الأولى لأن عصر الحداثة والمواطنة المتساوية يمنع أي تمييز. والثانية لأن ذلك الادعاء مؤسس على الدجل غالباً، ودون أدنى برهان في جميع الحالات دون استثناء. كم يجدر لذلك نشر ثقافة البرهان العلمي، لفضح هذه الوسائل الاستغلالية الفاحشة!

قبيل فترة مثلاً، ألقى فقيه جليل محاضرة مدح فيها عمامته التي انتقلت بين أنسابه الكريمة، ابتداءً من النبي محمد. ذكر في محاضرته أسماء أجداده اسماً اسماً، حتى الوصول إلى سيدتنا فاطمة، فالنبي.

إعجابٌ تقديسي في القاعة، بشكلٍ آلي. ومع ذلك، ليس لشعوبنا أرشيفات مدنية تنقل لنا سلسلة أنسابنا، بدءاً من الجد الرابع أو الخامس أحياناً، وبشكل موثّق ومؤكد. ثم إن سلسلة الأسماء التي ذكرها الفقيه غير معروفة لأحدٍ في الأساس، ليجري تقصي تواترها في كتب التاريخ، والتحقيق في صحتها خلال قرن أو قرنين فقط، فما بالكم بأربعة عشر؟!

لكن الأكثر إثارة للضحك: لو ضرب عدد الأسماء هذه، بعدد سنين متوسط عمر الجيل الذكوري، لما كان عدد السنين الإجمالي كافياً للوصول إلى عصر سيدتنا فاطمة، ولَضاع هكذا من عمر الإسلام بضعة قرون!

ما أحوجنا إلى غرس عقلية العلم والأنوار، ونشر ثقافة الـ«دي أن إي» التي تبرهن وحدها صحّة شجرة الأنساب وتكشف الحقائق والخيانات! كلّ ما عداها ادعاءات يمكن، أي قرصان أو لص كان، تسريبها والترويج لها بالمال أو السلاح أو الموقع القبلي، قبل أن ترددها الأجيال بإيمانٍ بليد مطلق!

فالثورة الجينية تسمح اليوم بقراءة كل «دي أن إي» الإنسان. أي سرّ حياته الذي لا يحتوي فقط على شفرات جيناته المسؤولة عن كل ملامحه البيولوجية وأمراضه، ولكن على كل ميراثه البيولوجي، وتاريخه الخاص

وتاريخ أقاربه. (مشروع قراءة الجينوم الإنساني دام عقداً ونصف عقد، كلّف ٣ مليارات دولار، وأنجزه ألفا باحث).

فالـ«دي أن إي» كتاب هائل عزى العلم والكمبيوتر أسرارَه، يختفي في نواة خلايانا الحية أكانت لُعابية أم منوية أم لحمية. بعض صفحات هذا الكتاب لها أهمية خاصة: «الكروموسوم Y» الذي يرثه الإنسان من أبيه فقط، و«دي أن إي الميتوكوندريا» الذي يرثه من أمه فقط. قراءة الأولى تكشف تاريخ الذريّة الأبوية للمرء، والثانية تاريخ ذريّته الأمويّة. كلتاهما تجليان تاريخ شجرة أنساب الإنسان، وتسلسل سلالاته الموثّقة فيهما.

قبل الحديث عن هذه الشجرة، تجدر الإشارة إلى أن قراءة الـ«دي أن إي» لمختلف الكائنات الحيوانية والنباتية سمحت ببرهنة صحة «شجرة الأنواع البيولوجية» الداروينية: فبين «دي أن إي» الإنسان مثلاً و«دي أن إي» قريبه قرد الشامبانزي، ثمة ١٪ من الاختلافات فقط، نتجت منذ انفصال النوعين قبل ٥ ملايين سنة بسبب ظروف بيئية مختلفة لعبت دوراً في تطوّرهما المختلفين. فيما يختلف «دي أن إي» قرد الشمبانزي عن «دي أن إي» قرد الجوري بـ ٣٪!

أمّا الاختلاف بين «دي أن إي» الإنسان (هومو سابيانس، الذي بدأ نوعه قبل نحو ١٥٠ ألف سنة) ودي أن إي كائن غريب (أطلق عليه: هومو نياندرتال) نسبة لوادي نياندير بألمانيا، حيث اكتشفت أوّل نسخة من رفاته في أغسطس ١٨٥٦، فهو أقلّ بكثير من ١٪!

أثار هذا الكائن كل استغراب العلماء حينها، لأن له جمجمة تختلف عن جمجمة الإنسان، ما جعل البعض يظنون أنها جمجمة دب. فحصُ الـ«دي أن إي» الخاص به برهن مفاجأة مذهلة: هو إنسانٌ من نوعٍ مختلف عن نوعنا، انقرض من المعمورة قبل ٣٠ ألف سنة فقط، عاش في الهلال الخصيب، أوروبا، والمغرب العربي، وكان له تاريخ مشترك مع سلالتنا قبل أكثر من مليون عام.

الحياة في ظروف بيئية مختلفة تؤدي، مع تراكم الزمن، إلى تغيّرات عميقة في النوع البيولوجي. ولذلك اخترع البيولوجيون مفهوم «الساعة الجزيئية» لقياس الزمن الذي مرّ منذ تراكم عدد من التغيّرات أدّت إلى انفصال هذا النوع البيولوجي عن ذاك، أو هذا الشعب عن ذاك.

لاستيعابها بسهولة، مثالٌ بسيط: لنفرض أنك وصلتَ مع زوجتك من أفريقيا إلى جزيرة نائية من دون سكان.

بعد زمن من توالد أحفادكما فيها، بكل طفرات الـ«دي أن إي» الممكنة، سيولد شعب مجموع تنوّع الـ«دي أن إي» لأفراده ضئيل عموماً، لأن شعب

جزيرتك انطلق حديثاً، من تراثك وتراث زوجتك الجينيين فقط. وتشابه جينات الشعب في مجمله أكبر بكثير من تشابه جينات عدد مساوٍ متنوع من أهل أفريقيا.

مقارنة درجة هذه التشابهات بين المجاميع البشرية تسمح بحساب هذه الساعة الجزيئية التي برهنت أن مهد البشرية، أفريقيا، بالإضافة إلى برهان ذلك بتحديد تاريخ الحفريات بواسطة الكربون ١٤. وبفضل المنهجين في البرهنة، جرى تحديد دقيق لسنوات هجرة بعض سكان أفريقيا نحو أرجاء المعمورة ليملأوا العالم.

يمكن اليوم فحص الـ«دي أن إي» الإنسان بأقل من ٢٠٠ دولار لمعرفة تاريخه الجيني، وتاريخ سلالته وهجراتها، وكل انتماءاته الإثنية!

كل من قام بهذا الفحص فوجئ باكتشاف بديهية: تاريخ البشرية رحيل وتنقّل وغزو واستعمار وهروب. يصعب أن تفحص الـ«دي أن إي» خاصتك دون أن ترى هذا المزج البشري في تاريخك الوراثي، الذي بفضله يتشابه «دي أن إي» البشر بنسبة ٩٩.٩٪.

ومفاجآت من فحصوا الـ«دي أن إي» الخاص بهم صارخة غالباً، ولا سيما العنصريون وهم يكتشفون أن لهم أجداداً من العرق أو اللون الذين يكرهونه!

ثم تزداد المفاجآت عند فحص الدي أن إي بغية تحديد شجرة الأنساب لهذا أو ذاك، لبرهنة أنه سليل ملك عاش قبل بضعة قرون، فما بالكم بنبي أو صحابيٍ عاش قبل ذلك بأكثر من ألف عام؟!

إحدى أشهر المفاجآت التي رجّت بريطانيا في ٢٠١٢، كان سببها اكتشاف رفات الملك الانكليزي الشهير الذي خلّده شكسبير: ريتشارد الثالث (١٤٣٥-١٤٨٥) أسفل ورشة بناء موقف سيارات، قرب مدينة ليسيستر.

قُتل الملك في معركة، ودفن خلالها هناك، وضاعت آثار لَحدِه مع الزمن.

حسب مقال علمي نشر في مجلة «نيتشر» العلمية المتميزة، فحص الـ«دي أن إي» أكّد كل ما يُعرف عن الملك: بكونه أحدب، لون شعره، بما في ذلك نظامه الغذائي...

ثم قورن الـ«دي أن إي» الموروث من الأم بـ«دي أن إي» ابن خالته، ميخائيل إبسن، الذي ولد في كندا، ليؤكد هويّة الملك دون أدنى شك.

غير أن فحص الـ«دي أن إي» الموروث من الأب لأحفاد العائلة المالكة الحاليين، الذين لهم مع ريتشارد الثالث (الذي لم يُنجِب) جدٌّ مشترك، فجّر الفضيحة الشهيرة مذاك: حدثت خيانة في سلالتهم الذكورية!

ذلك يعني أن إحدى الزوجات في السلالة اختارت لابنها أباً غير زوجها

الشرعي!

وفي فرنسا، الملك الشهير هنري الرابع (١٥٨٩-١٦١٠) كان ضمن من أخرِج رفاته من قبره، بعد الثورة الفرنسية، ورمي في حفرة.

في ١٩٢٥، أُعلن اكتشاف مومياء رأس اشتهر بأنه رأس هنري الرابع.

تلاه شك من بعض العلماء عن مدى صحة ذلك. لم يحسم الجدل إلا قبيل سنوات، بعد فحص الـ«دي أن إي»، ومقارنته بدي أن إي أحفاده وذويه: ليست جمجمة هنري الرابع!

هكذا، فحص الـ«دي أن إي» يعزّي كل الحقائق: يبدو مثلاً أن اليهود الأشكيناز والييديش، الذين طالما أدعوا أن أصولهم آتية من اليهود الذين فروا من فلسطين بعد تهديم الهيكل، ينتسبون إلى أصول إيرانية قوقازية لا علاقة لها بفلسطين، اعتنقت اليهودية لاحقاً.

لكل ذلك، عندما يتحدث أحدهم أمامك، عزيزي القارئ، عن نسَبهِ الهاشمي أو الجنكيزخاني، أو يقول إن جدّه معاوية أو سلمان الفارسي، مسيلمة الكذاب أو جعفر الصادق، دون إحضار شهادة الـ«دي أن إي» التي تبرهن ذلك، فليكن ردّك الساخر: «وأنا جدّتي ملكة بريطانيا!»، قبل أن تقرأ له الجملة الأولى من ميثاق حقوق الإنسان.

لكل ثقافة قطبان متضادان؛ آليّة مرور التيار بينهما تحدّد قوة الطاقات الإبداعية لتلك الثقافة، ومداها. سجالهما وجدلهما وتكاملهما وعناقهما ضروري لحيوية الثقافة وإشعاعها.

تعود هذه الفكرة إلى الفيلسوف نيتشه الذي رأى، في كتابه الأول: «ولادة التراجيديا»، أن للثقافة الإغريقية القديمة منبعين جوهريين، اختزلهما رمزاً بإلهين إغريقيين لهما طبيعتان مختلفتان، «يسيران جنباً إلى جنب، ولكن في صراعٍ لا نهاية له»: أبولو وديونيزوس.

أبولو إلهُ شمسي، إله النظام والقياس والرؤية والوضوح والعقل، وملَكات عديدة أخرى. كل الظواهر القابلة للإدراك والتنظير تنسب إليه.

ديونيزوس إله شرقي آسيوي، من مواليد جبل ميروس في باكستان حالياً. إله الثمالة والنشوة واللامرئي والانزياح وتجاوز الحدود، إله النبيذ والمسرح والرقص والتراجيديات والجنون.

القوة رمز للأول، والحرية رمز للثاني. لكل عمل إبداعي جذراه الأبولوي والديونيزوسي: موسيقى أبولو فن معماريّ هندسي صوتي، لحن قيثاريّ جبار جميل. وموسيقى ديونيزوس عبور لكل نبرات الروح، تفجير لكل غرائزه الربيعية، تعبير عن ألغاز وقلق العالم، وعن التفكير الحميمي للطبيعة؛ كما يقول نيتشه في كتابه: «الرؤية الديونيزوسية للعالَم».

في كتابه «الحقيقة والأكذوبة، خارج نطاق المعنى الأخلاقي»، يؤنسن نيتشه هذين الوجهين الإلهيين للثقافة، عبر مفهومي: «الإنسان العقلاني»، و«الإنسان الحدسي»، ويجلي العلاقة بينهما.

«ثمّة عصور كان الإنسان العقلاني والإنسان الحدسي يتماسكان فيها وجهاً بوجه، الأول خائفاً من الحدس، والثاني محتقراً للتجريد؛ لا عقلانيةُ الثاني تضاهي كراهية الأول للفن».

يشير نيتشه إلى أن عناق الإلهين الأخوين المتصارعين أبداً (الإنسان العقلاني والإنسان الحدسي) تجاوز حالة الاستقطاب والتمترس مرّة واحدة في تاريخ البشرية، في العصر ما قبل السقراطي. تناغما حينها، وتبلور ذلك في إبداع التراجيديات الإغريقية.

تنافرُ هذين الأخوين وتنازعهما ومحاولة سيادة أحدهما على الآخر، متأصل في طبيعتهما، كما يرى الفيلسوف. يمارس الأول سيادته عبر الإجابة على ضروريات الحياة بالتصور الهندسي والعبقرية والقواعد المنتظمة. أما

الثاني، «ذو الأبطال المتدفّقين فرحاً»، فلا يحتاج إلى رؤية تلك الضرورات، إذ لا تهمه إلا جماليات المشهد.

لعلّ رواية الفرنسي العدمي الشهير، ميشيل هولبيك «الجسيمات الأولية» (فلاماريون، ١٩٩٨)، التي كانت على وشك نيل جائزة الغونكور حينها والتي أخرِج منها أخيراً فيلم مثل فيه الروائي نفسه، تُجلي بؤس الإنسان عندما يعيش بشكلٍ متطرّف أعمى، معزولاً في إحدى ضفتي الحياة الأبولوية فقط، أو الديونيزوسية فقط.

بطلا الرواية أخوَان يفرقهما كلّ شيء. الأول، ميشيل، عالم بيولوجي كبير جداً، يعيش حياة رمادية قاحلة بين بيته ومختبر أبحاثه الباريسية الذي يجري فيه تجارب طليعية في استنساخ الحيوانات. والثاني، برونو، مدرّس للأدب، يعيش حياة كلها هوس جنسي، ويحلم بأن يكون كاتباً كبيراً.

هما، مع ذلك، وجهان لنفس التراجيديا التي يسببها خلو حضارة اليوم من عمودٍ فقريٍ يربط الميثولوجيا بالتكنولوجيا.

ثمّة مأزق وخطورات، في الحقيقة، كما يكشف نيتشه، في سيادة أحد الإلهين على الآخر بنحو كلي. السيادة الفائضة لديونيزوس تقود إلى التفجير العنيف للطاقات والغرائز، وإلى نوعٍ من الفوضى الهمجية.

والسيادة الفائضة لأبولو تقود إلى حبس الطاقات الإبداعية، تحت طغيان الصِيغ الشكلية والنظم المقوننة، ووباء تيبُّس الغرائز واضمحلال القوى التي تسمح بتجاوز الذاتِ وإنجازاتها الإبداعية.

يرى نيتشه أن هذا الطغيان العقلاني حلّ في الحضارة اليونانية منذ عصر سقراط، وفي عصرنا الحديث كذلك (الذي لم يعشه نيتشه إلا عند بدء اكتشاف التلغراف!).

ماذا كان سيقول - رحمه الله - لو عاش مثلنا اليوم، عصر «الضجر الجذري» الذي صارت فيه التكنولوجيا، وأتمتة الحياة وديكتاتورية الخوارزميات وهذا المحيط المتلاطم من التطبيقات الكمبيوترية على الهواتف المحمولة، تشتغل جميعها لتوجيه حركة عصبونات دماغ الإنسان، وطريقة تفكيره ورؤيته وعيشه؟

ماذا كان سيقول اليوم في عصرٍ تتربَع فيه على قمة الأولمب آلهةٌ جديدة اسمها: غوغل، فيسبوك، تويتر، أمازون...؛ عصر «السيارات المتصلة» وروبوتات الذكاء الاصطناعي التي تحوّل الإنسان شيئاً فشيئاً إلى روبوتها المطيع؟!

ومع ذلك، لا شك في أن أبولو يحتاج إلى ديونيزوس، كما يحتاج

ديونيزوس إلى أبولو؛ وإن فضّل نيتشه سيادةً نسبية لديونيزوس، على أبولو، يقود فيها حركة إبداعية دائمة ترفض التقوقع والنهايات.

«يمكن أن تتشكّل حضارة ذات تباشير بهية، يسود فيها الفن على الحياة، كما هو حال الحضارة الإغريقية القديمة، عندما يوجّهُ الإنسان الحدسي ضربات أقوى وأنجح من خصمه العقلاني»، يقول نيتشه.

بعيداً عن تفضيل هذا أو ذاك، لِنقُلْ إن تناغم الإنسان العقلاني والحدسي، وذوبانهما في «ضفّة ثالثة»، هو «نهاية التاريخ» الذي نتمناه لحضارة بشرية جديدة تنتج وتعيش وتتكامل على نحوٍ ينسجم مع إيقاع الطبيعة البدائي، بعيداً عن المصالح الأنانية لقوى المال؛ وليست هذه النهاية الإلكترونية الصقيعية الموحشة التي يقودها تحالف قوى المال والتكنولوجيا وفق هوى ومصالح الليبرالية الاقتصادية المعولَمة الوحشية.

أين هي ثقافتنا العربية اليوم من هذا السجال والتكامل الديونيزوسي الأبولوي، ورفدِ هرموناته للإبداع والحضارة؟ لا شك في أننا نعيش اليوم عصر انحطاط عميق، لا يخلو مع ذلك من أصوات مخلصة مقاوِمة كثيرة.

فسبات العقل من ناحية، وكبح جماح الحرية والخيال بالتكفير والفتاوى والقتل من ناحية أخرى، أصابا «الإنسان العقلاني» و«الإنسان الحدسي» العربيين، بالشلل الكلي معاً.

أحاول في كثير من فصول هذا الكتاب أن أكون من أصوات المقاومة تلك، التي تطمح إلى إيقاظ إنسانٍ عقلانيٍ عربي يرفع راية العلم الحديث الذي تأسس بعد قطيعة معرفية مع إقحام الدين والإيمان فيه، كما كان حال علوم القرون الوسطى؛ هذه القطيعة التي لم نستوعبها كعرب بعد، ونرفضها غالباً، رغم كونها أهم إنجازات الإنسان والفكر الحديث. وتطمح في الوقت نفسه إلى إيقاظ الإنسان الحدسي العربي الذي لا يساوم في حقه في حرية الخيال والنقد ورفض القيود الظلامية عليها، سليل شهرزاد التي كبحت جماح الاستبداد والظلامية، بالتخييل والسرد والانتصار للحياة والعشق والإنسان.

في هذه الرقعة الجغرافية أجد، كمهتمٌ بالعلم والأدب معاً، الانفصام الشيزوفريني الحميد الذي أهواه. أي أجد ذلك العناق المبارك بين عوالم المعرفة والفنون، الذي سأمحور بوصلة كثير من مواضيع الكتاب في اتجاه محرابه، ضفتي الثالثة.

ثقة حيث تلتقي التكنولوجيا بالميثولوجيا، العقل بالخيال، الثقافة والفن بالكمبيوتر، والعشق بالمقاومة من أجل انتصار الإنسان والحرية والحياة.

لعلّ أفضل رمزٍ لذلك المشروع: تحالف الجنيّة دنيا مع أحفاد ابن رشد، ولا

سيما البُستاني ذو الأصول الهندية: جيرمينو، لإنقاذ البشرية اليوم، كما هندس ذلك صاحب مدرسة «الواقعية السحرية» الروائي الكبير سلمان رشدي في روايته الأخيرة: «سنتان، ثمانية أشهر، وثمانية وعشرون عاماً».

ولعلَ أفضل منهجٍ لبلوغ ذلك يُلخِّصه تعليق عميق مكتوبٌ أسفل لوحة فرانسيسكو غويا الشهيرة، في القرن السادس عشر: «نوم العقل يُنجب الأشباح»، شعار العقلانية اليقِظة المحضة.

يبدو في اللوحة إنسانٌ نائمٌ على منضدة، تخرج من دماغه أشباحٌ ميتافيزيقية تشبه الجنّ والعفاريت.

لكن التعليق العميق، الذي ذكّر به رشدي في الصفحة الأولى من روايته، أسفل اللوحة، يقول: «الخيال ينجب الأشباح المستحيلة عندما يجافي العقل، لكنه يصبح أبا الفنون والروائع، عندما يتّحد معه» في ضفّةٍ ثالثة!

لمواجهة كل كآبات العالم، ثمة ترياق لذنيٌ لذيذ: المسرح، وبلسم تخديريٌ ممتع: كرة القدم. بين الاثنين تباين وتنافر يستحقان التأمل.

كرة القدم سجال جماعي مثير، تخفق له قلوب العالم أجمع في الوقت نفسه، على إيقاع الجري «العظيم» خلف كرة! هي أيضاً لحظات هروب حميد من قضايا الإنسان وآلامه، والمنغصات اليومية التي تؤرقه. وهي أخيراً مربط فرس مليارات «عالَم الاستعراضات»، ومنبع أفراح ملايين الدائخين في الشوارع الشعبية المسحوقة، وصراعاتهم البلطجية الدامية أحياناً، بعيداً عن المفهوم الذي اخترعه شكسبير في إحدى مسرحياته: fair play، الروح الرياضية.

أما المسرح، فهو كما قال بيتر بروك في مقابلة أجريتُها معه لصحيفة «الحياة»:

«صلاةُ جماعة (نحو ٧٠٠ شخص في أفضل الأحوال، في مكانٍ مغلق غالباً)، يركّزون ويتأمّلون معاً، يدخلون في «كومينيون»، عشاء إلهي. جزيرةٌ طوباوية صغيرة حيّة، تفكّر وتحيا بشكل جماعي فوري. ليس هدفه التصوّر المستقبلي الإفلاطوني، لكن التأمّل الجماعي المباشر. ذلك ما كان يحصل في المدينة الإغريقية عقب التجربة المسرحية: كان الأثينيون مثلاً (أو «الميكروكوسم» الذي يحضر المسرحية) يمتلكون حقيقتهم الجماعية بعد مشاهدة تفاعلات الآلهة، البشر، العلاقات المختلفة، الانتقامات، الفظاعات... يعيشون حينها، ما سمّاه الإغريق بذكاء، «كاتارسيس»: تنقية المشاعر الجمعية بالكوميديا».

لمقاربة الحياة بوعي وأناقة، ليس ثمّة أفضل من هرمونات المسرح: يعلمنا كيف نرى ونتمثّل ونفكّر ونقاوم. إذ هو الوجه المصغّر للحياة. فالعالم، كما رُوي عن شكسبير، مسرح كبير ممثلوه البشر.

عندما يصعب خوض الثورات، يظل هناك المسرح، أو كما قال بيتر بروك: «إن لم نستطع تغيير العالم، فنحن نمتلك عبر المسرح، لسويعات قليلة، مجتمعاً صغيراً مثالياً يسمح بتجاوز تراجيدياته».

ينبغي التمييز هنا بين المسرح والسينما. العلاقة بينهما كالعلاقة بين اللوحة التشكيلية وصورة اللوحة. المسرح مجتمع حيٌ مباشر، فيما وطنُ السينما، الشاشة. بضاعتُها صناعة الصورة ودبلجتها وغربلتها ومسحها وتزييفها وتقطيعها، على نحوٍ يتناغم غالباً مع مصالح قوى المال

الهوليوودية والبوليوودية، وغيرها من مراكز نفوذ «العالَم الاستعراضي» وملياراته.

المسرح فن مقاوم، يحافظ على استقلاليته الذاتية والفنية، وابتعاده عن العالم الاستعراضي وأولوياته، على تواضع رواتب ممثليه، وبعدهم عن طقوس ضجيج حيوات نجوم السينما، وعدم وقوعهم في قضايا الفساد، كفضائح «أوراق بنما» التي اشترك فيها لاعبو كرة القدم، وقيادات منظماته، ورموز عالم الاستعراضات بمختلف ألوانه.

ثمّ بإمكان المسرح اليوم توظيف السينما كفنّ، كما توظِّف الروايةُ الشعرَ: يكفي أحياناً وضع شاشة في زاوية المسرح تعرض شذرات فيلم يواكب المسرحية ويندمج بها. ذلك حال مسرح اليوم الحديث الذي أضحى يوظِّف الشاشة كثيراً ضمن مواده اللوجيستيكية الأولية.

ثمّ لا يخضع المسرح لأي قيود، خلا ما تمليه الضرورات الفنية فقط: مدّة المسرحية مثلاً تدوم حسب موضوعها، لا غير: «ماهابهارتا»، إحدى مسرحيات بروك الشهيرة المستوحاة من ملحمة ميثولوجية هندية، تدوم ٩ ساعات! مسرحية «٢٦٦٦» تدوم ١٢ ساعة، موضوعها رواية من ١٣٥٠ صفحة، للتشيلي روبرتو بالينو؛ وثمة مسرحيات تدوم ٢٤ ساعة!

المصادفة الممتعة لمن يراقب علاقة المسرح بالكرة: ١٠ يوليو ٢٠١٦، كان يوم مباراة نهائي كأس «اليورو» بين البرتغال وفرنسا، وكذا يوم العرض الأول لمسرحية «الملاعين» في مهرجان أفينيون لهذا العام. بدآ معاً في الوقت نفسه. نقلت إحدى قنوات التلفزيون الفرنسي الخاصة المباراة، ونقلت أهم قنوات قطاع الدولة المسرحية. شاهد المباراة عدد أكبر بكثير ممن شاهدوا المسرحية، بالتأكيد. لكن، من يتذكر اليوم هذه المباراة، أو يبحث عن إعادة رؤيتها عبر خاصية RePlay (استحضار برامج قديمة من إرشيف التلفاز)؟ فيما يزداد عدد من يستحضرون المسرحية عبر تلك الخاصية يوماً بعد يوم؛ وسيكونون حتماً أكثر من عدد من شاهدوا المباراة، بعد سنين!

ما يقلقني وأنا أقارن المسرح بكرة القدم، فرزهما الاجتماعي، وانشقاقهما الطبقي. يكفي رؤية لاعبي الفريق الفرنسي مثلاً: معظمه من شباب الضواحي ذوي الأصول الأفريقية السوداء أو العربية الفقيرة. ومعظم مشاهدي مباريات الكرة عموماً من الطبقات الاجتماعية الأقل ثراءً. فيما لا ترى في صالات المسرح هذه الشرائح الاجتماعية نفسها، ولا تشاهد فيها اللون الأسود أو الأسمر يرفرف بين ألوان المشاهدين كما يرفرف وسط الملاعب.

الأسوأ والأكثر إيلاماً، عندما ترى مسرحية يُفترض أن تكون بشرة ممثليها بلون أفريقيا السوداء، أو يكون بطلها «عطيلُ» مسرحية شكسبير، ويلعب أدوارهم ممثلون بيض (بحجة ندرة عدد الممثلين السود أو العرب) يَظلون وجوههم أحياناً باللون الأسود أو الأسمر (!)، كما لو كانوا عرباً أو أفارقة، تشعر بأن هناك شيئاً مقلوباً، بل خطأ جذرياً في هذه الحياة!

كلمة أخيرة عن العلاقة بين الفنّين: كرة القدم تخدير آني، ما إن نغادره سالمين (إذا نجونا من عنف وشتم بعض المشجعين الخاسرين، ذوي العصبويات الطائشة)، حتى تعود إلينا الحياة عارية صادمة من جديد، على نحو أكثر قساوة من قبل.

أما تخدير المسرح فمختلف تماماً. تلخصه قصة العبد، في مسرحية بروك: «مؤتمر الطيور» المستوحاة من كتاب «منطق الطير» للصوفي فريد الدين العطار. قضّى العبد ليلته مخدَراً مع أميرة، قبل أن يُرمى عند الفجر في غبار الشارع. بعد أن استيقظ من تخديره، أسرتْهُ الحيرة. قال: «لا أدري ما حدث لي الليلة الماضية، هل كان حلماً أم لا؟ ليس ذلك المهم. الأهم، عشت تجربةً ما. صرتُ أبحث الآن عن شيءٍ ما لا أدري ما هو، وأين هو!».

أفينيون مدينةٌ طوباويّةٌ حقيقية طوال شهر واحدٍ من كل عامٍ على الأقل: لعلّها خلال ذلك الشهر أفضل ما صنعه الإنسان للاقتراب من «المدينة الفاضلة»، يوتوبيا، التي تخيلها أفلاطون، واستلهمها توماس مور في كتاب يحمل الاسم نفسه.

أعترفُ هنا: أعيش كلّ السنة بانتظار مهرجانها المسرحي الشهير الذي ينعقد في يوليو من كل عام (بدأ في عام ١٩٤٧)، ولمدة ٣ أسابيع، والذي يعتبره الجميع أكبر وأهم مهرجانٍ في العالم.

بدأتُ حضورَه السنوي المنتظم قبل عشر سنوات. كانت هناك سنتها ٩٥٠ مسرحية. ١٥٥٠ قبل عامين. ثمّ لم أعد أتابع هذه الأرقام المتصاعدة التي لا تفوقها إلا عدد دبابات جيوش طغاتنا العرب والميليشيات الدينية وهي تحرق الأخضر واليابس في سورية واليمن.

مهرجان أفينيون ليس رقماً وقائمةَ مسرحيات فقط. هو مشروعُ مدينةٍ فاضلة حقّاً، لأنها، مثل يوتوبيا الفيلسوف أفلاطون، مدينةٌ حلم بها شاعر، وحقّقها فنان: انطلق مشروع أفينيون من حلم الشاعر رونيه شار، في عام ١٩٤٥، وحقّق هذا الحلم، بعد عامين من ذلك، ممثلٌ ومخرجٌ مسرحيٌّ استثنائي: جون فيلار، يرتبط اسم المهرجان اليوم باسمه.

لنذكّر: أراد رونيه شار أن لا تُعرض مسرحيتُه «موت في الكاتدرائية» في باريس (كعادة البدء آنذاك بالعرض أمام النخبة الارستقراطية في العاصمة)، لكن في أفينيون بجنوب فرنسا.

أفينيون مدينة تاريخية ساحرة. سُمّيت «مدينة البابوات» لأنها لعبتْ، منذ ١٣٠٩ حتّى ١٤٢٣، دورَ روما الحالي كمركزٍ للمسيحيّة الكاثوليكية، وموقعٍ لِسكنِ بابواتها في «قصر البابوات» المتاخم للكاتدرائية، الذي أضحى اليوم صالة عرض المسرحيات الدوليّة الكبرى.

بعد حلم رونيه شار بسنتين، بدأ «أسبوع الفن في أفينيون» الذي أداره فيلار، وعُرِضت فيه لأوّل مرّة أعمالٌ مسرحيّةٌ جديدة.

أفينيون اليوم مدينةٌ مهرجان، مدينةٌ مسرح، «أجورا» معاصرة، مدينةٌ كاتدرائيةٌ شاسعة: كلُّ الأعمال المسرحية والأدبية الكبرى، وكلُّ الأسماء الأدبية الخالدة والمعاصرة، تتوزّع خلال مهرجانها على مسارح المدينة وقاعاتها ومرافقها وكنائسها، وخلاءات جبالها المتاخمة، وسُفن نهرِها (المهيأة جميعاً للعروض الفنيّة). كلّ ذلك في مدينةٍ تاريخيّةٍ دافئةٍ فاتنة.

تمتلئ طرقاتها ومقاهيها وأركان شوارعها بنشاطات فنية وموسيقية مدهشة (خارج النشاطات الرسمية)، لا تعد ولا تحصى، ولا تتوقف ليل نهار.

يتفجّر الجدل والنقاشات والندوات الفكرية في «ورش الفكر» المفتوحة فيها طوال أيام المهرجان، التي يحضرها كبار الفلاسفة والمفكرين والكتّاب والفنانين. يعبر الممثلون والمخرجون شوارع المدينة، خارج موعد عرضهم اليومي، للّقاء المباشر مع الناس، ولتقديم أعمالهم بأسلوب متميّز جذّاب. نقاشٌ جماعيٌ في كلّ مكان.

الدرس الذي تعطيه أفينيون للعالم، أنه إن لم يكن الفلاسفة والأدباء والفنّانون من يؤسس مداميك مدن المستقبل، ويقودونها هم أنفسهم، وليس رجال المال والسياسة كما هو حال مدن كوكبنا الحزين اليوم وهي تقترب من الانهيار، فلا جديد في الأفق!

يُخيّم على مهرجان عام ٢٠١٥ هاجسُ البحث عن دورٍ جديد للثقافة في عالَمٍ معاصرٍ مضطرب. فبعد الصدمة التي عرفتها فرنسا يوم «شارلي إبدو»، وبعد رؤية بعض شباب فرنسا في صفوف الإرهاب الدولي، أضحت كلمة «الثقافة» تدوّي في المهرجان أكثر من أي وقت مضى.

تطلُّ اليوم هذه الكلمة كنبيٍّ منقذٍ في عالمٍ بلا أفق ولا هدف، أشبهِ «بفندق مفتوح على المجهول»، عجزت فيه السياسة واستقالت. منظومته البيئية على حافة الكارثة، تستنزفهُ المنظومات المالية الأنانية وتنهبه، تدور عجلة الاقتصاد فيه في فراغ، تعبث فيه الهويات القاتلة والمعتقدات الظلامية والحروب الأهلية والدينية، الكلّ فيه يُجرّمُ الكل ويترصّد له كذئب.

ما هي الثقافة أوّلاً؟

بعيداً عن التعريفات الأيديولوجية المتهافتة للثقافة، المرتبطة بالدين أو النازية أو «البناء الفوقي» للمجتمع، أو الشبيهة بمقولة شيلر «الفن موتور الثورة»، يبدو المفهوم الجديد للثقافة في أدبيات هذا المهرجان أبسط وأوسع وأهم وأعمق. ليست الثقافة مجموعة المعارض والمتاحف والأعمال الفنية والأدبية، ولكن أيضاً كل ما يسمح بحياةٍ إنسانيةٍ نوعيةٍ متعاضدةٍ سامية.

يعني ذلك في ما يعني، أن الثقافة وسيلة لإصلاح خرائب الإنسان، لإعادة بناء الاقتصاد، ولاكتشافِ جديد للعالم. بوصلةٌ في زمنٍ بلا إحداثيات، مجهولِ المستقبل. معملٌ لِتأسيس مداميك حياةٍ بشريّةٍ أعدل وأفضل وأنبل.

يعني هذا التعريف أيضاً أن الثقافة ليست «زايد نعمة»، أو بضاعة في

سوق العرض والطلب الثقافي، كما تريده المنظومات المالية التي تعرف كيف تستخدم تأثير التكنولوجيا الحديثة والشبكات الاجتماعية لصناعة الذوق «الماكدونالدي» الثقافي للمستهلك، ولضمان إدمانه البضاعة الثقافية المربحة لها، ولربطه بها كما يرتبط المسافر بقطار سفره.

لكنها، أي الثقافة، نشاطٌ تعليميٌ تربوي (لهذه الكلمة أهميّة جوهريّة هنا) يتكئ على الفن والأدب، يضمن وصول التنوّع الثقافي لكل فرد، ويدعم التجديد والاكتشاف والاختلاف والإبداع الحر.

ويعني هذا التعريف أيضاً أن للثقافة بُعداً إنسانياً عميقاً في الجوهر. هي التي تربط الإنسانية جمعاء في مغامرةٍ مشتركة، تتجه نحو الآخر لتذيب الحدود معه، لتمتزج به. هي التي تصنعُ الإنسان كإنسان. هي باختصار، بحارٌ تتعانق على الدوام. لعلّ لذلك كان شعار مهرجان عام ٢٠١٥: «أنا الآخر»!

ينطوي الشعار على دعوةٍ إلى أن نعيش معاً على البسيطة بتناغم، يكمل كلٌّ منا الآخر، وإلى أن ننشر قيم التبادل والتعاون والمشاركة المجانية. ثقة بعدٌ صوفيٌ حلاجيٌ فيه، يقود إلى التوحّد بالآخر، ورؤية الكون بنظراته.

لا شك في أن السياسات الغربية تمارس سلوكاً استغلالياً امتهانياً معاكساً له، وأن المنظومةَ المالية الدولية ترفضه جينياً، وتقود البشرية بذلك إلى عالمٍ متأزّمٍ موبوء.

«أنا الآخر» جسرٌ حضاريٌ بين عالم الأمس وعالم اليوم. مشروعٌ لتوحيد الأنا بالآخر. ثم هو العكس النموذجي لشعار القبيلة، والنازية العرقية: «أنا وأخي على ابن عمي، وثلاثتنا على الغريب».

خلاصة القول: مشروع أفينيون الشاسع الزاخر، كما يقول كتيّبٌ عنه في متحف «منزل فيلار»، يُجسّد فعلاً الحكمة الأفريقية: «كي يكون ثلم مزرعتك مستقيماً على الدوام، اربط محراثك بالنجوم!».

و«أنا الآخر» شعارٌ ثوريٌ ينطلق من أفينيون لِفضاءات مدن المستقبل. لذلك يبدو الحديث عن يوميات مشروعها المسرحي كما لو كان «ذاكرة المستقبل»، حسب تعبير أراغون.

ولكلّ ذلك أقضي أسابيع أفينيون مسطولاً كما لو كنتُ داخل حلم. حلمٌ ينجب في الحقيقةِ ألفَ حلم. وما إن أحضرُ عملاً مسرحياً عظيماً فيها حتى أجد نفسي في سطلةٍ داخل سطلة. سطلةُ الانتماء إلى «قدّاس جمعي». اتماهى في هذا القدّاس مع الممثلين وأتقمّص أدوارهم، أصير خلاله مؤقتاً «أنا الآخر»، بانتظار أن يصبح هذا الشعار الإنساني العظيم شعاراً يومياً لحضارة المستقبل!

بين شكسبير وعالَمِنا المعاصر علاقةٌ عضويةٌ جذريةٌ مثيرة. لا يوجد شعبٌ لا يحاول «تأميمَ» شكسبير بشكلٍ أو بآخر.

يقول الفرنسيون مثلاً إنهم أقرب إليه من الإنكليز: لا تتوقّف في فرنسا إعادة ترجمة شكسبير وتحليله ودراسته وإخراجه واستلهامه. يكفي، على سبيل المثال، متابعة حضوره الطاغي في مهرجان المسرح في أفينيون طوال تاريخه.

ثمة من يدعي زوراً أن شكسبير يهوديّ. وللعرب محاولة سطوهم أيضاً: «شكسبير عربي اسمه الأصلي: الشيخ زبير، قبل تحريف اسمه من قبل الإنكليز!». لم تُنسب هذه المقولة إلى جُحا (الذي مات قبل ولادة شكسبير)، لكن للقذافي.

بين شكسبير ومهرجان المسرح في أفينيون علاقةٌ استثنائيةٌ حميمة. ذاكرتي الشخصية مع هذا المهرجان تبدأ بهِ تحديداً: نقلنا الباص، في ١٠ يوليو ١٩٧٧، من معهد تدريس اللغة الفرنسية في مدينة فيشي الفرنسية التي وصلتُ إليها حديثاً من عدَن، إلى قصر البابوات في أفينيون على بعد مئات الكيلومترات، لمشاهدة هاملت، من إخراج بينو بيسون! لم استوعب حينها من العرض إلا شذرات، لكنه ترك قنبلة عشقٍ موقوتة، فعلت فيَ فعلها بعد ذلك بسنين.

بدأ أول مهرجانات أفينيون في ١٩٤٧، بمسرحية ريتشارد الثاني، من إخراج فيلار، مؤسس مهرجان أفينيون، الذي أدّى هو نفسه دور ريتشارد.ولم يمر عامٌ واحد دون أن يكون شكسبير في طليعة برنامج المهرجان.

ما زالت في الذاكرة مثلاً مسرحية هنري السادس، من إخراج توماس جولي، عام ٢٠١٤، وقد دام عرضها ١٨ ساعة، قُدّم في خلالها النص الشكسبيري كاملاً: ١٠٠٠٠ بيت شعر، ٢١ ممثلاً، و٣٠٠ دور!

وفي عام ٢٠١٥، رفرف شكسبير في علياء أهم عروض المهرجان بثلاث من أهم مسرحياته: الملك لير، من إخراج الفرنسي أوليفيه بي (رئيس المهرجان) في قصر البابوات؛ ريتشارد الثالث، من إخراج الألماني توماس أوسترماييير (المدير الفني لمسرح برلين) في أوبرا أفينيون؛ أنطوان وكليوباترا، من إخراج البرتغالي تياجو بورتوجيز (المدير الفني الجديد للمسرح الوطني، لشبونة).

إذا كانت المسرحيتان الأولى والثانية واجهتي مهرجان عام ٢٠١٥ بامتياز

(لمقامي مخرجَيهما، وإمكانات فريقيهما)، فالثالثة أدهشتني بشكلٍ خاص، كي أتحدث عنها في فصلٍ لاحق.

السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا هذا اللهث المجنون وراء شكسبير (الذي احتفل العالَم، عام ٢٠١٦، بمرور ٤٠٠ عام على رحيله)؟

سيجيب عن هذا السؤال ثلاثة من كبار المخرجين الدوليين، في إحدى ندوات «ورشة الفكر» الذي تتجذد نشاطاته طوال المهرجان: دانيل ميسجيش، الذي أخرج عشر مسرحيات شكسبيرية؛ أوليفيه بي، رئيس مهرجان أفينيون، الذي أخرج أخيراً مسرحية الملك لير؛ وتوماس أوسترماييير، الذي أخرج خمس مسرحيات شكسبيرية، ما قبل الأخيرة منها هاملت.

أخرج أوسترماييير أيضاً فيلماً بعنوان «هاملت في فلسطين» صُوِّر في فلسطين، عرضه في ١٤ يوليو ٢٠١٣ (يوم الثورة الفرنسية!) في أفينيون، حبك فيه بذكاء تزاوجاً فنياً بين تراجيديا هاملت وتراجيديا الشعب الفلسطيني. (استخدم الفن سلاحاً لِكشفِ حقيقة مقتل صديقه الفلسطيني جوليانو خميس، الذي أرسل إليه دعوة لعرض هاملت في مسرح الحرية بجنين، في فلسطين. لكنه اغتيل قبل أن يلبي أوسترماييير الدعوة. سؤالُ: «من قتل خميس؟» تحوّل في الفيلم إلى سؤال أوسع: «من يقتل الفلسطينين؟»).

ألخّص هنا شذرات من إضاءات هؤلاء المخرجين الكبار لِسرّ ديمومة شكسبير في واجهة المسرح العالمي:

يتفق ثلاثتهم على أن "شكسبير معاصرنا" بامتياز، كما قال عنوان كتاب يان كوت. إذ استوعب شكسبير كل ملامح عالمنا المعاصر، وتنبأ به: الديكتاتوريات، العبث، الاضطراب الجذري الحالي... فضلاً عن أن مواضيع شكسبير الرئيسة: الحب، الموت، السلطة... هي مواضيع الإنسان الرئيسة.

«لا نهاية لعطاء شكسبير»، يقول المخرج المسرحي الكبير بيتر بروك.

يتفق المخرجون الثلاثة على أن فيكتور هوغو ما كان سيوجد ربما دون شكسبير. كذلك غوته، شيلر، وعدد كبير آخر من الأدباء الذين استقوا ينابيعهم من أعماله.

ما يثير أوسترماييير بشكل خاص هو المقارنة بين عصر شكسبير واليوم. كل شخصيات شكسبير مسكونةٌ بتأنيب الضمير في نهاية المسرحية، بسبب الجرائم التي ارتكبتها. في حين أن كل مرتكبي جرائم العقدين الأخيرين من عصرنا: الاغتصابات، الجرائم ضد الإنسانية، الإعدام الإرهابي... فقدوا حاسة تأنيب الضمير (حسب دراسة مثيرة في كتاب

ألماني: «الضحك من الموت»).
استطاع شكسبير بعبقرية ديالكتيكية أن يمزج في أعماله البعدَ الفلسفي المثيرَ للتأمل والبحث والتفسير، بتفاصيل الحياة اليومية الفجّة البسيطة.
كان شكسبير ضمن الأقلية الكاثوليكية المهدّدة في إنكلترا التي اعتنقت حينها البروتستانية، ونشرتها بتعسُّف وضراوة. لعله لذلك أجاد التمويه الذي يسمح بالتكيّف مع الواقع. ولعلّه لذلك أهتمّ بشكلٍ خاص بتقديم وجهين لشخوصه: القناع الخارجي والذات العارية. أو: ما يقوله المرء للآخر، وما يكمن في كينونته الحقيقية (أنموذج ريتشارد الثالث صارخٌ بهذا الصدد).
العلاقة الجدلية بين الظاهر والباطن بُعدٌ جوهريٌ في أعمال شكسبير. ألم تبدأ مسرحية هاملت بهذا السؤال المركزي: «من هنا؟» الذي تنبغي قراءته بشكلٍ أعمق.
لِذلك، يسمح المسرح للإنسان باستيعاب العالم، وهو يكشف الأقنعة ويجيب بعمق عن الأسئلة الوجودية.
تمرّدَ شكسبير على النوع الأدبي السائد في زمنه وثار عليه. إذ تجاوز تيار النوع المسرحي: «التراجيديات الانتقامية» الذي كان شعبياً محبوباً حينها. ففي صيغته المعروفة لمسرحية هاملت (التي كُتِبت صيغتُها الأولى عام ١٠٦٦ في الدانمارك)، يخلق شكسبير بطله هاملت بشكلٍ مدهشٍ معاكسٍ للمزاج السائد: إنسانٌ وديعٌ ونبيل، يرفض العنف والانتقام من عفهِ قاتلِ أبيه وناهبِ عرشه، يتردّد، يتساءل...
يقول مخرجُ مسرحي لشكسبير: شِعرُ شكسبير إمبراطوريٌ بامتياز. يفضّلُ سماعُه في الظلام. لا يحتاج الإنسان لغير ذلك مع نصوص شكسبير، كما لو كانت نذيراً بنهاية الإخراج المسرحي! وضَعَ دانييل مسجيش شكسبير في قلب المرحلة الحديثة للفكر الإنساني، واعتبره منتهاها وذروتها حتى اليوم.
يقول: طوّر شكسبير اللغة الإنكليزية بإضافة أربعة آلاف كلمة لها. لكنه طوّر في الأساس المسرح بلغةٍ مفتوحة يملأها المشاهدُ بطريقته. فإذا ما أخذنا بعض عباراته مثل «أن تكون أو لا تكون...» فهي تافهةٌ فارغةٌ بحدّ ذاتها، لكنها ترمي القارئ في معمعان التفكير، والبحث عن التفسير. تمدّه غالباً بمفاتيح وتساؤلات وجودية تحثه على التأمل، تضيء له نقطةً غامضةً يراها في الظلمات، تسمح له باكتشاف الذات.
حول ذلك، ذكّر أوليفيه بي بعبارة لِشكسبير مفادها: المسرح لا شيء، كرقم صفر، لكنه يتحوّل إلى ذي قيمة عند وضع الواحد على يساره.

والواحد هنا، كما يقول شكسبير: خيالُ المشاهد، وحضورُه في الصالة.
لذلك، سيظل شكسبير حاضراً بيننا إلى الأبد!

فن الممكن، عشق الممكن!

لن يختلف معي أحد إن قلت إن مهرجان أفينيون بجنوب فرنسا، الذي احتفل بعامه السبعين في ٢٠١٦، أهم حدث ثقافي سنوي في العالم قاطبة. ليس بسبب عرض أكثر من ألف وخمسمئة مسرحية فيه خلال ثلاثة أسابيع فقط، ولا بسبب حضور أكبر المبدعين والمخرجين والممثلين والفرق الدولية المسرحية خلاله، ولكن أيضاً بسبب «ورش الفكر» المفتوحة طوال أسابيعه الثلاثة في شهر يوليو، للنقاش والمحاضرات والجدل في أهم ما يمس الثقافة والفكر والإنسان والحياة.

تتحول حينها «مدينة البابوات»، أفينيون، إلى ساحة للتفكير والتأمل والنقد والأمل. إلى «أجورا» بحجم مدينة، مدينة طوباوية من لحم ودم!

المهرجان صورة مصغرة حقيقية للعالم. ولأن لكل مهرجان سنوي محوره الخاص، المرتبط بقضايا الإنسان الكبرى المعاصرة، والتي تنقض عليه أهم الأعمال المسرحية والندوات في ذلك العام، فلقد اختار المهرجان له كمحور: المسرح والسياسة.

السبب: في عام ٢٠١٦، تقف السياسة مكتوفة الأيدي لا تفتح أفقاً أو تحمل بصيص أمل، تضمحل الثورات وتتعثر، يصمد الطغاة وتزداد شراستهم، يخيم الخوف واليأس في كل مكان، ينتشر العنف والهمجية، تتقوقع المجاميع البشرية في قطبي «نحن» و«هم».

ليس هدف محورعام ٢٠١٦ الدعوة إلى إضراب بعض الممثلين عن الطعام تعاطفاً مع هذه القضية السياسية أو تلك، كما حدث في الماضي، وليس الهدف رثاء اليأس الكوني من القيادات السياسية وحالة الفوضى والانحطاط في العالم، أو الجدل النخبوي كذلك الذي حصل بين مؤسس المهرجان فيلار وسارتر حول «مسرح شعبي» أو «مسرح بروليتاري»، ولكن مواجهة السياسة والإمساك بكبدها بمخالب عدسات الإبداع والكشف، ومخاطبة الحاضر بانقضاض أعين الفن والثقافة عليه، والتعبير الفني عن الجدل والهموم الشعبية، ومقاومة كل ما يفرق بين الناس، وخلق أمل سياسي في حياة أخرى للبشرية.

أو بكلمتين: صناعة الممكن.

«فمستقبل السياسة سيكون ثقافياً، أو لن يكون»، كما تقول افتتاحية برنامج المهرجان لهذا العام الذي اختار عنواناً لمحوره هاتين الكلمتين:

عشق الممكن.

فالمسرح بمستوى المهمة، لأنه نافذة الروح المركزية: أرض مشتركة للتأمل والتفكير والأمل والمقاومة، لحظة «صلاة جماعية» للناس يتبؤر فيها تركيزهم الكلي حول نفس التساؤلات، ينظرون ويفكرون معاً في الاتجاه نفسه.

المسرح علاقة مباشرة بين الناس، لا تتخللها خوارزميات تكنولوجية توجه الرأي العام، كما هو الحال في ثقافة العصر الرقمي وشبكاته الاجتماعية. من، في الحقيقة، أكثر من المسرح مقدرة على تحقيق مشروع «عشق الممكن» وصناعته في الوجدان والروح، قبل الواقع؟

بيد أن حضور الإنسان في المسرح ما زال نخبوياً بشكل عام، رغم محاولات نقله إلى الشارع والسجون، ورغم العديد من المسرحيات المتجوّلة التي تحاول رفع الوعي الفني والثقافي في الضواحي المملوءة بالمهاجرين، ورغم استيعاب المسؤلين الثقافيين وبعض البرامج الثقافية ضرورة أن يتغلغل المسرح أولاً في المدرسة، وأن يدعى الأطفال إلى المسارح والأوبرات، لأن عشق المسرح يلزم إذكاؤه من فجر الطفولة.

«لماذا العرب الذين نتحدث عنهم ليسوا معنا في الندوة؟»، سأل أحد المجادلين في ندوة حول محور المهرجان، ملاحظاً، مثل غيره، غياب الطبقات الشعبية عن ورش الفكر وعن المسرح عموماً، وقلّة الممثلين العرب والسود، وضعف تنوع الحضور.

«نصوص جميلة تحت سماء مفتوحة، ولكن بين أناس لهم نفس الرؤية»، قال وهو يتحدث عن مسرحيات ويوميات المهرجان.

السؤال المطروح والملحّ إذن: كيف الخروج من مأزق سجن النخبة الثقافية التي ترتاد وحدها المسرح؟

قطعاً، الإجابة عن ذلك، وتحقيق مشروع أفينيون الثقافي الكبير، وصناعة الطوباويات عموماً، لا تكون بيوم وليلة، بل تحتاج لزمن بطيء وطويل، زمن الثقافة.

بانتظار ذلك، يكتفي الكثيرون بتهنئة الذات، على نحو لا يخلو من الحسرات: «لولا هذا المهرجان السنوي، لكانت مدينة أفينيون تابعة لليمين المتطرف!».

حسناً، حسناً... لنتحدث قليلاً عن بعض أبرز الأعمال الكبرى والجديدة التي تقع في عمق محور مهرجان عام ٢٠١٦.

لعل فنار الإنتاجات الجديدة التي خُص بها المهرجان هذا العام يكثّف محور المهرجان أفضل تكثيف: «الملاعين»، من إخراج إيفوفان هوف،

المدير الفني لفريق مسرحي هولندي يُعتبر إحدى أكثر الفرق الدولية المهمة تجديداً وإبداعاً اليوم؛ وبأداء تمثيل الفرقة الرسمية الدائمة للكوميديا الفرنسية، ذات المبنى الباريسي الشهير الذي يفاجئ الزائرَ في مدخله «مقعدُ موليير» الذي توفّي عليه أثناء عرض مسرحيته «المريض التخييلي»، قبل ثلاثة قرون ونصف!

هكذا، بعد غياب دام ثلاث وعشرين سنة، عادت الكوميديا الفرنسية إلى المهرجان بهذا العمل الجدير بمقامها.

استلهم إيفوفان هوف مسرحيته الجديدة من نص سيناريو الفيلم الشهير لفيسكونتي: «الملاعين»، وليس من الفيلم ذاته.

تتمحور المسرحية حول علاقة الرأسمالية وقوى المال بالنازية، من خلال يوميات عائلة ملاك كبار مصانع المعادن، إيسينبيك، وهي تواكب صعود النازية وتتحالف معها للحفاظ على ممتلكاتها.

تبدأ المسرحية باغتيال العائلة لبطريركها، جواكيم، في يوم عيد ميلاده. كان هذا الجد المؤسس يبغض هذا التحالف مع النازية الصاعدة، لكنه موافق عليه بسبب المصلحة.

تتوالى الدسائس والخيانات والمؤامرات الماكبيثية بين رؤوس العائلة من أجل الوصول إلى رئاسة مجلس إدارة ممتلكاتها، عبر التأقلم والتناغم مع السياق السياسي والجهاز الأمني للنازية.

كل إشكاليات بروز منابع الشر في الطبيعة الإنسانية، ونمو التطرف السياسي والتجذر الراديكالي الأيديولوجي، والتحالف الانتهازي المصلحي مع قوة السلطة السياسة، والضعف الإنساني المسلوب الجبان الذي يطأطئ الرأس ويغلق الأعين وهو يدرك ويرى علامات الخراب القادم... تتجلّى جميعها في هذه المسرحية التي لا يخرج مشاهدها معافىً تماماً من فرط الاحتفال فيها بالشر المطلق.

الإخراج الفني للمسرحية يوظّف أحدث التكنولوجيات بعبقريةٍ اشتهر بها إيفوفان هوف.

تنتصب داخل المسرحية كاميرات متحركة، تنقل إلى شاشة ضخمة في خلفية المسرح جوانب مجسمة فاضحة مما يدور داخل المسرحية، وفي أطرافها وفي كواليسها، كما تنقل إلى الشاشة أيضاً صور مُشاهدي المسرحية في استلابهم وصمتهم هم أيضاً وهم يرون تعاقب الجرائم أمام أعينهم!

يندمج كل ذلك في الشاشة مع صور سينمائية قديمة، مع صور من الواقع المعاصر، ومن سياق المسرح...

يعيش المشاهد خلال سيل هذه التداخلات الحافلة، في عدة أبعاد في الوقت نفسه، وهو ينظر ماكروسكوبياً إلى المسرحية، وميكروسكوبياً إلى الشاشة الضخمة التي تغطي خلفيتها.

مثال آخر بين أمثلة عديدة: جوسانس، (أحد عشاق الروائي ميشيل هولبيك، الذي أخرج أخيراً فيلماً من روايته «الجسيمات الأولية»، مثّل فيه الروائي الشهير نفسه) يُمسرِح، في عرض مثير يدوم عشر ساعات، رواية روبيرتو بولانو: «٢٦٦٦» الضخمة التي تحكي، في أكثر من ألف صفحة، يوميات قارة أوروبا العجوز وأميركا الفاسدة خلال القرن العشرين.

عنوانها الذي يحمل «رقم الشيطان: ٦٦» ينذر بألفية ثالثة تسقط فيها الحضارة الإنسانية بالضربة القاضية!

مثال آخر: «التائهون لا يضلون» مسرحية من إخراج الشابة مائل بويسي. تنطلق من فرضية صادمة: ٨٠٪ من السكان يدلون في الانتخابات بورقة تصويت بيضاء، أي يذهبون للانتخاب، لكن لا يختارون مرشحاً واحداً.هكذا، يعبّر الشعب عن استحالة التعبير، وهو يختار عدم الاختيار! مأزق. رعب. الحكومة في قلق مريع: مؤامرة؟ ماذا يعني التصويت الأبيض؟ ما العمل؟

الحضور العربي مرموق في مهرجان عام ٢٠١٦. فإذا كان معيار الديكتاتورية السياسية في هذا البلد أو ذاك: حقوق المرأة فيه وحريتها بإدارة جسدها، فالعرض اللبناني «فاطمة»، لعلي شحرور، يقع أيضاً في قلب محور المهرجان.

فبين شجرتي جميز (Platane) ضخمتين رائعتين في وسط دِير سيلستين، ترقص شابتان لبنانيتان باللباس الأسود الذي تتحوّل هيئاته من لباس جنائزي يواكب رقص الموت وما يشبه الزار واللطم الشيعي على الجسد، إلى لبس غرامي أخّاذ مثير، إلى نقاب مغلق مخيف... لترسما هكذا، بالرقص على مقتطفات من أغنيات أم كلثوم وخرير أمواج وموسيقى شعبية عربية، كل حالات الجسد الأنثوي العربي وتحولاته، بين القهر والحرمان والأشواق المرتجفة على أصداء «وحنيني لك يكوي أضلعي، والثواني جمرات في دمي».

المحور الثاني: كوكبنا الأزرق اليوم

الغباء أخطر من القرصنة

بعيداً عن كل تشاؤم غير موضوعي، ثمّة احتمالٌ جادٌّ جدّاً بأن نهاية الحضارة البشرية على الأرض لن تنتظر موعدَ الاصطدام الجبهوي بين مجرّتنا، درب اللبّانة، وجارتها أندروميد، الذي يتوقّعه العِلم بعد نحو أربعة مليارات عام (أرتجف من الآن وأنا أتخيّل ذلك!).

لعل الموعد الحاسم أقرب من ذلك بكثير، إذ بدأت الهرولةُ نحو الهاوية خطاها العملاقة، منذ سبعينيات القرن المنصرم، ولم يكن من باب العبث أو التحذير التربوي قولُ السكرتير العام للأمم المتحدّة بان كي موون في جنيف، في سبتمبر ٢٠٠٩: «أقدامُنا ضاغطة على دوّاسة السيارة، نهرعُ نحو التهلكة».

فمجمل النشاطات البشرية من صناعات تَستخدمُ بإفراط طاقة الاحتراق (بترول، غاز...)، ومن معمارٍ عشوائيٍّ كثيف تُقتطَع مساحاتُه الأرضيّة من رئةِ كوكبنا ومنبعِ أوكسجينه: الغابات، ومن وسائل مواصلاتٍ تُسرف في تلطيخ الفضاء بمخلّفات نتنة... مجملُ هذه النشاطات تملأ الفضاء بغازات قذرة (مثل ثاني أوكسيد الكربون والميثان) تتجاوز المعدلات المعقولة، وتُغيّرُ خريطة المنظومة البيئية لِكوكبنا بنحو جذريٍّ تراجيدي: تتراكم هذه الغازات (التي تُسمّى غازات الاحتباس الحراري) في الغلاف الجوّي لِتُشكّلَ، بالنسبة إلى البحار واليابسة، ما يُشبِه غطاءً سقفياً زجاجيّاً يُغطّي غرفةً مفتوحةً بلا سقف، فيحبس أشعّتها ويرفع حرارتها.

ولأن المنظومة البيئية أشبه بجسدٍ واحد، إذا أصيب أحد أعضائه بالخلل تداعى له سائر الجسد بالتدهور والانهيار، فالنتيجة اليوم: ذوبان متسارع للجليد في المحيطات القطبية وأعالي الجبال (تكفي رؤية الصور التراجيدية لِماضي تلك المناطق الثلجيّة وحاضرها)، ارتفاع مستويات المحيطات والبحار، تواتر جنوني للفيضانات والعواصف العنيفة في السنوات الأخيرة، زيادة عدد الحيوانات والنباتات المهددة بالانقراض الكلّي من الأرض.

في شهر مايو ٢٠١٣، دخل الاختلال البيئي، الذي يهدد كوكبنا بالفناء، مرحلةً جديدة طَمست بصيصَ أي أمل، إذ تجاوزَ معدّلُ انتشار ثاني أوكسيد الكربون في الجو ٤٠٠ ب.ب.م (أي ٤٠٠ جزء في المليون) في النصف الشمالي من الأرض، لِيلحقَه النصف الجنوبي قريباً جدّاً. كي يستمرّ

الاستقرارُ البيئي لِكوكبنا، يلزمُ، كما يؤكد العلماء، أن لا يتجاوز معدل انتشار ثاني أوكسيد الكربون في الجو ٣٥٠ ب.ب.م.

المرعب أنه جرى تجاوز هذا الحدّ في عام ١٩٩٠. المؤلم جداً: أن العلماء كانوا قد تنبأوا في عام ١٩٧٠ بواقعنا الحالي، بفضل نمذجةٍ رياضيةٍ ومحاكاةٍ حاسوبية. نبّهوا حينها إلى أن الأرض ستصل إلى معدل ٤٠٠ ب.ب.م في عام ٢٠١٠.

لم يخطئ تنبؤهم كثيراً.

ثم ها هو تنبؤٌ جديدٌ مرعبٌ جداً، بنفس الأدوات العلمية الدقيقة، لباحثين إنكليز، نُشِر في مجلّة علميّة مهمة، في ١٣ مايو ٢٠١٣، يؤكد أنه إذا استمرّ الإنسان بتلويث الجو بطريقته الحالية، فسيرتفع معدل درجة حرارة الأرض ٤ درجات، لِتنقرض نصف أنواع النباتات وثلث أنواع الحيوانات من وجه البسيطة من الآن حتى عام ٢٠٨٠!

نتائج ذلك ستكون وخيمة جداً لأن المنظومة البيئية جسدٌ واحد، إذ إنّ بعض الكائنات التي ستنقرض ضروريّةٌ لغذاء الإنسان بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، ولِتنظيف الماء والهواء. دون الحديث عن الخراب الذي سيقود إليه ذوبانُ كميّات هائلة من الجليد وازديادُ عددِ وهَوْلِ الفيضانات والتسوناميات جزاء الاحتباس الحراري واستمرار ارتفاع حرارة الأرض.

يصعب في الحقيقة تخيّل حجم هذه النتائج الكارثية على منظومة الحياة في كوكبٍ صار الإنسان قادراً، لأوّل مرّة منذ فجر التاريخ، على تدميره.

لعلّ سلوك هذا الإنسان (الذي يصمّ آذانه عند سماع تحذيرات العلماء وإنذاراتهم، وحلولهم البديلة كـ«الاقتصاد الأخضر») مثالٌ ساطع على «الغباء البشري» الذي درسه البروفيسور سيبولا في كتيّبٍ قيّم: «القوانين الجوهرية للغباء البشري».

يلاحظ سيبولا في بدء كتابه أن الإنسان حيوان اجتماعي، يعيش متفاعلاً مع الآخرين في شبكة علاقات دائمة، يُؤثر فيهم ويتأثر بهم. يُؤدّي ذلك إلى منافع أو خسائر اقتصادية أو نفسية، إلى كسبٍ أو ضياعٍ للطاقة أو الوقت. يضع سيبولا الإنسان في أحد أربع شرائح: غافل أو قرصان أو ذكي أو غبي.

إذا قاد تأثيرك في الآخر إلى منفعتهِ (أو منفعة مجموعةٍ بشريّة تتضمّنه) وإلى خسارتِك في نفس الوقت، فأنت غافل. إذا قاد إلى منفعتك وخسارتهم فأنت قرصان. إذا قاد إلى منفعتكم معاً فأنت ذكي. وإذا قاد إلى خسارتكم معاً فأنت غبي.

لعل أرباب البنوك ونافذي أسواق المال الذين برمجوا وخلقوا أزمة ٢٠٠٧

المالية (التي اندلعت من أمريكا وتفشّت بسبب العولمة في أرجاء الكون بلمحة بصر) أفضل مثلٍ على القراصنة: خنقت هذه الأزمة أو هدّمت حياة مئات ملايين البسطاء، فيما خرج صانعوها بأرباح تُقدّر بمئات المليارات من الدولارات.

ولعلّ أفضل مثلٍ على الأغبياء: من يُسهمون باستمرار التدهور البيئي وزيادة سخونة الأرض - رغم درايتهم بتحذير العلماء - من بشرٍ وحكوماتٍ لا تتخذ إجراءات جادّة تحُدُّ من التدهور البيئي، ومن انتهاك حرمة الطبيعة، ومن بيع استقرار منظومتها البيئية في سوق الخردة.

صدق سيبولا إذ قال إن نسبة الأغبياء في الأرض كبيرة جداً، أكبر مما نتصوّر، كما ينص قانونه الأول: كم مئا، في الواقع، من غيّر سلوكه البيئي وقلّل من إفرازاته الشخصية اليومية لثاني أوكسيد الكربون، منذ أن سمع تحذيرات العلماء؟

للغباء البشري جذورٌ جينيّه، كما ينصّ القانون الثاني لسيبولا. لا يختلف سيبولا بذلك عن رؤية ابن إسحاق الذي اعتبر الغباء غريزة بشرية عندما قال: «إذا بلغك أن أحمق استفاد عقلاً فلا تُصدّق».

لعل أهمّ قوانين سيبولا هو القانونُ الخامس الذي ينصُّ على أن الغبي أخطر الشرائح الأربعة، أخطر من القرصان، فخطر القرصان يمكن محاصرته، هو كبحُ جَشعِ قراصنة المال وتنظيم عملهم ليس عصيّاً على إرادة الإنسان. الديون المالية قابلة للتأجيل والتفاوض أو الإلغاء أحياناً.

عبارة «طمأنة الأسواق المالية»، التي صارت الحكومات ترددها بهلعٍ ديني كما لو كانت أمام إلهٍ وثنيٍ تريد طمأنته بالقرابين والتضحيات، يمكن استبدالها بـ«تنظيم وتقويم الأسواق المالية» عبر قوانين دولية إنسانية عادلة.

بيد أن الطبيعة مارِدٌ يلفظ حمماً وفيضانات وبراكين وتسونامیات يمكنها أن تطمّ الكوكب. ديونها لا تقبل التأجيل أو الإلغاء أو المفاوضة. احترامها وطمأنتها والخضوع لنواميسها شرطٌ جوهريٌ لبقاء حضارة الإنسان على الأرض.

من سيصطادُ السمكةَ الأخيرة؟

أتذكر صباح يوم أحد، قبل ثلاثة عقود، ذهبتُ فيه مشياً في طريق قرويٍّ فرنسي طويل للبحث عن الخبز. كانت تغطيني، كنبيٍّ أسطوري، مظلةٌ من الفراشات، تعلوها سحب من العصافير المتنوِّعة. عدتُ بعد سنين مراراً لنفس القرية لينكرّر ذلك المشهد السوريالي الساحر. عبثاً. لم تعلُني آخر مرة غير طائرةٍ بلا طيّار ترفع خرقةً دعائية لمشروب «ريكار»!

عادت إليّ هذه الذكريات وأنا أقرأ مقالاً علمياً نُشِر في ١٩ يونيو ٢٠١٥، في مجلة «Science Advances»، لباحثين أميركيين من جامعات ستانفورد وبيركلي وبرينستون: دخلت البشرية عصر «الانطفاء السادس»!

لنتذكّر: عرف كوكبنا، منذ نشوئه قبل نحو ٤.٥ مليارات عام، خمسة انطفاءاتٍ طآماتٍ كبرى، كان آخرها الانطفاء الشهير الذي حصل قبل ٦٥ مليون عام، جزاء سقوط كويكب هائل في خليج المكسيك ارتفعت بعده حرارة الأرض، ما أدى إلى انقراض ٧٥٪ من الكائنات الحية، أشهرها الديناصورات.

من المعروف مثلاً، أن صيّاد اليوم، بكلّ أدوات صيده البحرية الحديثة، يعود من البحر بـ ٦٪ مما كان يعود به أسلافُه قبل عقود فقط، بسفنهم الشراعية وشبكاتهم البدائية! السبب أن بحارنا ومحيطاتنا تخلو رويداً رويداً من السمك والكائنات الحية. وقريباً سنتركُ لأحفادنا، في منتصف هذا القرن ربما، بحاراً بلا أسماك، ومسابقةً تلفزيونية دولية لاختيار من سيصطاد السمكة الأخيرة في كوكب الأرض!

لم يعد هناك من يشك اليوم في أن ٩٠٪ من الأسماك الكبرى قد انقرضت أخيراً من البحار والمحيطات، نصف الحيوانات الضارية اختفت من الأرض في العقود الأربعة الأخيرة، ونصف مليار عصفورٍ أوروبيٍّ أيضاً في الثلاثة عقود الأخيرة.

وفي فصل لاحق هنا بعنوان «العسل، ونبوءة آينشتاين»، اتحدّث عن اختفاء ٤٢٪ من نحل أميركا عام ٢٠١٥ ، وعن برامج إنقاذ وطنية عاجلة كبرى فيها، وفي فرنسا، لمجابهة هذه الكارثة.

ينطلق مقال الباحثين الأميركيين من دراسةٍ مفصّلة لانقراض الفقريات (كالضفادع والزواحف والنمور) قبل بدء النشاط الصناعي للإنسان الحديث، وبعده، في ضوء حفريات كثيرة ومجموع قواعد بيانات كافية.

إذا كان انقراضُ بعض الأنواع البيولوجية وولادة أخرى ظاهرةً أزليّة، شرحَ داروين، مؤسسُ البيولوجيا الحديثة، قوانين آليتها في كتابه الشهير «أصل الأنواع» (كان الإنسان يظنّ قبله أن الأنواع البيولوجية مخلوقة منذ الأزل، بشكلٍ ثابت لا يتغيّر)، فنسبةُ الانقراضِ ارتفعت اليوم بنحو كارثي، إذ زادت في الأنواع البيولوجية، التي درسها المقال، ١١٤ مرّة خلال القرن الماضي، بالمقارنة بقرون ما قبل الصناعة الحديثة!

التنوّعُ البيولوجي لِكوكبنا يتقلّص هكذا وينحسرُ رويداً رويداً أمام أعيننا. ما يزيد الطين بلّة أن النوع البيولوجي لا ينقرض وحيداً: تغادر وإيّاهُ جوقةٌ من الأنواع البيولوجية التي تتفاعل معه وتحيا بقربه. لأن المنظومة البيئية مثل الجسد، إذا تألّم عضوٌ فيه أصيب بقية الجسد بالسهر والحمّى. إذ تنقرض الأنواع المفترسة بانقراض فرائسها، والفرائس بانقراض نباتاتها وأغذيتها... يؤدّي ذلك إلى كوارث تطمّ الأرض والمناخ والرطوبة والمنظومة البيولوجية برمّتها. ألم تقل ما سُمّيت بنبوءة آينشتاين: «إذا اختفت النحل من سطح الأرض، فلن تعيش الإنسانية أكثر من ٤ سنين بعد ذلك: لا نحل، لا تلقيح، لا نبات، لا حيوانات، لا إنسان...»؟

لِتضاؤلِ منسوب الثراء البيولوجي أسباب كثيرة، أهمّها: تعاظم النشاطات الإنسانية (صناعة، مواصلات...) التي تستخدم الطاقة الأحفورية (بترول، غاز...) دون احترام إيقاع البيئة، متجاوزةً حدود استخدام الموارد البيولوجية. تهجم هكذا على الموارد بلا رادع، تستثمرها وتستغلّها وتنهبها بأنانيةٍ فاحشة، أو تعتدي عليها بجنون: ملايينُ الهكتارات من الغابات تُقتلَع سنوياً، بقاعٌ لا متناهية تفقدُ هويّتها البيولوجية الأصليّة وتتحوّل إلى أراضٍ زراعية تلبّي حاجات النمو السكاني الأسيّ للجنس البشري في هذا الزمن الصناعي المجنون...

تتفاقم الكارثةُ أيضاً بسبب التلوّث الناجم عن النشاطات الإنسانية المختلفة: تعود إلى الذاكرة سريعاً، كمثل، سلسلةٌ مما يُسمّى «المدّ الأسود»، خلال العقود الأخيرة: غرق حاملات البترول العملاقة في البحار. آخرها في أبريل ٢٠١٥ في خليج المكسيك. (تطالب أميركا بعدّة مليارات دولار، من شركة B.P، تعويضاً لخسائرها الطبيعية الفادحة).

المبيدات الكيماوية، والأنواع البيولوجية الغازِيَة التي تصل إلى البيئات من خارجها وتُطيحها، سببٌ مهم أيضاً لانحسار التنوّع البيولوجي. ساعد على مضاعفة فتكهِ اتّساعُ التجارة الدولية وتطوّر المواصلات الحديثة.

غير أن السبب الجذري لتقلّص التنوّع البيولوجي اليوم هو التغيّر المناخي الذي تعرفه الأرض بسببِ تغلُّفِها بغازات الاحتباس الحراري، كثاني أوكسيد

الكربون، الناجمة عن مخلفات الطاقة الأحفورية. يُمثّلُ هذا السبب بحدّ ذاته كارثةً (بل أمّ الكوارث) ستؤدي بمفردها دون شك إلى انهيار الحضارة الإنسانية!

التقرير الخامس لـ GIEC (مجموعة الخبراء الدوليين المختصين بتطوّر المناخ، التابعة للأمم المتحدّة) لم يترك مجالاً للجدل: سببُ ارتفاع درجة حرارة الأرض خلال القرن الماضي بنسبة ٠.٨٥ °C (ستصل إلى ٢ °C في ٢٠٥٠): غازاتُ الاحتباس الحراري.

نتائج ذلك من الآن انهياريةٌ مروّعة: انقراض أنواعٍ بيولوجية، موجات سخونة تطيح عشرات الآلاف من البشر سنويّاً في هذا البلد أو ذاك وتسبّب خسارات زراعية هائلة، جفاف وانعدام مياه الشرب، انتشار الأمراض المُعدية، ذوبان الجليد القطبي، سلسلات فيضانات وتسونامي ستمحو جزراً وأراضي من سطح المعمورة...

مجاعاتٌ وهجراتٌ وحروبٌ ستنجم عن ذلك بالضرورة: بدأت الهند على سبيل المثال ببناء جدارٍ حاجز طوله بضعة آلاف كيلومترات، يفصلها عن بنغلادش، بسبب توقّعها هجرة ٦٠ مليوناً من سكّان بنغلادش إليها، بعد اختفاء أراضيهم بسبب النتائج المستقبلية للتغيّر الحراري...

أما على المدى البعيد، فالفناء القادم لا يُبقي ولا يذر: إذا ما وصلت نسبة ثاني أوكسيد الكربون في الجو إلى ٥٠٠ جزء من المليون (هي حالياً ٤٠٠)، فسيتحوّل سطح البسيطة إلى صحراء وأدغال، ولن يعيش عليها إلا بضعة ملايين من البشر فقط، في بعض مناطق القطب الشمالي!

ما أحوج حضارتنا الإنسانية اليوم إلى سفينة نوحٍ جديدة، لا تنقل زوجاً من كل نوعٍ بيولوجي مثل سفينة الأسطورة التوراتية (ثمّة عشرات ملايين الأنواع البيولوجية على الأرض!)، بل تحمي ما يمكن حمايته من عواقب الانهيار البيئي الذي تأخر الإنسانُ كثيراً عن عملِ ما يلزم لتلافيهِ، رغم إدراك العلم لِذلك في السبعينيات من القرن الماضي، ورغم أخذ المخاطر منذ التسعينيات مناحي جارفة لم يعد بالإمكان مقاومتها.

سفينة نوحِ الجديدة: استبدالُ الطاقة الأحفورية بالطاقات المتجددة، التقشف المخطّط له في استخدام الموارد الطبيعية، تحديد النسل البشري، إعادة تدوير المخلفات الصناعية، التزام تعليمات التكيّف مع تدهور البيئة بمسؤوليةٍ مجتمعيةٍ ودولية...

ما أعجل الحاجة لها، لأن كوكبنا مريضٌ بداءٍ لا شفاء منه!

العسل، ونبوءة آينشتاين

في ١٣ مايو ٢٠١٥، كشفت جامعة ماريلاند الأميركية في تقرير سنوي أرقاماً مخيفة عن مصيبةٍ كبرى: انقراض ٤٢٪ من مستعمرات النحل في أميركا، خلال عام ٢٠١٤. أعلن أوباما بعد ستة أيام خطةً وطنيّة لتلافي ذلك. لحقتهُ فرنسا بإجراءات شبيهة...

احتمال انقراض النحل من المعمورة خبرٌ جدّ مريع، أشبه بـ «علامات الساعة». إذ يعيد إلى الذهن نبوءةَ آينشتاين الشهيرة: «إذا اختفى النحل من سطح الأرض، فلن تعيش الإنسانية أكثر من ٤ سنين بعد ذلك: لا نحل، لا تلقيح، لا نبات، لا حيوانات، لا إنسان...».

تحمل هذه العبارة قدراً كثيفاً من الاستشراف الموضوعي، وإن برهنَ باحثٌ في مجلة Gelf Magazine، درسَ كل أرشيف آينشتاين، أنها قيلت لأوّل مرّة في عام ١٩٩٤!

مريعٌ بشكلٍ خاص خبر انقراض النحل لمن اكتشف (ذات يوم، في رحلةٍ قديمةٍ إلى وادي دَوْعَن بحضرموت، قبل عقدين) «العسلَ الدَوْعَني» الحقيقي الشهير الذي ينتِجه نحلٌ من سدرٍ لا تشوبه شائبة، في بيئةٍ طبيعية فريدة، قبل أن يدمن مذاك بِهَوَس تناول هذا العسل الإلهي (وإن كان لسوءِ الحظّ باهظ السعر، شأنه شأن بيض الكافيار، وكبدُ البطّ المسمّن: ثالوث الذواقة الأرستوقراطية العالمي في فن المائدة!).

مريعٌ انقراض النحل لمن دخل معها بعلاقةٍ صوفيّة، متعدّدة الأبعاد والجوانب: عندما يتابع صاحبنا هذه النشاطات العلمية في مجالات «الذكاء الجمعي»، في أبحاث علوم الكمبيوتر، التي تحاول محاكاة النحل في تكوين شبكات من كينونات برمجيّة (Agent)، كلّ فردٍ منها دون ذكاءٍ يستحق الذكر، لكنها معاً تشكّلُ منظومات معقّدة، شديدة الذكاء جبّارة القدرات. إذ للنحلة دماغٌ حجمه مليمتر مكعب، لا يمتلك أكثر من مليون عصبون. لكن مجموع النحل في الخلية (٥٠٠٠٠) تشتغل بدماغٍ ألمَعِيّ، كل نحلةٍ عصبونٌ من شبكة عصبوناته. يُمَكّن العملُ والتفاعلُ المشترك ذلك الدماغَ الجمعي من امتلاك مقدرات فريدة: تآزر، تكيّف، اتصال، تعلّم، استيعاب للبيئة المحيطة... يصعب سبرها في مقال.

فقد برهن مثلاً عالم الرياضيات كوينج، في ورقة علميّة سمحت له بدخول الأكاديمية الفرنسية في عام ١٧٤٠، أن مورفولوجيا طبقات الشمع الذي

يشيّده النحل، والأشكال السداسية لتجويفات خلاياها، تسمح بإيجاد الحل الرياضي الأمثل لهذه الإشكالية: كيف يمكن استخدام أقل كميّةٍ محدّدة من الشمع لبناء أكبر عدد من الخلايا المتشابهة والمتماثلة، في أصغر مساحة داخل الخليّة؟

شرح داروين في كتابه الشهير كيف أثّر «مبدأ التطوّر والانتقاء» في الوصول إلى كل ذلك الإبداع العبقري. مربعُ انقراض النحل لصاحبنا هذا الذي يدهشه الشكل الجديد لاقتصاد اليوم المستلهِم من حياة النحل: «الاقتصاد التلقيحي»، وتداعياته على الحضارة الإنسانية.

فهذا النموذج الجديد الذي بدأ يكتسح الاقتصاد المعاصر مبنيٌ على أن أهمية النحل تكمن في التلقيح الذي يفوق مردودُه (يعادل ١٥ مليار دولار سنوياً في أميركا) بكثير مردودَ انتاج العسلِ (أقلّ من مليار دولار).

يكفي رؤية نموذج اقتصاد غوغل على الإنترنت: بمجرد نقر المستخدم للموتور، يمتصُّ كالنحلة الرحيقَ المعلوماتي من الموتور، يستفيدُ منه، ويلقّح الموتور بمعلوماتٍ مرتبطةٍ بحاجاته، اهتماماته وطبيعة شخصيّته.

هكذا، فالتلقيح استعارةُ النموذج الاقتصادي الجديد، فيما إنتاج العسل استعارةُ النموذج القديم. نحن هنا أمام نمطٍ جديدٍ من اقتصادٍ تعاضدي، معرفي، يتكئ على مفهومَي: شبكة الشبكات الاجتماعية، والتلقيح الإنساني.

مربعُ انقراض النحل بشكلٍ خاص لصاحبنا بعد أن قرأ أخيراً كتاباً إنسكلوبيدياً مدهشاً يسرد شغف الفلسفة والفكر الإنساني بالنحل، منذ مهد الفكر الإنساني: «النحل (وال) فيلسوف»، تأليف الأخوين Tavoillot، أحدهما أستاذ في الفلسفة في جامعة السوربون عاشق للنحل، والآخر نحّال عاشق للفلسفة!

فمنه اكتشف صاحبُنا أن الإنسان، منذ أن صار يفكّر، أعجب بالنحل كما لم يعجب بكائنٍ حيٍّ آخر. رأى في نمط حياة خليّة النحل تكثيفاً لِحياة البشر: مجتمعٌ ينتج، يبني، يُحوّل، يعالج، يدافع عن نفسه، يهاجر، يحارب... يتغذّى من رحيق الأزهار (غذاء الآلهة) ليفرز العسل: المنتج الطبيعي الوحيد الذي لا يتخثّر أبداً، ولذلك استخدمه في تحنيط الملوك.

ثمّ النحل، كما يقول المؤلفان، هو الجسر الذي يؤالف بين المتضادات، وهو ينتقل من «الطبيعة» إلى «الثقافة»: يلدغ بشكلٍ مؤلم، ويفرز ألذّ غذاء!

فلِلنّحل دورٌ جوهريٌّ في الميثولوجيا الإغريقية: من ناحيةٍ، لم يصبح كبير آلهة الأولمب، زوس، جبّاراً قادراً على منافسة وهزيمة والده كورنوس، إلا لأنه تغذّى في طفولته بالعسل، وخدَعهُ يوماً بوجبةٍ مغمورةٍ بالعسل!

ومن ناحيةٍ أخرى، نهاية «شهر العسل» بين الإلهة أورفيه وأوريديس كانت بفعل «لسعة» إرستيه، رب النحل في ميثولوجيا الإغريق، الذي دفع ثمناً لذلك: انقراض نحلهِ... تفجّرَ حينها الخوف الميثولوجي من ذلك الانقراض، الذي تعكسهُ ما تُسمّى نبوءة آينشتاين!

من القصتين يبدو مجدّداً أن النحل سيفٌ ذو حدّين: اللسعة والعسل، وجسرٌ بين الطبيعة والثقافة، كما قال المؤلفان.

قضّى كبير فلاسفة الإغريق، أرسطو، حياته يدرس النحل، وكتب عنها أكثر ما كتب عن الكائنات الحيّة غير الإنسان. درسها لأنها بالنسبة إليه كونٌ مصغّر (ميكروكوسم).

كذلك شأن كل فلاسفة الغرب ومفكريه تقريباً، أهتمَّ بها الجميع، من فيرجيل والقديس أوغسطين، إلى كل فلاسفة الحداثة، حتّى ماركس وهيديجر، مروراً بمفكري العلم الحديث، كُلٌّ حسب تخصصه ومزاجه:

النحل لهذا الفيلسوفِ رمزٌ للمَلَكيّة، ولذاك رمزٌ للديموقراطية أو الجمهورية، وللقديسِ المسيحي رمزٌ للإخصاب بلا مناكحة، على غرار ولادة المسيح...

لكلمة «العسل» في اللاوعي العربي مدلولٌ يراوح بين «النعيم» و«اللذة». وفي الفكر الإسلامي، للنحل أيضاً مقامٌ استثنائي: آيتان تجليليّتان في سورةٍ اسمها النحل، تبدآن بـ: «وأوحى ربّك إلى النحل...». ثمّة «نهرٌ من عسلٍ مصفّى» في جنة المسلمين. هناك عدّة أحاديث شريفة تُشبّهُ المؤمنَ بالنحلة، ونصوصٌ فقهيّة لابن الأثير مثلاً في نفس الاتجاه. لخّصَ الدميري حياة النحل في كتابه «الحيوان»، كما كان يتصوّرها ناس ذلك الزمان...

يجهلُ الكثيرون أن اكتشاف العِلم تشريحَ النحل، بفضل ميكروسكوب غاليلو الذي طوّر به الميكروسكوب الهولندي، لعب دوراً رئيساً في انطلاق الثورة العلميّة، بنفس مستوى دور تيليسكوب غاليلو الذي دحض المسلّمات الفلكية العتيقة. إذ تأسس العِلم الحديث على أنقاض تلك المسلمات!

فقبل ذلك، كان العالم أجمع، منذ الأزل، يظنُّ أن ملِكةَ النحل ذكرٌ سُمّيَ دوماً «ملِك النحل». أو اليعسوب، بالعربية.

تقول كل معاجمنا: «اليعسوب ملكة النحل، وكان العرب يعتقدون أنها ذَكَر». كذكَرٍ تحدّث عنها الدميري وفقهاء الإسلام.

سقطت المسلّمةُ الذكورية هذه بفضل اختراع وتطوير الميكروسكوب الذي كانت أولى دراساته التجريبية حول النحل تحديداً. فبعد تطوّر الميكروسكوب، برهن الهولندي سوامردام (١٦٣٧-١٦٨٠) أن ملك النحل أنثى! تبيض أيضاً، إذن ليست عذراء!

ثمّ لحق ذلك جدلٌ علميٌّ عنيف بين بعض علماء عصر التنوير حول إمكانية

اعتبار النحلة خبيرة في الهندسة والحساب المعقّد. كان ذلك الجدل مدخلاً للجدل العلمي الطويل الذي لحقه حول فرضية الخلق الميتافيزيقي للكائنات، حسب النظرية الدينية. ثم لحق ذلك سقوطُ آخر المسلّمات العتيقة حول النحل الذي ظلّ إخصابُ ملكتهِ سرّاً مجهولاً منذ الأزل، لأنها لا تُناكح داخل الخلية.

في رسالته: «حول إخصاب النحل» استخدم فرانسوا هوبير، بدقّةٍ صارمة، المنهج العلمي الحديث:

سرد كل الفرضيات والمسلمات العتيقة حول إخصاب ملكة النحل، بما في ذلك فرضية الهولندي سوامردام حول إخصابها بسبب رائحة قويّة تنبع من أعضاء الذكر. ثمّ دحضها جميعاً بالتجارب العلمية التي كرّرها في ظروف شتّى. قبل أن يكشف عن السر المكنون: تظلّ الملكة عقيمة داخل سجن الخلية، وإن أحاطها الذكور. لكن بمجرّد خروجها من الخلية لمدة ٢٧ دقيقة بالضبط، تعود وقد تم نكاحها خلال الطيران. الدليل: تظلّ ملتصقةً بفرجها أجزاء من الأعضاء التناسلية للذكر!

لعلّ اسم الملكة يستحقّ إعادة النظر هذه، لأن دورها يكمن في الإخصاب لا غير. وحتّى أثناء خروجها من الخلية، ليست هي التي تقود الشغّالات، ولكنّ هنّ اللواتي يقدنها طوال الرحلة!

لكم، أعزائي القراء، اختيار اسمٍ جديدٍ لها!

في رثاء البقر

في كل قطارٍ أعبرُ فيه الريف الفرنسي، منذ يوم وصولي للدراسة قبل بضعة عقود، يستحوذُ على ناظري منظرُ الأبقار الفرنسية وهي تستلقي بسدر وخمول في الحقول المترامية. تستجرّ غذاءَها بهدوء، تحملق بالقطارات التي تعبر قربها بعدم اكتراث، تهزُّ رأسها بإيماءات فاترة، وتنام معظم الوقت...

طالما وجدتُ نفسي، بلا وعي، أقارن بين هذه الأبقار «الضاحكة» المكتظة بأطنان اللحم، وهي تتمرغ وترتع في مزارع تطفح بالخضرة والرغد، وبين الأبقار اليمنية التي تستعرض هياكلها العظمية تحت سماءٍ قاحلة. كنتُ كمن يقارن جسد مصارع السومو الياباني بعجوزٍ أفريقيٍ على وشك الموت من الجوع.

كنتُ واثقاً، لزمنٍ طويل، أنها تعيش في نعيم جنّات البقر!

تغيّرتْ رؤيتي هذه قليلاً ذات يومٍ خريفيٍ في بداية التسعينيات من القرن الماضي. إذ أقضي غالباً معظم شهر سبتمبر، كل عام، في زيارة طلابي الذين ينهون دوراتهم الهندسية الصيفية النهائية في المرافق الإنتاجية في كل أنحاء فرنسا وخارجها، بغية تقويم أعمالهم.

أحدهم كان يعمل دورته الهندسية في تعاونيةٍ في أقصى منطقة النورماندي (إمبراطورية البقر والجبن الفرنسي)، لتطوير قاعدة بيانات التعاونية ورفدها ببرامج ذكيّة!

دهشتُ، وأنا أفحص عمله، عندما رأيت قاعدةَ بيانات بقر وثيران التعاونية غزيرةً بشكل لم يخطر ببالي: كل مواصفات أبقار التعاونية وتطوّراتها البيولوجية، منذ يوم ميلادها المسجّل في القاعدة، تتأرشفُ بنحو دقيق يوماً بعد يوم.

لكل بقرة رقم: (شعرتُ بخيبة: لبقرات اليمن أسماء تدليلية. منها «نجمة»: بقرة جدة الشاعر اليمني عبد الكريم الرازحي الشهيرة. وفي اليمن، يتغزّل الريفيون بأعين البقر، مثلما يتغزّل الأدباء بأعين المها: البقر الوحشي).

في رقبةِ كل بقرة وثور عقدٌ يحوي لاقطاتٍ إلكترونيةً صغيرةً تمدّ قاعدة البيانات آلياً بكل المعلومات اليومية: تقلبات الحركة الدموية للبقرة، موعد نومها، يقظتها، استجراراتها، حاجاتها الغذائية...

كل ما اخترعته ساعةُ شركة آبل، التي ظهرت مؤخراً، من برامج مراقبة إلكترونية للحالة الصحية للإنسان، تعرفهُ البقر منذ عقود. غير أن كل هذا

الترف في المتابعة لصحّة البقر ليس من أجل نعيمها وسعادتها، ولكن من أجل الوصول إلى أقصى قيمتها كسلعةٍ تجارية في بورصة المجازر. إذ تحسب الرسومات البيانية للبرامج الكمبيوترية يومياً قيمة البقرة والثور في ضوء مجموع مؤشرات حالتهم الصحية، وتضع دورياً صور وأرقام الـ«TOP 10» للثيران والبقر الأفضل بيولوجياً، ليس في التعاونية فقط، لكن على صعيد شبكة تعاونيات المنطقة، وعلى الصعيد الوطني.

الهدف: تحديد الثيران الأفضل لجماع البقر الأنسب بيولوجياً، من أجل أجيال من البقر أثرى وأفضل! شعرت حينها بمرارةٍ ما، وأنا أرى البقر مجرد بروليتاريا مسحوقة في بورصة الذبح الجمعي!

ما أبعد كل ذلك عن بقر نيتشه الذي قال: «قرب قطيع بقر، تصبح أفكاري أكثر نعومة، وأكثر إنسانية!». لعله لذلك نظّم، في «هكذا تحدّث زرادشت»، لقاء «نبيّهِ» بقطيع بقر.

«لذلك أتعلّم من البقر»، يقول أحد أبطاله. يضيف: «إذا لا نتحدّث مع البقر، لا يمكننا أن ندخل ملكوت السماوات. ثقة شيء يلزمنا أن نتعلّمهُ منها: الاستجرار»...

ما أبعده أيضاً عن «بقرة الرازحي» التي تحوّلت إلى مشروعٍ أدبيٍّ فكريٍّ وإنساني، متعدّد الأبعاد:

هي حيناً عشق الرازحي الأوّل: القرية؛ هي «نجمة» البقرة الإرهابية التي تعرف جذة الشاعر اليمني وحدها كيف تروضها بالحب والموسيقى؛ هي مربط فرس صراع الأئمة والأنظمة اليمنية الفاسدة: البقرة التي يتقاتلون عليها، هي البقرة الهندية التي أطرى الرازحي على حُرّيّتها وسعادتها، وهي الرمز المهم العميق في كتابهِ «موت البقرة البيضاء»: انقسم تاريخ اليمن إلى ما قبل موتها، وما بعده...

ما أبعده بالتأكيد عن «الفلسفة الحيوانية» التي دعا إليها ديريدا، في مواجهة الجزر الجماعي لبروليتاريا البقر، وتصنيع لحومها!

ما أبعده بشكلٍ خاص عن مفهوم البقرة في الديانة الهندية: هي رمز الخصوبة والثراء، «البقرة الأم» التي تمنع المعتقدات والتقاليد ذبحها. بالنسبة إلى الهندوس، البقرة الأولى (آدم البقر التي ظهرت مع بدء الزمن، حسب الماهابهاراتا) تحتضن جميع الآلهة... للبقرة إلهٌ يحميها: كيرشنا، «سيّد المزمار والبقر»، ولها نهاية حياةٍ استثنائية: «جولاكا»، جنّة البقر.

الهند، للعينِ المجرّدة، إمبراطورية البقرة؛ إذ يراها السائح منذهلاً هناك وهي تتمخطر في كل مكان، تهبط سلّم محطات القطارات باتجاه المكاتب، تضطجع في وسط طريق السيارات السريعة... دون أن يمنعها أو يكدّر

مزاجها أحد.

صحيحٌ أن البقر منذ فجر التاريخ البشري لم يحظَ دوماً بهذه البحبوحة الهندية: هو مزيج من إلهٍ وأضحية، شواها الإغريق وقدّمها أضحيات للإلهة أثينا. وفعل الرومان الشيء نفسه لآلهتهم، في كلّ ١٥ أبريل: يوم الخصوبة.بالمقابل، لِكثيرٍ من آلهةِ المصريين القدامى ملامح بقر، أهمهم هاثور: الزوجة الأم العاشقة. ولأمهات الثيران المقدسة المصرية قبورٌ بجانب أبنائها. ومن «البقرات السبع» في «كتاب الموتى» انبثقت استعارة السبع بقراتٍ عجاف، والسبع السمان، التوراتية.

كأضحيةٍ أيضاً طلب إله بني إسرائيل، عبر موسى، من «شعبه المختار» أن يضحيَ له ببقرةٍ «صفراء فاقعٌ لونها تسرُّ الناظرين»، كما تقول سورة البقرة، أكبر سور القرآن الكريم.

لعلّ أفلام رعاة البقر الأميركية التي انطلقت إثر نقل أعداد هائلة من بقر أميركا، من جنوبها إلى شرقها، يقودها «رعاة أبطال أحرار»، تواصل اعتبار البقرغذاءً للإنسان ورفيقاً حميماً آسراً لحياته.

غير أن حضارتنا الجديدة خانت كثيراً هذا التناغم الأزلي في التعامل مع البقر، وهي تبحث عن أفضل المردودات الاقتصادية بأبخس الأثمان، متكئةً على التكنولوجيا الحديثة (تحلب بقرَ اليوم روبوتاتٌ تحلّ محل الإنسان، الذي يفضّل رب العمل رؤيتَهُ منبوذاً في سوق البطالة).

فبسبب «طحين الحيوانات» التي صنعتهُ حضارتنا المارقة غذاءً للبقر (من أجزاء لا تؤكل من الحيوانات، ومن الجثث أيضاً)، برز مرضٌ معدٍ للإنسان، قاتل لا علاج له، سُمّيَ «جنون البقر»، فيما هو جنون الإنسان في الحقيقة.

ارتجف العالم، ولا سيما في عام ١٩٩٦، جراء انتشار هذا الوباء. لاقتلاعهِ، قُتِلَت بضعة ملايين من الأبقار ضمن برنامجٍ دوليٍ للإبادةِ الجمعية.

لم يخلُ ذلك التدمير الشامل من إجراءات أنانية تخدم مصالح قوى المال الكبرى التي حرصت على أن تظلّ أسعار لحم البقر (بعد قلّة الطلب عليها) ثابتةً كما هي، فأبادت منها كلّ تلك الأرقام الهائلة. تماماً كما تفعلُ عندما تفضّلُ أن ترمي فائضَ البطاطا والخضروات إلى الطرقات ليتلف، على أن تبيعهُ بسعرٍ منخفّض!

قاد هذا التطرف في إبادة الأبقار وزيرةَ الزراعة السويدية إلى تصريحٍ يُدينهُ «في عالمٍ يموت فيه من الجوع ٨٠٠ مليون إنسانٍ سنويّاً!».

يدعوني كل هذا إلى رثاءٍ حميمٍ للبقر. ثم هناك ما يجبرني على مواصلة حاجتي العميقة هذه: ثقة رؤى خاصة في الثقافات الإنسانية تهين البقر، لا أجد

لها تفسيراً.

ففي الثقافة الفرنسية اشتقاقُ: Vacherie، من اسم البقرة: Vache، يعني: قساوة، وشزاً غير متوقّع.

وفي الثقافة العربية تُطلق كلمة «بقرة» على الغبي الأهبل.

قال أبو تمام مثلاً:

لا يدهمنك منْ دهمائهم عددٌ

فإنَّ جُلَّهُمُ بَل كُلَّهُم بَقرُ

أو:

عليّ نحتُ القوافي من معادنها

وما عليّ إذا لا يفهم البقرُ

نهاية الحضارات

ستنتهي الحضارة البشرية يوماً بالتأكيد. لن يكون ذلك حسب التقويم الزمني للمنجّمين، كأصحاب حضارة المايا الذين حدّدوه في ٢١/١٢/٢٠١٢!
مواعيد العِلم مختلفة: بعد نحو خمسة مليارات عامٍ فقط ستصطدم مجرّتُنا الحبيبة، درب اللبانة، بجارتها الغالية اندروميد (كل الكلمات تتقزّم، تتلاشى عندما أتصوّر هذا الاصطدام!)، لتتشكّلَ إثر ذلك مجرّةٌ جديدة، هي ميلكوميد.
أمّا الفناءُ الكليّ للكون، «يوم قيامة العِلم» إن جاز التعبير، أي «التمزّق الكوني الكبير»، جزاء التمدّد الدائم لِلكون (منذ تشكُّلِهِ قبل نحو ١٣.٧ مليار عام، يوم «الانفجار الكوني الكبير»)، فلم يحدّده العِلم إلا أخيراً، سيكون بعد ٢٢ مليار عامٍ فقط، كما حسبتهُ معادلات مقالٍ علمي أعادت الصحف الدولية نشرهُ في ٣ يوليو ٢٠١٥.
يبدو إذن أن كوننا ما زال مراهقاً لم يصل بعدُ إلى منتصف العمر! ومع ذلك حضارتُنا البشرية مهدّدة بالانهيار قبل ذلك بكثير. ستنتهي يوماً، كما أنتهت أمام أعيننا الحضارة السوفياتية، أو الحضارة الرومانية في القرن الخامس.
متى ستنتهي إذن؟
قبل الرد، أنقلكم أوّلاً إلى روما، «المدينة الخالدة»، عام ٤١٠، و«قبائل آلارايك الجرمانية تنهبها، وتسحب معاطفها الزرقاء الطويلة في دماء العذراوات».
معنا القديس الجزائري أوغسطين (من مواليد تاجست، قرب قسطنطنية في الجزائر، إحدى أعظم الشخصيات التاريخية للكنيسة الكاثوليكية، وأكثرها تأثيراً في لاهوتها وفلسفتها)، وهو يخطب في كاتدرائية هيبون (عنابة، بالجزائر حالياً) أمام جموعٍ هائلةٍ لم تستوعب كيف سقطت المدينة الخالدة في ٣ أيام.
يقول هذه الكلمات الخالدة لِلحشدِ الذي يبكي بضراوةٍ من هول الصعقة: «أتظنُّ أن روما لن تسقط أبداً؟ منذ متى بنى الإنسان مدناً خالدة؟ لا يبني الإنسان إلا فوق رمال. العالم كالإنسان، يولد ويكبر ويموت».
بالنسبة إلى الجيولوجيين: عاشت الأرض منذ ١٢ ألف سنة عصراً مستقراً، اسمهُ Holocène، بدأ باكتشاف الزراعة، وانتهى اليوم بدخول كوكبنا عصراً جديداً مضطرباً اسمه Anthropocène.
بدأ هذا العصر الجديد منذ عقود قليلة مع «لخبطةِ» الإنسان لمنظومة

الأرض البيئية وزلزلتها بسبب نشاطاته الحرارية (مواصلات، صناعة...)، واستخدامِهِ الجشع للثروات الطبيعية والطاقة الأحفورية دون احترام إيقاع منظومة الأرض، وتلويثِهِ المجنون للبيئة، والزيادة الأسيّة لِعدد سكّان المعمورة، واستهلاكهم اليومي المتضخِّم المجنون...

قاد ذلك إلى تغليف جوّ الأرض بغطاءٍ من غازات الاحتباس الحراري كثاني أوكسيد الكربون والميثان، يرفع درجة حرارة الأرض رويداً رويداً كما لو كانت محبوسةً في غرفةٍ زجاجيةٍ مغلقة، ويؤدّي إلى ذوبان الجليد في شمالِها، وإلى فيضانات وتسونامي متتالية، وإلى انقراض ثرواتها الحيوانية والنباتية على طريق «الانطفاء السادس» المؤكّد علمياً اليوم، والذي تحدّثنا عنه في فصلٍ سابق: «من سيصطاد السمكة الأخيرة؟».

لنُذكِّر: إذا ما استمرّ الارتفاع على هذا الصعيد (عندما تكون نسبة الغازات الملوِّثة في الجو ٥٠٠ جزء من المليون، بدلاً من ٤٠٠ حالياً)، فلن يعيش على سطح البسيطة غير بضعة ملايين من البشر، في مناطقها القطبية!

كلّنا مسؤولون عن ذلك، كل الحكومات، وبشكلٍ خاص: الدول الصناعية الرأسمالية الكبرى، كأميركا والصين. ليس فقط لكونها أكبر مفرزي غازات الاحتباس الحراري، لكن لأن مقترحات حلولها للأزمة لا تخرج عن منطق السوق والملكية الخاصة، وعن رؤية العالَم (بما فيه البيئة) كسلعةٍ لا غير.

فمفهوم «شراء حقوق التلويث» الذي خرج به اجتماع كيوتو الدّولي حول الطقس: دفعُ ضريبةٍ على كمية التلويث، يعكس ذلك المنطق الليبرالي الاقتصادي المتغطرس الذي يقود البشرية إلى الهاوية.

إذ لا يؤدي ذلك إلى خفض إنتاج الغازات الحرارية المؤذية، لكنه يعمل على ترقيع التلويث لا غير، ولا سيّما عبر شراءِ الدول الغنية حقوق «كوتا» التلويث، من الدول الفقيرة القليلة التلويث، لتستمر الغنيّة في ضخّ القذارة للعالَم بطيبة خاطر!

نحن هنا أمام منظومةٍ مالية دولية اختارت الليبراليةَ الاقتصاديةَ الجديدة طريقاً إجبارياً وحيداً للبشرية. تمارس به، وهي تقترح حلولاً لِقضايا البيئة، دورَ الخصم والحكم، كما قال المتنبي، في نفس الوقت!

إذ تترنّحُ المنظومة البيئية للأرض بسبب هذا الاختيار الليبرالي المتوحِّش المبنيّ على سياسة النمو، القروض، الأسواق، الملكية الخاصة، وقد تعطّلت بوصلة هذا الاختيار الذي وصل اليوم إلى طريقٍ خانقٍ مسدود، كما تبرهنُ كل الأرقام والأحداث اليومية (نموذج إفلاس اليونان اليوم، وما ستلحقها من دولٍ أوروبية، يشرح نفسه)، وها هو مع ذلك يُقدّم حلولاً بيئيةً من وحي سياسته الفاشلة نفسها!

ثقة إذن خطأ جذري: منظومتنا المالية الجشعة تعتبر البيئةَ سلعةً ووسيلةً للكسب الأناني لا غير، وتعتبرُ النموَّ الاقتصادي والاستهلاك غايةَ الغايات، وإن كانا سبباً رئيساً لتدمير توازن البيئة!

زبدة القول: الحفاظ على منظومتنا البيئية لا ينسجم جينياً مع الليبرالية الاقتصادية الجديدة. من غيرها يستطيع اختراع هذا المفهوم اللا أخلاقي الفاحش: «شراء حقوق التلويث»؟ هي التي تختلق عمداً «الفقاعات المالية» و«بنوك الظل» و«الجنّات والمظلات المالية» والأزمات القاتلة كما حدث في ٢٠٠٨، لمزيدٍ من الربح الغادر؛ وترفع بشكلٍ خياليٍ رواتب وعلاوات كبار أرباب العمل ومديري الشركات وتقلّص في الوقت نفسِه رواتب الشغيلة إلى حدّ الإفقار المدقع المهين... الأزمة إذن منظوماتية (Systemique)، والحل لن يكون إلا منظوماتياً أيضاً، وليس ترقيعياً.

أي يلزم أن تتغيّرَ الأسسُ، ابتداءً من نشر ثقافةٍ بيئية، وتغييرٍ جوهريٍ في سلوك كلٍّ منا: علاقتنا بالمواصلات، الاستهلاك، استخدام الطاقة... وفي سلوكِنا الجمعي أيضاً، أو ما سميناه في فصلٍ سابق «سفينة نوحٍ الجديدة»: استبدالُ الطاقة الأحفورية بالطاقات المتجددة، التقشف المخطط له في استخدام الموارد الطبيعية، تحديد النسل البشري، إعادة تدوير المخلفات الصناعية، التزام تعليمات التكيّف مع تدهور البيئة بمسؤوليةٍ مجتمعيةٍ ودولية...

يلزم أيضاً البحث عن أسس منظوماتية جديدة للاقتصاد الدولي تقطع العلاقة بالاقتصاد الامتلاكي الجشع، وتستبدل به أكثر فأكثر الاقتصاد التعاضدي: اقتصاد «البرمجيات المجانية» المعاكس لاقتصاد «براءات الاختراع» التي تخنق التجديد العلمي والتكنولوجي؛ اقتصاد «ويكيبيديا، ومجانية المعارف» المعاكس لاقتصاد شراء المقالات والأبحاث العلمية من المجلات الغالية، ودفع أسعار باهظة لحضور المؤتمرات العلمية الدولية...

ضمن هذه الأسس التعاونية الإنسانية يمكن بناء سياسة بيئية جديدة، لا تبدو فيها البيئة سلعةً يستنزفها الإنسانُ للربح، لكن وعاءً يحتضن الجميع كرحم. ليس الإنسان سيّدَه كما اعتدنا القول، بل جزءٌ منه فقط، يحافظ بقدسيةٍ على قواعد توازناته كخطٍّ أحمر.

سياسةٌ لا تجري وراء التنافس والأرباح القياسية، ولكن وراء سعادة الإنسان وحياته البهيجة على سطح هذه المعمورة الفانية.

البطريق العملاق الأخير

«النوع البشري خطأ ارتكبتهُ الطبيعة، حان وقت إلغائه من الوجود، وانتهاء هذه المسرحية الهزلية!»، قالها بنبراتِ ممثلٍ مسرحي، أو مجنونٍ ربما، رجلٌ يعبر رصيف محطة مترو، ذهاباً وإياباً، بهيئة غريبة يحدق فيها الجميع، دون الإصغاء إلى ما يقوله.

لم يثرني منظره، بقدر عبارته الخطيرة: كل مشاريع الإبادة البشرية لم تطمح بإلغاء نوعنا البشري من الوجود، عن بكرة أبيه، كهذه العبارة.

كان يحكّ فمي هذا الرد الساخر: «ما عجلك بفنائنا؟ ما زلنا في بداية الطريق. نوعنا البيولوجي، هومو سابيانس، مازال بعمر الرضيع!»؛ مُنطلقاً من كون متوسط عمر النوع البيولوجي نحو خمسة ملايين سنة، ونوعنا عمره فقط ٢٠٠ ألف سنة، سبقته سلسلة سلالات أنواع إنسانية أولية، منذ نحو ستة ملايين سنة فقط. عبرَتْ رأسي صورٌ تحاول استيعاب ما يقوله.

صور خرائب نوعنا الإنساني وتدميره الذاتي المعاصر.

صور حديثة لهياكل عظمية من النساء الجائعات في تهامة باليمن، ملأت الصفحة الأولى من مجلة تايمز أخيراً...

اجتاحت رأسي كل الصور التراجيدية لضحايا سورية، للأطفال تحت الأنقاض، وعلى الشواطئ، لأشلائهم مع حقائبهم المدرسية تحت قصف الطيران الروسي في حلب، لعشرات آلاف الغرقى من المهاجرين...

ليس ذلك ما جرّ معتوه المترو إلى ترديد عباراته التدميرية الشاملة، بالتأكيد. ماذا إذن؟

أهو الواقع الدولي لهذا العالَم الذي يشبه جسداً ساقطاً في الخواء، يهرول تحت قوة الجاذبية، نحو قاعٍ ينتظره فيه ارتطام عنيف؟

فديون الدول لا تتوقف عن الزيادة، تُشترى أحياناً بديون جديدة. والجيل الحالي من شباب الغرب هو أول جيل يعتبر أن سلفه كان يحيا أفضل منه، فيما كل الأجيال السابقة كانت ترى أنها تحيا أفضل من أسلافها. إذ وُلد هذا الجيل الشبابي الحالي وترعرع على سماع كلمات: أزمة مالية، ديون، بطالة، انخفاض مستوى المعيشة... ومع ذلك لا تتوقف أرباح الأغنياء عن الازدياد في الوقت نفسه!

أم هو واقع كوكبنا المريض بسبب التغيرات المناخية التي خلقها النشاط الإنساني واستهلاكه المفرط للطاقة، وتلويثه المناخ، وتقليصه من الغابات

لتوسيع المدن؟
فانقراض الأنواع اليوم مرتبط بالنشاط الإنساني وجشعه وعدم اكتراثه بمصير الكوكب في المستقبل: ٢٠٠٠٠ هكتار تُنتزع يومياً من المنظومة البيئية، لمعمار وحاجات الإنسان؛ ومئة مليون طن من غازات الاحتباس الحراري تنفث يومياً لِتغلف فضاء الأرض كحاجز زجاجي.
من نتائجها: ارتفاع حرارة الأرض، وخلل منظومتها البيئية: ذوبان الجليد، طفح البحار، تسونامیات اليوم...
رغم كل هذه الصور السوداوية التي تجعل الولدان شيباً، لم أرَ مبرراً للعبارة الخطيرة التي كان يرددها مجنون المترو.
إنتهاء النوع البشري من الوجود؟ يا للهول!
وفي أيّ متحفٍ ستوضع عينات بشرية لِنوعنا الإنساني البائد؟ من سيشاهد أنقاضَنا إذن، ومن سيدير ذلك المتحف؟
عادت إلى ذهني مومياء بِطريقٍ عملاق، شاهدتها في متحف، لنوعٍ بيولوجي اختفى من المعمورة ذات يومٍ تراجيدي كئيب: ٣ يونيو ١٨٤٤.
كان هذا النوع بحجم وزّة كبيرة، له منقار طويل أسود، وأقدامٌ بِعوّامات. له ريش صغير معطوف نحو الظهر، لا يستطيع الطيران به. يستخدمه للعوم الماهر الاستثنائي، والغوص عميقاً في البحار التي يغادرها لوضع بيضِه على اليابسة. ريشهُ ثمين في أسواق تجارات الإنسان.
حتّى ذلك اليوم الحزين، كان هذا الطائر منتشراً من مضيق جبل طارق حتى إيسلندا والنرويج، وأبواب أمريكا الشمالية.
تحدث عنه بحارة القرون الماضية كثيراً. كان منه أكثر من ١٠٠٠٠ نفر في «جزيرة الطيور» مثلاً، على أبواب كندا، عندما كانت مشحونة بالطيور آنذاك.
كان اصطياده سهلاً جداً. فهو لا يستطيع الطيران (بعكس بِطريق اليوم، الصغير حجماً)، ولا يجري أسرع من الإنسان. يفتح الصيادون أحضانهم له، يخنقونه، ينتزعون ريشه، ويتركون جثته تموت ببطء على الشاطئ.
اختفى هكذا رويداً رويداً من الأرض، قبل أن تظل منه أعداد قليلة في جزيرة إيلدي قرب أيسلندا، كان آخرهم ثنائيٌ خرج من البحر لوضع بيضته على الشاطئ، عندما أرسى قربه البخار هاكونارسون ورفيقه سفينتهم التي جاءت من أيسلندا، في ذلك اليوم الكئيب، للبحث عن ريش البطريق، لبيعه لتاجر بعثهم خصوصا لذلك.
عراك صغير بين الطائرين مع هاكونارسون ورفيقه، انتهى بخنق البطريقين بسهولة، وبكسر البيضة وسط المعمعة، وبانتهاء نوع بيولوجي تطوّر خلال

ملايين السنين، من كوكبنا وإلى الأبد!
كل ما بقي منه اليوم نحو مئة مومياء في بعض متاحف العالَم، وقفتُ أمام إحداها وأنا أرتجف بخشوعٍ وحسرات.
فناء الأنواع البيولوجية صار اليوم من صنع الإنسان، فيما كان سابقاً من هندسة كوارث الطبيعة.
من ينسى آخرها؟ الكارثة الخامسة الكبرى في تاريخ كوكبنا، عندما سقط كويكب عليه قبل ٦٥ مليون سنة، آثاره محفورة في أعماق البحر، قرب المكسيك. ارتفعت إثرها درجة حرارة أرضنا وضجت بالزلازل والبراكين، التي أطاحت جميعها معظم الكائنات الحيّة.
لم يكن الإنسان بعد من سكان هذا الكوكب. كان له سليل بعيد ضعيف صغير، يختفي في علياء الأشجار، استطاع مثل غيره أن يحتمل ارتفاع درجة حرارة الأرض وتغيراتها المناخية.
تطور هذا الكائن الضعيف خلال عشرات ملايين السنين بعد ذلك، في ضوء التغيرات الطبيعية المتعاقبة، قبل أن تبدأ سلالات الأنواع الإنسانية، التي قادت، قبل ٢٠٠ ألف سنة فقط، إلى نوعنا الحالي: هومو سابيانس، من فصيلة هومو التي تضمّ أنواعاً بيولوجية أخرى كان لها مثلنا نفس الأجداد.
عدد الأنواع البيولوجية اليوم ٨.٧ مليون، منها ٢.٢ مليون تعيش في البحار.
٥٠٪ من عدد طيور الأرض اختفت منذ ٤٠ عاماً. نسبة لا تقل عنها من الحيوانات المتوحشة انقرضت أيضاً. بعض هذا النقصان يؤدي إلى فناء أنواع كاملة.
٨٩٪ من طيور السنونو اختفت مثلاً في فرنسا. ألاحظ ذلك شخصياً، من مسكني، قبيل الفجر في السنوات الماضية، كنت أصحو على سيمفونية طيور سنونو تملأ السماء. ومنذ سنين، لا أصحو إلا على سماء قفراء إلا من ثنائي يعبرها أحياناً، بشرود وقلق!
أكثر من ٢٠٠٠٠ نوعٍ بيولوجي مهدد اليوم بالانقراض. أشعر بحسرات حقيقية على كل نوع ينقرض. لوحة فنية صنعتها الطبيعة خلال ملايين السنين تتحول فجأة إلى رماد وعدم.
فضلاً عن أن علاقة قرابة حميمة تجمعنا معها، منذ الأزل: لنا منبع بيولوجي مشترك قبل ثلاثة مليارات ونصف مليار سنة: الخلية الحيّة لوكا: LUCA (Last Universal Common Ancester).
ختاماً، ما إن أنهيت فصلي هذا حتى ظهرث، في ٢٧ أكتوبر ٢٠١٦، نتائج دراسة دولية ينتظرها الجميع، عن واقع التنوع البيولوجي اليوم، لخصها

اليوم التالي عنوان الصفحة الأولى من جريدة اللوموند الفرنسية، الذي يشبه اللكمة القاضية:

«٥٨٪ من فصيلة الفقاريات اختفت خلال الأربعين السنة الماضية!».

كل ذلك قبيل أيام من افتتاح مؤتمر COP22 في مراكش، لخفض حرارة الأرض، عبر برنامج دولي لِتقليص إنتاج غازات الاحتباس الحراري في مجموع دول العالم: أم المعارك.

أمّ المعارك التي لا يعترف بها الرئيس الأميركي الجديد ترامب، ويعتبرها (أربطوا احزمتكم جيداً!): مؤامرة صينية لإفقار أميركا!

المحور الثالث: معالم حضارتنا الجديدة

شاهدٌ على حضارةٍ جديدة

من لم يدرك أننا نعيشُ اليوم في حضارةٍ إنسانيةٍ جديدة يهيمن عليها عملاقٌ ذو أربعة رؤوس، يطلق عليه: غافا: غوغل، آبل، فيسبوك، أمازون؟ يُقضِّي إنسانُ اليوم أكثر من متوسط نصف وقته الرقمي داخل الفضاءات الأربعة لهذا العملاق. وزنه المالي أكثر من وزن الأربعين شركة الأولى في البورصة، ومعدل نموه أكبر من معدل نمو الصين!

ومع ذلك، لم تتأسس شركاته الأربع إلا في هذا القرن الجديد، أو في نهاية سابقه!

لأتحدّثَ عن ثاني أغنى هذه الرؤوس، وأكثرها إثارة للدهشة: غوغل، «مُنظِّم معلومات الكرة الأرضية»، كما يطلق على نفسه.

إمبراطورية خلقاها طالِبان، من وحي معادلة رياضية اخترعاها عندما كانا في جامعة ستانفورد، في ١٩٩٥، عمرهما ٢٣ و ٢٤ سنة.

يتكئ غوغل على فهرسٍ شاسع، موزَّعٍ على أكثر من مليون كمبيوتر في أنحاء مختلفة من المعمورة. الفهرسُ عبارةٌ عن قائمةٍ بكلِّ كلمات كلِّ اللغات. بجانب كل كلمةٍ قائمةٌ بكل روابط صفحات الإنترنت التي تحتوي على هذه الكلمة!

قبل غوغل، عندما كان السائلُ يبحث في موتورات الأبحاث الإنترنيتية عن «البيت الأبيض» مثلاً، يصل له موقع البيت الأبيض بعد ٥٠ جواباً، فيما لا ينظر المرء غالباً إلا إلى العشر أو العشرين الإجابة الأولى.

فكرة غوغل الرئيسة: ترتيب روابط الفهرس، لكلِّ كلمة، حسب درجة «شعبية» صفحة الرابط، بدءاً بالصفحة الأكثر شعبية.

اختَرَع مؤسسا غوغل مفهوماً ألمعيّاً عميقاً للشعبية، يمنع الغشّ: شعبية أية صفحة تتناسب طردياً مع عدد الصفحات الشعبية التي تحتوي على رابطها!

ثم بمعادلةٍ رياضية صغيرة، اسمها معادلة «النقطة الثابتة»، حسبَ مخترعا غوغل «شعبية» كل صفحة على الإنترنت، ورتّبا سلسلة روابط الصفحات الخاصّة بكلِّ كلمة في الفهرس في ضوء مقادير شعبيتها، ثمّ وزّعا هذا الفهرس اللانهائي المتجدّد يومياً على مئات آلاف الكمبيوترات.

لعلّها أثمن معادلة في تاريخ الإنسان، دون شك، تكسبُ شركة غوغل بفضلها آلاف المليارات دولار، ومركزاً في قلب حضارتنا الجديدة.

حيّ غوغل في وادي السيلكون بكاليفورنيا ثكنةٌ ممنوعة الدخول إلا لموظفيه، وللواجهات الدوليّة الكبرى: (عربيّاً، زارته رانيا، ملكة الأردن).
مشاريع الأبحاث التي تنمو بسريّة في مختبراته المحصّنة تشبه مشاريع الخيال العلمي. مثال صغير: بعد الطائرة دون طيّار التي تستخدمها اليوم شركة أمازون لتضع ما يشتريه الناس على الإنترنت أمام أبواب بيوتهم، «لسنا بعيدين عن زمن السيارة التي تطير»، يقول أحد مخترعَي موتور غوغل!
ما يميّز حضارتنا الجديدة أيضاً: لِسلطةِ المال فيها دورٌ أفتكُ من أدواره في حضاراتنا السابقة. إذ مرتعُها الجديد: كلّ الكرة الأرضية، بفضل إحدى أخطر كلمات قاموس الحضارة الجديدة: العولمة.
انبثقت هذه الكلمة بعد سقوط المعسكر السوفياتي، الذي كان سببه في الجوهر، حسب آراء جهابذة المحلّلين: الكمبيوتر الشخصي! (لم يكن المعسكر السوفياتي قادراً اقتصاديّاً على صناعة هذا الجهاز، ولا مؤهّلاً بنيويّاً للسماح لِسكّانه بامتلاكه، والارتباط بحريّة عبره بالعالم).
في الفضاء الاقتصادي لحضارتنا المعولمة: آلاف مليارات الدولارات الافتراضية تطير كل لحظة، من طرف الأرض لطرفها، بلمحة بصر، لا تعرف حدوداً أو حواجز... جشاعة الأسواق الماليّة فيه هاويةٌ بلا قعْر، تخنقُ إنسانَ اليوم وتُدمّره: تجيدُ، في ضوء «علم الفقاعات المالية وانفجاراتها»، اختلاق الأزمات والسلع المالية المسمّمة التي تطيح حياة مليارات من بسطاء الأرض، لِتخرُج هي بعدها بمئات مليارات الدولارات من الأرباح الإضافية.
الموقع السياسي للقوى المالية في حضارتنا الجديدة (التي تديّنت من طرف الأرض لطرفها بدين الليبرالية الاقتصادية) أكثر نفوذاً من قبل: تقود هذه القوى العالمَ «بوجهٍ لا مرئيّ». لا يتجرأ القادة السياسيون على اتخاذ قرارٍ يدعكها. لا تخدم الاقتصادَ، كما هو دورها الطبيعي. لكنها تستخدمه لِمصالحها الأنانية في الكسب الرخيص الفاحش.
حتّى المجالُ العلمي صار اليوم أسيرَ قوى المال: هي التي تُحدّد سنويّاً أولوية مواضيع الأبحاث العلميّة وكميّة دعمها المالي، لِخدمةِ حاجاتها المباشرة.
الخاسر الكبير في ذلك: البحث العلمي النظري الذي لا يرتبط بتطبيقاتٍ ذات مردود ماليٍّ مباشر. خطيرٌ ذلك، لأن كثيراً من الاكتشافات العلمية التي غيّرت حياة البشرية أتت بفضل نتائج نظريّة سبقتها بعقود، لم ترتبط بحوثها، بالضرورة، بتطبيقاتٍ عملية: كان هدفها التطوير النظري للمعرفة

الإنسانية لا غير.
شكل اقتصاد الحضارة الحديثة تغيرَ أيضاً: بجانب الاقتصاد الانتاجي، يسود اليوم «الاقتصادُ التلقيحي»: اقتصادُ معرفيٍ، تفاعليٍ، نموذجه اقتصاد غوغل وفيسبوك، تحدّثنا عنه في فصلٍ سابق: «العسل، ونبوءة آينشتاين"».
استعارته: دور النحل التلقيحي للنباتات أهمُّ بكثير من دوره في إنتاج العسل!
ليس غريباً في هذا النموذج الاقتصادي أن لا تكون قيمةُ الإنسان مرهونةً بذكائه وشهاداته، لكن في «دفتر عناوينه» قائمة الأشخاص المهمّين الذين تربطه علاقةٌ بهم، ويستطيع التأثير فيهم، و«تلقيحهم»!
صار ذلك الاختيار أكثر فأكثر أهمية اليوم في تعيينات مستشاري رؤساء الدول وكبار النافذين. ولعلّه يتسلّل أيضاً، لسوء الحظ، ولو ببطء، في المجالات الأخرى، كالتعيينات والترقيات العلمية أحياناً!
ما يزيد اليوم من جبروت القوى المالية وسطوتها أضعافاً مضاعفة: هورمونات تكنولوجيا المعلومات، والإبداع التجديدي في الأبحاث العلمية: بنوك الدنيا تتحدّثُ اليوم اللغة نفسها، تستخدم صيغات البيانات والبرامج الكمبيوترية نفسها: يكتب موظف البنك في فرانكفورت سطراً من برنامج الكمبيوتر قبل مغادرته المكتب في المساء، ليواصله زميله بعد دقائق فقط، في سيدني التي تستيقظ من النوم!
سرعة تبادل المعلومات المالية صارت اليوم أسرع من قبل ٧ سنوات فقط بمليون مرّة!
٧٠٪ ممن يقومون بالمضاربات المالية هم برامج كمبيوتر ذكيّة، ذهبية الثمن، تدرس تاريخ الشركات التي تضارب على أسهمها، وتطوّرات كلّ مؤشراتها بلمحة بصر.
البقية، «الحلزونات البطيئة»، هم جيوش رجال المال المرابضين في البورصات بأعين ملتصقة على شاشاتها، بهواتفهم الجوّالة المحمومة، وأصابعهم التي تلهث على لوحات مفاتيح كمبيوتراتهم! أوّل درس يتعلمه هؤلاء المقاتلون: «الوقت من ذهب»، «السرعة سلطة». من يسبق الآخر بِنَانو ثانية يكسب السوق!
لكسب هذه النانو ثانية لا يقف في وجه قوى المال حائل: تغرس حالياً شركة هيبرنيا أليافاً ضوئية تعبر المحيط الأطلسي لربط أميركا بأوروبا، في طريقٍ أقصر من الطريق الحالية، طولها ٤٦٠٠ كيلومتر، تسمح لعملاء الشركة بكسبِ ٣ في الألف من الثانية، وسبقِ الجميع أثناء الاختيارات في

أسواق البورصة!

علامةٌ جديدة في العلاقة الغرامية بين قوى المال وتكنولوجيا المعلومات: زوت بوراك، المديرة المالية لبنك الأعمال الأميركية: مورغان ستانلي («أعتى امرأة في وول ستريت»، رفضت سابقاً منصب وزيرة مالية أوباما) تستقيل من عملها وتسافر إلى كاليفورنيا في ٢٦ مايو ٢٠١٥، لتصبح المديرة المالية لشركة غوغل. تتسلّم حال وصولها «علاوة ترحيب»: ٧٠ مليون دولار!

مهمات كثيرة تنتظرها، بينها تشغيل ٦٠ مليار دولار نائمة، في مشاريع جديدة. الرمز الأهم هنا: يعتبر المحلّلون انتقالها علامة من علامات هذا العصر الذي تذوب فيه السلطة المالية في أحضان سلطة تكنولوجيا المعلومات!

سؤال: هل حضارتنا الإنسانية الجديدة أرقى من سابقاتها؟

تكنولوجياً وعلمياً، نعم، بالتأكيد. عدا ذلك، في ما يتعلق بسعادة البشر، لا أعتقد.

الأسوأ: دورها في تلوّثِ كوكب الأرض ونكباتٍ بيئيةٍ ستطيحه مستقبلاً، بسبب النتائج الحرارية للنشاطات البشرية في العقود الأخيرة، يجعلها المسؤولة عن أوّل كارثة بيئية كوكبية لم تأتِ من الفضاء الخارجي للأرض، بل مصدرها الإنسان.

في الفصل السابق (شاهدٌ على حضارةٍ جديدة) رسمنا بعض أبرز ملامحِ حضارتِنا الإنسانية الجديدة التي يقودها ماردان يتواشجان اليوم أكثر فأكثر، تكنولوجيا المعلومات وديكتاتورية قوى المال.

ولأنّ لكلّ حضارةٍ جديدةٍ عالماً جديداً، فعالمُنا الجديد هذا: كوكبٌ ملوّثٌ تنتظرهُ نكباتٌ بيئيةٌ، سببها النتائج الحرارية للنشاطات البشرية في العقود الأخيرة، تنذر بأوّل كارثة بيئيةٍ تطمّ المعمورة، لم تأت هذه المرّة من الفضاء الخارجي للأرض، بل مصدرها الإنسان (الذي تقوده في الغالب المصالح الأنانية للقوى الماليّة).

فمنذ نهاية القرن الماضي، زادت درجةُ حرارة كوكبنا نحو درجتين سينتيغراد في المتوسط، وارتفع سطح البحار والمحيطات، وتضاعفت ظواهر الفيضانات والتسونامي... كل ذلك بسبب الاستخدامِ المفرط للطاقة، والإفرازِ الذي تجاوز الحدود لغازات الاحتباس الحراري كثاني أوكسيد الكربون، والاستهلاكِ الجشع للمواد الأولية للأرض... دون الحديث عن تلوث البسيطةِ بمخلفات قذرةٍ متنوّعة تتركها مجمل النشاطات الإنسانية...

النتيجة: المنظومة البيئية للكرة الارضيّة تفقد توازنها في هذا العالم الجديد، تترنح، وتنذر بخرابٍ عاصف لِكوكبنا المسكين: جليد القطب الشمالي يذوب بسرعة مرعبة؛ رويداً رويداً تختفي جزرٌ ومناطق من سطح المعمورة؛ تعلو سطوحَ البحار جزرٌ من البلاستيك وكاتدرائياتٌ من القاذورات الصناعية...

يكفي أن نتذكّر أن عدد اللاجئين بسبب الكوارث البيئية تجاوز في عام ٢٠١٤ عدد اللاجئين من الحروب!

المفارقةُ المجنونة: في الوقت الذي تضع حضارتنا الجديدة هذه بين طلائع مشاريعها تطويلَ حياة البشر (تأجيلَ موعد الموت)، وفي الوقت الذي يعاني عددٌ شاسعٌ من الناس من آفة البطالة العضال، ثمّة مرضٌ جديدٌ يكتسح الموظّفين، برز مع بداية هذه الألفية، اسمه: Burn out، الانهيار الاكتئابي. يسعى برلمانيون إلى إدراجه في قوانين العمل كمرَضٍ مهنيٍ تتحمل الشركات مسؤوليته.

هو مرضُ أولئك الذين يهلكهم الجري من مهمّة إلى أخرى صبحاً ومساءً، أعينهم على شاشات الكمبيوتر والهواتف، في صراعٍ مجنون مع الزمن،

يلتهمهم قلقٌ مستديمٌ من الخسارة أو الخطأ أو البطالة. كأنهم شارلي شابلن في فيلمه التاريخي البديع: «الأزمنة الحديثة»، الذي يسخَر فيه بعبقريته الخالدة من نظام العمل أيّام الكساد الكبير الذي تلا أزمة البورصة في ١٩٢٩.

سؤال يفرض نفسه: كيف يقاوم الإنسان هاوية هذه الحضارة المجنونة؟

انطلقت من أسبانيا وجنوب أوروبا في ١٥ مايو ٢٠١١، بُعيدَ ربيع تونس ومصر بأشهر، مسيراتٌ واعتصاماتٌ ضمّت عشرات الآلاف في مئات مدنٍ أوروبية، أطلقت على نفسها اسم «المستنكرين»، متأثرةً حينها بثورات الربيع وقياداتها اللامركزية، وبطبيعته السلمية الاعتصامية، وبدور الشبكات الاجتماعية في تنظيمه، وبطبيعة شعاراته التي تطالب بالحرية والكرامة، ولا سيّما شعاره الخالد «الشعب يريد إسقاط النظام».

وراء الاسم كُتَيبٌ لا يتجاوز ٣٠ صفحة، عنوانه «استنكروا» (ضمن سلسلة: «أولئك الذين يمشون بالاتجاه المعاكس للريح»، لِدار نشر مغمورة في جنوب فرنسا، لا يعرفها تقريبا أحد) ظهر في يناير ٢٠١١ دون أية دعاية إعلامية، وشكّل فجأةً ظاهرةً أذهلت الجميع: بيعت منه مليون نسخة في فرنسا، في ثلاثة أشهر فقط! ترافقت صرخات هذا الكتيّب مع صرخات الثورات العربية: «الشعب يريد إسقاط النظام»، التي اندلعت بالصدفة مع موعد نشر الكتاب وفي تناغمٍ كليٍّ عميق مع فلسفته!

كاتبهُ ستيفان هيسل، ولد في ١٩١٧! كان مقاوماً قديماً للنازية. لخّص في كتابه ما أعطى لحياته هيكلها واتجاهها: الاستنكار والمقاومة.

سرد فيه دوافع الاستنكار والمقاومة في عالمِ اليوم الأكثر تعقيداً من عصر النازية: ارتفاع الهوة بين الفقراء والأغنياء، ديكتاتورية الأسواق المالية، تقليص المكاسب الاجتماعية التاريخية، مأساة فلسطين، الأوضاع البيئية لكوكب الأرض...

«ابحثوا حولكم عن القضايا التي تحتاج للاستنكار والرفض وستجدون أكواماً هائلة. إنسانية الإنسان تكمن في رفضه كل ما يستدعي الاستنكار»، كما ينطوي عليه لبّ الكتاب.

قوّة الاستنكار تكمن في سلميّته: تحدّث هيسل مثلاً عن روعة مسيرات أهل «بلعيد» في الأراضي المحتلة الفلسطينية، كل جمعة، نحو الجدار العازل الذي يرفضونه، دون استخدام القوة، بدون رمي حجارة... سخر بقوّة من تسمية دولة إسرائيل لهذه المسيرات السلمية، بـ «الإرهاب اللاعنفي»! «يلزم أن يكون المرء إسرائيلياً ليسمي عدم العنف إرهاباً»، كما يقول.

«ينبغي اليوم، مثل الأمس، ممارسة الإنسان لرفضه واستنكاره، ضمن شبكةٍ اجتماعية متفاعلة»، يضيف.

استمرت حركة المستنكرين بعد ذلك، وأثّرت أخيراً إيجاباً في التغييرات السياسية العميقة التي عرفتها قيادتا اليونان وإسبانيا.

وفي ١٧ سبتمبر من نفس العام الخالد ٢٠١١، اندلعت في أميركا مسيراتٌ واعتصامات في تخومِ وول ستريت (مبنى البورصة الأميركية، قدسِ أقداس قوى المال وسادة هذه الحضارة الجديدة)، متأثرةً ببدايات الربيع العربي وحركة المستنكرين الأوروبية، وعلى نفس طرازهما.

أطلقت الحركة على نفسها: «نحن الـ ٩٩٪» (الذين لا يقبلون جشع وفساد الـ ١٪، كما يقول عنوانها الرئيس)، ولخّصها شعار: «لِنحتل وول ستريت!».

شاركت في مسيراتها أسماء كبيرة كنعوم شومسكي وسلمان رشدي، المخرج مايكل مور، والنوبلي في الاقتصاد ستيجلتس الذي حثّ على الرفض والاستنكار لأننا «ندفع ثمن أخطاء أسواق المال».

عدّة أفلام وثائقية تُعبّر عن حلمِ «لِنحتل وول ستريت!»، منها:

https://www.youtube.com/watch?v=u-p3zt8hP-g

وآخرها الفيلم الوثائقي للمخرج الإيراني أمير أميراني «نحن الكثيرون» الذي عُرِضَ أخيراً في بريطانيا، ويستحقّ دراسةً كاملةً.

ونحن العرب، ما موقعنا من الإعراب اليوم في هذه الحضارة الجديدة؟

القيم المظلقة لكلّ المؤشرات السلبية: زيادة الأميّة، تدهور المعيشة، انهيار مستوى التعليم، جثوم الظلامية، ضعف القوى التقدمية، تدمير الذات... كلها جميعاً، زاد ارتفاعها على الصعيد العربي بشكل عام، في السنوات الأخيرة، ولا سيما بعد دخول القوى الظلاميّة المتطرفة على خطّ ثورات الربيع العربي!

ومع ذلك، ما أحوجنا اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى للمقاومة على كلّ الصعد، ولِمشروعٍ حضاريٍّ تنويريٍّ يلتفّ حوله الجميع، يوقف سقوطنا التراجيدي هذا خارج العصر!

فكما تقول آخر عبارة في كتاب ستيفان هيسل: الإبداع مقاومة، والمقاومة إبداع.

الزمان: القرن الخامس عشر. على يساري قارة أوروبا التي أباد أكثرَ من نصفِ سكّانِها الطاعونُ الأسود. تلتهمها حروبٌ دينيةٌ وأهليةٌ لا تتوقف. جهلٌ عميم وظلاميّة داكنة تطمُّ كل أصقاعها الكئيبة الجائعة.

الحضارة في الجهة اليمنى منها، حيث الإمبراطورية العثمانية التي تتوسع من القوقاز شرقاً حتى الجزائر غرباً.

تتكئ هذه الحضارة على تراث علمي مشعّ بدأ من «بيت الحكمة» في بغداد في القرن التاسع حيث تُرجِمَ تراثُ الإغريق وفلسفتُهم للعربية، وقُدِّمَ مشروحاً للعالَم أجمع في صيغةٍ واحدةٍ.

«عرفنا الفلسفة بفضل الإسلام!»، سيقول لاحقاً روجيه باكون.

اخترع الخوارزمي منذ فجر هذا القرن الذهبي علمَ الجبر (يستخدم العالم أجمع هذه التسمية العربية من وحي كتابه: الجبر والمقابلة). وارتبط اسمهُ أيضاً بأهمّ وأنبل كلمة في علم الكمبيوتر اليوم: Algorithme، الخوارزمية. (أي طريقة حلّ الإشكاليات بمنهجٍ دقيقٍ ولغةٍ محدّدةٍ يمكن أن تستوعبها الآلة)، كما شرحناها في فصل: «ماذا لو استيقظ الخوارزمي؟».

تلاه ابن الهيثم الذي ألغى مسلمات خاطئة قديمة في علوم البصريات واستبدل بها نظريّاتٍ حديثة تستند إلى تجارب مختبرية عبقرية جعلته رائد علمهِ حتى أمدٍ قريب.

تواصَلَ الازدهارُ الحضاري بفضل عدد آخر من الأسماء العظيمة اللامعة في كل مجالات العلم والأدب...

كانت حضارتنا هذه في القمّة عسكريّاً أيضاً: وصلت إلى جنوب أوروبا منذ بداية القرن الثامن، وإلى تخوم الصين شرقاً. حاصرت عاصمةَ النمسا، فيينا، في ١٦٨٣، وكادت تسقطها لولا خطأ في توقيت موعد الهجوم!

السؤال الذي يسكنني: كيف ولماذا فقدت هذه الحضارة زمام التفوق، قبل أن تتمزّق وتنهار، حيث لم يخرج عالَمُها العربي من غيبوبةِ لكمةٍ قاضية حتى اليوم؛ فيما صعدت الحضارة الأوروبية من الحضيض، وأمسكت أذرعها الأخطبوطية اليوم بكل مقاليد الكوكب الأزرق؟ متى بدأ ذلك تحديداً؟

تُهمُّني هذه اللحظة المفصلية، تستعمرني، تستحوذُ على كل عصبونات

دماغي!
لنحاول، برفقة كتاب نيال فريغسون: «حضارات»، أن نستحضر على تلفازين افتراضيين متجاورين سيرورة تطوّر الحضارة الأوروبية (في التلفاز الغربي)، والحضارة العثمانية (في التلفاز الشرقي)، منذ تلك اللحظة القدريّة الحاسمة!
سنرى في التلفاز الغربي: عرف الغرب في نهاية ذلك القرن الخامس عشر مطبعة غوتنمبرغ (الذي طوّر عبرها المطبعة الصينية). تعمّمت خلال عقود قليلة هذه المطبعة على أهم مدن الغرب. طُبِعت عشرات آلاف الكتب الدينية أوّلاً، ثم كتباً معرفية مختلفة، ولا سيما كتاب «العناصر» لأقليدس... ارتفع حينها بشكلٍ ملحوظ مستوى التنمية البشرية في المدن التي انتشرت فيها المطابع...
ماذا نرى في التلفاز الشرقي؟
مُنِعت الطباعة بقرار عثماني رسمي في عام ١٥١٥! لم تصل المطبعة إلى بيروت مثلاً إلا في القرن الثامن عشر.
رفض النظام العثماني مواكبة حركة الزمن تحت شعار رجعيٍّ غريب يقشعرّ من هول ظلاميته جلدي: «حبر العالِم أقدس من دم الشهيد»! (يقدّسون دم الشهيد حدّ التأليه عادةً، لكنهم يبيعونه في سوق النخاسة من أجل تبرير منع الطباعة!).
لعلّ لحظةَ نشوء المطبعة في أوروبا، ومنعَها بالمقابل في الإمبراطورية العثمانية، هي اللحظة المفصلية التي بدأ فيها سقوط إحدى الحضارتين، وصعود الأخرى. لأن العالَمَ تغيّر تماماً إثر ذاك، إذ لم تعد البشرية تعيش في عصر «من ضرب غلب»، ولكن «من كتب غلب»، قبل أن تنتقل اليوم إلى عصر «من رقمن هيمن»!
تعود إلى التلفاز الغربي لترى تطوّراً حضارياً كلياً مع إطلالة القرن السابع عشر وحتى موعد الثورة الفرنسية، تُلخّصه كلمتان قلبتا الكرة الأرضية رأساً على عقب: الثورة العلمية!
تتابع أكثر من ٣٠ اكتشافاً جوهرياً خلال تلك الفترة ظهرت في غرب القارة الأوروبية لا غير، وقّعها: غاليلو، نيوتن، فيرما، باسكال، لافوازييه، وغيرهم. تُرافِقها أكاديمياتٌ علميةٌ تتأسس. تنافسٌ في الاختراع. تحفيزٌ يوميٌّ على تطوير البحثِ العلمي...
أحد تلك الاكتشافات الثلاثين له تطبيق مباشر في المجال العسكري: مُنحنى حركة قذيفة المدفع ليس خطياً، بل قوسيٌّ يمكن حسابهُ رياضياً، وتوجيههُ في ضوء درجة مقاومة الهواء، بحيث تصل القذائف إلى غرفة

نوم قائد القلعة التي تحمي عساكرَ الدفاع عن مدينة، وتدمّرها كلياً!
لإدراك مقام العلم في الحضارة الجديدة، يكفي استدعاء لحظة موت نيوتن: عُرِض جسدُه خلال ٤ أيام في دير ويست مينيستر قبل أن يَحمِل جثمانَهُ على أكتافهم إلى القبر دوقان (مِلِكا منطقتين)، ٣ نبلاء، واللورد رئيس الوزراء!
بعد عودته إلى فرنسا، كتب فولتير الذي حضر حفل التأبين:
«رأيت بروفيسور رياضيات، لمجرد كونه جيداً في مجاله، يواري جثمانه الثرى كملك، ينحني له شعبه وفاءً وإجلالاً».
تنتقل إلى تلفاز الشرق. ماذا ترى؟
خلال كل تلك الفترة لم تترجم الإمبراطورية العثمانية من كتب العلوم الغربية غير كتاب واحد! لم تشيّد صرحاً علمياً واحداً غير مرصد العالم السوري تقي الدين في إسطنبول، لكنها هدّمته بعد سنةٍ من بنائه، حسب توجيهات فتوى دينية، بحجّة «التدخل في أسرار الله»!
وقف الفقهاء هكذا عائقاً في وجه التطوّر والدخول في عصر الحداثة. ظلّ الحاكمُ العثمانيُ أسيرَ عقلية الجواري ومؤامرات التصفيات السياسية بين الورثة سعياً للحكم. تدهورت الإدارة المدنية وأرشيف إحصائيات السكّان...
وفي الغرب؟ الحاكم، كفريديريك الثاني في بوستدام، يمثّلُ العكسَ النموذجيَّ للسلطان التركي: تنظيم، عمل، توسع، ثقافة، نشرُ علميٍّ واسع، استخدام للاكتشافات العلمية في اختراع سلاح مدفعية متحرّك فعّال جديد...
ثمّ بدأ قرن التنوير وفصل الدين عن التعليم. تحرّر إثره البحث العلمي والفكر. خطا الغرب بعد ذلك خطوات عملاقة نحو الديموقراطية والحداثة، ثمّ الثورة الصناعية...
ماذا ترى في تلفاز الشرق؟
تحجّرُ وتعليمٌ متخلّفٌ يعلم الطالب كيف لا يفكر. انهارت الإمبراطورية العثمانية تدريجاً بعد هزيمة فيينا، وظلّ العالم العربي حتى الآن خارج الحضارة، أسير ثقافة الظلاميين واستبداد الطغاة!
واليوم، في عصر الرقمنة؟
يكفي إغلاق التلفازين وفتح شاشة الإنترنت: اتساع الهوّة بين الحضارتين أكثر تراجيديّةً بكثير، لأن الرقمنة أضافت إلى مارد الغرب جناحين، فيما أُصِيبث زعانف سلحفاة حضارتنا بالشلل، ولم يتمكّن رأسها بعد من الخروج من الصدفة!

فبوّابات المعارف بلُغات الغرب تكتظ اليوم بمليارات المواد العلمية والمعرفية، فيما العربية تفتقر إلى أهمّ كلمات المعارف الحديثة، ولم تعد تُستخدم أصلاً لِكتابة العلوم.

لو بحثت مثلاً عن هذه الكلمة الجوهرية Entropy، ستجد لها أكثر من خمسين استخداماً في علوم الطاقة الحرارية، الرياضيات، المعلوماتية والكمبيوتر، الاقتصاد، العلوم الاجتماعية، الموسيقى... أحدها في غاية الجوهرية، يتأسس عليه القانون الثاني للديناميكا الحرارية.

تمدّك موسوعة ويكيبيديا مثلاً بفروع شجرة المعارف المرتبطة بهذا المفهومِ الموسوعة، فيما لا تجد مقابلاً أو أثراً له في العربية، ولا حتّى ترجمة بلغة الضاد لصفحات ويكيبيديا الخاضة به (باستثناء واحدة)!

حالهُ حالُ «المتعرّف الضوئي إلى الأحرف» (OCR) الذي يُحوّل صورة السكانير لأي كتاب إلى نص رقمي، والذي تمتلكه كل لغة (عدا العربية حتّى الآن!)؛ وهلمّ تأخّراً وغياباً!...

وبشكلٍ عام، فإن توقّعات كل مكاتب الدراسات الجيوسياسية لدور بلدان العرب في المستقبل الحضاري للكرة الأرضية خلال العقود القادمة تراه يكمن في:

١) بيع البترول.

٢) حماية حدود أوروبا وإسرائيل من هجرة فقراء العالم وجياعه.

أي إننا لن نكون أكثر من بائعين لثروة طبيعية مصيرها الزوال، وكلاب حراسة لا غير.

فيما سيكون لتركيا موقعٌ ما من الإعراب في سباق الحضارات، بفضل تطويرها للصناعات الاستهلاكية، وسيكون لإيران أيضاً موقعٌ ما بفضل تطوّر البحث العلمي فيها في مجالات محدّدة كالطب.

لا يوجد في منطقتنا بلدٌ واحدٌ استوعب بعمق أن من كتب غلب، ومن رقمن هيمن؛ بنى جبروته بفضل عشق التعليم والبحث العلمي ليصير في مقدّمة العالم في عددٍ من المجالات الاستراتيجية رغم عدد سكّانه الضئيل، ولينال باحثوه جوائز نوبل في الفيزياء والكيمياء والطب والاقتصاد؛ أطلق سفنهُ الفضائية الخاضة لمراقبة غرف نوم قادة الشرق الأوسط... إلا إسرائيل!

خيارات بودلير اليوم

(أو: كيف تثري حياتك الرقمية؟)

أستحضر عبارة أمين معلوف: «في عالَم اليوم لا أشعر بأنني في معسكر المنتصرين، بل في معسكر المهزومين الذين خابت آمالهم.وشعوري بأن العالَم الذي حلمتُ وأحلم به ليس هو العالَم الذي أراه الآن».

أشاركه الشعورَ نفسَه والخيبات، منذ أكثر من عقدين. إذ نحن اليوم في عالَمٍ جديد يسوده تحالف قوى المال والتكنولوجيا الذي يُهيمن على مختلف مجالات الحياة السياسية والثقافية والعلمية والاقتصادية والبيئية: لا صوت يعلو فوق صوت مصالح أسواقه المالية التي لا تعرف الحدود الجغرافية، ولا يستطيع أحد أن يعيش خارج فضائه الرقمي الذي حوّل الكوكبَ الأزرق إلى قريةٍ صغيرة، يقودها وفق أهوائه ومصالحه نحو المجهول.

كيف نتعامل مع هذا العالَم الجديد، في المجال المعرفي الرقمي الذي يهمّني هنا؟

ثمّة أكثر من حل. أحدهم على طريقة الشاعر الفرنسي «رائد الحداثة» شارل بودلير. كان عمره ١٥ عاماً في عام ١٨٣٦عندما ظهرت أوّل الصحف الورقية: أربع صفحات تختلط فيها الأخبار، الدعايات، أرقام البورصة...كانت حينها ثورة تكنولوجية بمستوى الثورة الإنترنيتية اليوم.

قرّر بودلير الانتحار آنذاك، كما لاحظ المتخصصون في سيرته! قال: «لم أعد أطيق حياتي بعد الصحف الورقية»، «أريد الهروب إلى عالَمٍ لم تظهر فيه بعد هذه الصحف».

لماذا؟

قال: «كل صحيفة، من أوّل سطرٍ إلى آخر سطر، نسيج من الكوارث: حروب، جرائم، سرقات، تعذيب، جرائم أمراء، جرائم شعوب، عربدةُ بشاعاتٍ كليّة».

هكذا جزّم بودلير آخر إنتاجات الحداثة: الصحافة الورقية، واعتبرها رمزاً للانحطاط الأخلاقي لهذا العالَم. لكنه كان ينشر فيها، يستثمرها لتعميم إبداعاته، وإن كان يكرهها حقّاً.

فالصحافة الورقيّة كانت تعني بالنسبة إليه: نهاية الشِّعر والجمال، وانتصار النفعي الفجّ!

ماذا كان سيعمل بودلير لو عاش في زمن رونالد ريغان ومارغريت تاتشر الذي لعب دوراً حاسماً في انتصار الرأسمالية المتوحشة في عالمٍ ذي قطب

واحد، وفي تأسيس مداميك حضارتنا الجديدة؟ لأن الليبرالية الاقتصادية اكتسحت حينذاك العالَم، وأسست عروةَ تحالف قوى المال والتكنولوجيا الذي يقود اليوم كل مناحي الحياة.

ماذا كان سيعمل بودلير لو حضر خلال تلك السنوات بداية الجدل الهائل الذي عرفته المختبرات العلمية حول مواضيع أبحاثها: بين البحث النظريّ الذي لا يهتم إلا بتوسيع المعارف الإنسانية، أو البحث التطبيقي الذي لا يهتم إلا باحتياجات العالم الصناعي؛ أي بين الجميل أو المفيد، بين الفن أو التقنية، بين الشِّعر أو الأسواق الاقتصادية، بين السمو والتحليق في أقصى المعرفة الإنسانية أو عبادة الدنيوي لا غير... حُسِم ذلك الجدل لسوء الحظّ بشكلٍ معادٍ لاختيارات بودلير، لمصلحة البحوث التطبيقية، النفعي، السوق، الدنيوي... انتصر الفريق المناصر للملموس ذي المردود المباشر.

مواضيع الأبحاث العلمية التي تجد الدعم الاقتصادي اليوم هي المواضيع التي تُحدِّدها الشركات الكبرى والأسواق، كل عام، وفق مصالحها وحاجاتها المتجدِّدة. ومواضيع الأبحاث العلمية التي تدعمها الأقاليم والمحافظات ترتبط بمدى مردود هذه الأبحاث على نشاطاتها الإنتاجية والاقتصادية المباشرة.

ماذا كان سيعمل بودلير وهو يرى أن العالَم لم يعد هو العالَم بعد ١٩٩٥ الذي كان عاماً فاصلاً في كل شيء، وبدايةً لحضارةٍ إنسانية جديدة مذهلة مدهشة، لكنها تهرول نحو المجهول: الإنترنت برسائله الإلكترونية ومدوّناته، والمعرفة الرقمية بـ«روابطها النصية الفائقة» وتراكمها اللانهائي، خرجت جميعها طازجة من أفران المختبرات الكمبيوترية (التي جهّزت ذلك خلال سنوات طويلة) لتصير بعد ذلك العام مِلكاً لِلجميع، والجميعُ مِلكٌ لتحالف قوى المال والتكنولوجيا، الذي أضحى يهيمنُ بغطرسةٍ وتبجّح على كلِّ مناحي الحضارة الإنسانية؟

ما الذي يلزم أن تعمله أنت، عزيزي القارئ، إذا كنتَ في سفينةٍ فضائية هائلة تقودك إلى كوكبٍ غير الكوكب الذي تحلم به؟

ثمة ثلاثة اختيارات: أن ترمي بنفسك من النافذة على طريقة رغبة بودلير في صباه. أو أن تجلس في ركنٍ في السفينة تبكي وتبكي وتعيش على الأشواق والسويداء، على طريقة «قفا نبكي»، تتذكّر الأيام الخوالي، أيام البيداء والبعير وكثبان طي. أو أن تتسكّع في أرجاء السفينة الفضائية، تنهل من مكاتبها، تتعلّم طرق حركتها، وتحاول قدر ما تستطيع الإسهام في توجيهها، كما فعل بودلير نفسه مع الصحافة الورقية وهو يستثمرها، أو مع التصوير الفوتوغرافي الذي كرهه حقاً، وإن كانت صورَه أوسم صور أهل

زمانه.

هذا الطريق الثالث اختياري. أحاول في سلسلة فصول هذا الكتاب حثّ القارئ على إثراء حياته الرقمية ثقافياً، وفتح ممارسات رقمية وعوالم جديدة. يؤسفني في الحقيقة أن الكثيرين مرتبطون بالإنترنت طوال اليوم، منذ عقود، لكنهم لا يستخدمونه إلا لإرسال الإيميلات، لسماع الموسيقى، لقراءة منشورات الفيسبوك ومشاهدة الصور.

يبدّدون حياتهم فيه دون مردود معرفي عميق يستحق الذِّكر. ومع ذلك، الثالوث الشهير الذي يرافقهم في الشارع والسرير والحمّام: الآيفون، الآيباد، والقارئ الآلي «كندل»، يسمح بعمل أشياء كثيرة أهمّ من تلك الممارسات الأوليّة، وبإمكانه أن يكون مفتاحاً لِتطوير الذات واقتحام العالم.

مثل غيري، لا يفارق هذا الثالوث حقيبة ظهري لحظةً واحدة، بجانب بطارية صينية صغيرة تسمح بشحن هذه الأجهزة الثلاثة معاً قبل نفاد تعبئتها. بطبيعة الحال، كان بإمكان ثلاثتهم أن يكونوا في جهازٍ واحد، لكن ما يقود الشركات الصناعية هو البحث عن الربح وليس وزن حقائب ظهورنا وراحتنا المثلى، وإن كان وزنهم جميعاً خفيفاً نسبياً مع ذلك.

بإمكان المرء لو استخدمهم كما يلزم أن يتطوّر بشكل سريع، وتكون الكرة الأرضية بأطراف أصابعه: يتعلم اللغات، ينهل من أهم موسوعات الدنيا ويغيّر من محتواها ويضيف إليها ما يشاء بنفسه، يتابع من بيته أرقى وأهم المحاضرات في أهم الدور الجامعية، يرتبط بملايين الكتب بطريقة جديدة منهجية وبكل الصحف والمجلات، يستخدم عدداً هائلاً من التطبيقات الكمبيوترية وتكون له تجربة في صناعة المحتوى الرقمي الفني والثقافي ترتبط باسمه أمام العالم، يتابع جديد المقالات والدراسات والأخبار الكونية، يوزّع ملفاته على «سحب الكمبيوترات»، حيث يمكنه قراءتها متى ومن أين أحب، ويصنع برامجه الكمبيوترية إذا أراد بلغاتٍ تعبيرية ذكيّة...

فالعالَم القادم سيخرج من صلب وترائب الأجهزة الإلكترونية. هو عالم السيارات دون سائق، السفن الفضائية التي توزع الإنترنت للجميع، الذكاء الاصطناعي الجبار، الروبوتات الذكية، السيارات الطائرة...

لعل من الأفضل البحث عن الانتماء لهذا العالَم من الآن، ومن موقعٍ أفضل.

السؤال الذي سأحاول الردّ عليه في عدّة فصول قادمة في هذا الكتاب: كيف تثري حياتك الرقمية؟ لنفكّر في ذلك ملياً أوّلاً.

متى سيكتب الكمبيوتر روايته الأولى؟

خلق الإنسانُ الكمبيوترَ على شاكلته، بِبِنية دماغِه، وأرادهُ منذ بداية البدايات أن يكون جهازاً ذكيّاً يستطيع أن يتعلّم لوحده، يستنتج لوحده، ينتصر في الألعاب ويصنع النظريات لوحده...

مثل كلّ أبٍ عاشقٍ لابنه، أراده أن يكون يوماً أذكى وأقدر منه!

ففي عام ١٩٥٦ والكمبيوتر طفلٌ رضيع، اجتمع علماء الذكاء الاصطناعي (ذكاء الكمبيوتر) في MIT وقرّروا أن يكون للكمبيوتر بعد أقل من نصف قرنٍ (في عام ٢٠٠٠) ذكاء يتجاوز ذكاء الإنسان!

قرارٌ لا يخلو من الطوباوية: يصعبُ مقاربة دماغٍ تشكّل خلال ملايين السنين من التطور والانتقاء، فما بالكم بتجاوزه في نصف قَرن!

بدأت بعدها بين ذكاء الإنسان والذكاء الاصطناعي حربٌ غرامية شعواء بين عاشقين حميمين. كل قلاع الأوّل تتساقط قلعةً إثر قلعة، لمصلحة الثاني.

من ينسى أحزان كاسباروف، قبل نحو عقدين من اليوم، في ١٩٩٧ تحديداً، بعد أن هزمه برنامج IBM: ديب بلو؟

قبلها كانت مباريات العالَم في الشطرنج تمثّل لحظات الذكاء المطلق. يتابعها الإنسان بخشوع، ويعتبر أبطالها من فيشر إلى كاربوف وكاسباروف أيقونات الذكاء البشري! بعد ١٠ سنين فقط من انتصار ديب بلو، لم يعد كاسباروف وأمثاله قادرين على مواجهة برنامج شطرنج مجاني على أي كمبيوتر منزلي!

صارت المباراة بين بطلي العالم البشري والكمبيوتري، أشبه بمباراة بين بطل العالم في الملاكمة بوزن الريشة، وبطل العالم بالوزن الثقيل.

السبب: دماغ الكمبيوتر يتطوّر بسرعة العِلم، أي بسرعة الضوء. يكتسح كلّ المسافات.

ما هي موازين القوى في هذا الصراع الأصمّ بين الأب والابن؟

الدماغ البشري (الأب) والكمبيوتر (الابن) ماكينتان لهما بنيتان متشابهتان.

الملَكة الأولى: الذاكرة أصغر عند الأب من الابن بكثير، ولا سيما إذا كان الأخير بحجم كمبيوتر عملاق.

الثانية: سرعة إجراء العمليات الأولية أكبر عند الأب بكثير من سرعة حسابات كمبيوترٍ شخصيٍ منزلي، لكنها أقلّ بكثير من كمبيوتر عملاق

تتراض فيه فيالق من «وحدات المعالجات المركزية» (بروسيسور)، أو من شبكة هائلةٍ من الكمبيوترات التي تعمل معاً ككمبيوتر واحد.
غير أن قوّة الأب وجبروته اليوم تكمن في الملَكة الثالثة: خوارزميات (طرائق عمل آلية) شبكات عصبونات دماغه التي تشكّلت خلال سبعة ملايين سنة من التطوّر البيولوجي للإنسان، ويجهل العلم حتى الآن معظم أسرار عملها.
لزم أن ينتصر الابن على الأب، في البدء، بفضل الملَكتين الأولى والثانية فقط، وبفضل ما يتيسّر له من كشف أسرار الثالثة التي تتجلّى له يوماً بعد يوم.
ففي لعبة «الأواليه» الأفريقية مثلاً (١٢ ثقباً على وعاء مستطيل، و٤٨ حصاة) انتصر الكمبيوتر على الإنسان بفضل ملَكتيه السابقتين فقط: فلقد برمج وحسَبَ خلال ٥١ ساعة «شجرة كل النقلات» الممكنة بين أي لاعبين في هذه اللعبة، واحتفظ بها في ذاكرته.
تحتوي هذه الشجرة الضخمة على كل الافتتاحيات الممكنة، وكل الردود الممكنة على كل افتتاحية، وكل الردود الممكنة على كل رد، وهكذا دواليك.
وعندما لعب الكمبيوتر، بعد تشييد تلك الشجرة العملاقة والاحتفاظ بها في ذاكرته اللانهائية، مع بطل العالَم في الأواليه، كان يرد على نقلاته عابراً فرعاً من تلك الشجرة يقوده إلى النصر أو التعادل في أسوأ الاحتمالات.
اختلف الأمر مع الشطرنج:
لم يكن ممكناً حساب شجرة كل النقلات الممكنة في الشطرنج لضخامتها: تحتاج لأبديّةٍ وعددٍ لا نهائيٍ من الكمبيوترات لحسابها. إذ إن عدد النقلات الممكنة في الشجرة يفوق عدد ذرات الكون: أكثر من ١٢٠ صفراً على يمين الواحد!
لجأ الكمبيوتر إلى استخدام استراتيجيات تسمح له باختيار فروعٍ مهمة فقط من تلك الشجرة، في ضوء مجموع النقلات الممكنة لهذه القطعة الشطرنجية المهمة أو تلك، ومحاولة استشراف سلسلة النقلات والنقلات المضادة مسبقاً انطلاقاً من كل نقلة، بعد التوغّل في أعماق تلك الفروع المهمة مسافات تتجاوز مقدرة دماغ الإنسان الاستشرافية.
انتصر الذكاء الاصطناعي هكذا بفضل ملَكتيه الأولى والثانية، وبفضل بعض الاستراتيجيات الذكية. بقت أمامه لعبةٌ واحدة أجّل الخوض فيها للعقود القادمة، نظراً إلى صعوبتها وأهميتها: لعبة «الغو» حيث تمثل شجرة أوضاع الشطرنج بالنسبة إليها قطرة في محيط. إذ يفوق حجمُ

شجرة كل النقلات الممكنة في «الغو» حجمَ شجرة نقلات الشطرنج الممكنة بواحد وعلى يمينه خمسون صفراً من المرّات!

ثمّ ها هو، في منتصف مارس ٢٠١٦، ينتصر على الكوري لي سيدول، بطل العالم في «الغو»، بنحو مفاجئ لكلّ التوقعات، فاتحاً صفحة جديدة من تاريخ الصراع بين الذكاء الإنساني وذكاء الكمبيوتر، ليس فقط لأن لعبة «الغو» آخر القلاع التي لم تكن مبرمجةً للسقوط قبل زمن من الآن، لكن لأن انتصاره هذا «نوعيٌ» جداً، إذ مارس فعلاً للوصول إليه ملَكات الإنسان نفسه «التعلم العميق» التي سنعود إليها في فصلٍ قادم: «أن تتعلّم كيف تتعلّم!».

ماذا بقي للإنسان؟ أن يمارس لعبة كرة القدم وينام؟! حتى هذه المباريات لن يتركها الكمبيوتر للإنسان مستقبلاً. ففي بعض المؤتمرات العلمية تدور مسابقات سنوية في كرة القدم بين فرق الروبوتات الذكية التابعة للمختبرات العلمية الدولية! لعل مصير كبار لاعبي كرة القدم مستقبلاً سيشبه مصير كاسباروف، وهو ينهزم من برنامج مجاني في كمبيوتر منزلي!

هل يعني كل هذا أن ذكاء الكمبيوتر تجاوز ذكاء الإنسان اليوم في كلّ المجالات؟

كلا، لم نصل بعد في هذه اللحظة التاريخية التي هرمنا في انتظارها، والممكنة جداً ذات يومٍ قد يكون أقرب مما نتصوّره!

ربما تجاوز الكمبيوتر الإنسانَ اليوم في «الذكاء الموجّه»، القادر على أداء هذه المهمة النبيلة أو تلك: مباراة ألعاب تقليدية، قيادة سيارة دون سائق، تشخيص أمراض وعطل آلات، أداء مهمات منزليّة أو عمليات جراحية معقّدة... أو غير النبيلة كالروبوتات القاتلة التي انتفض شومسكي وبيل غيتس وستيفان هوينغ في بيان وقّعه كثيرون أيضاً لمنع إنتاجها.

أمّا في «الذكاء غير الموجه»، فما زال الذكاء الاصطناعي في بدايات جنينية بالمقارنة بالإنسان. أقصد بالذكاء غير الموجه ذاك الذي يكتشف به الروبوتُ الكمبيوتري محيطَه الجغرافي والاجتماعي، ويتعلم كل شيء لوحده دون تدخلٍ مسبقٍ من الإنسان.

باستعارةٍ موجزة، في مسابقةٍ لاحتلال جبلٍ مجهولٍ ما، يستطيع الذكاء الاصطناعي حالياً أن يوجّه مقدراته ويطير للوصول إلى قمة الجبل ويحتلّه أسرع من الإنسان، لكن الإنسان وحده يستطيع احتلال الجبل حجرةً حجرة، والتنقّل في سفوحه وكهوفه وأدغاله قبل الوصول ببطءٍ إلى القمة.

لذلك، ما زلنا بعيدِين عن العصر الذي ينزل فيه الروبوت إلى الشارع لِيكتشف العالم لوحده، يتعلّم من كل ما يراه، ويكتب روايةً أدبية من عمق أعماق تجاربهِ ومخيلته الشخصية!

لا أدري متى سيكتب الروبوت روايتَه الأولى هذه، ومتى سيبدأ عصر جوائز البوكر التي لا تُعطى إلا للروبوتات الأدبية، لأن ملَكات الخيال الإنساني بالنسبة إليها بمثابة ملكات كاسباروف العجوز المندحر أمام برنامج كمبيوتر منزلي.

في ٢٠٤٥؟ في ٢١٢٧؟...

كل ما أعرفه هو أن العِلم يتقدم بسرعة الضوء، دون ضجيج، وأننا نقترب فعلاً من عصرِ القابض فيه على جهله كالقابض على جمرة!

أن تتعلّم كيف تتعلّم!

مارس/آذار شهر الشِّعر والدماغ. تنعقد فيه في بعض الدول سنوياً، وعلى نحوٍ متزامن، نشاطات أيّام «ربيع الشعراء»، و«أسبوع الدماغ» الذي يُحتفل به في معظم المدن الأوروبية منذ بضعة عقود.

في العيد الأوّل، يحتفل الإنسان بالشعر، «لغة الآلهة». بها يلوذ من كل الترسيمات، يقاوم الحدود القسرية للّغة البشرية، يتحرّر من قيود الحياة وجبروت الموت... وإن لم يعد الحضور الشعبي للشِّعر طليعياً اليوم، بعد بروز مِلكةِ الأنواع الأدبية، الرواية، التي احتضنت الشعر واحتوتهُ كبُعدٍ من أبعادها التعبيرية.

وفي العيد الثاني يحتفلُ بالدماغ، وعاءِ ومصدرِ الذكاء واللغة والذاكرة والتفكير والتعبير وبقية النشاطات الروحية للإنسان من حبٍّ وأحاسيس ووعي ولاوعي. إذ إن كل هذه النشاطات ليست أكثر من تيارات كهروكيماوية بين شبكة عصبونات الدماغ. يقضي علماؤه حياتهم في تقضيها واقتناصها ودراستها. يمتلكون لذلك اليوم أرهب الآلات: سكانير الدماغ، الذي يلعب دور التلسكوب وهو يكتشف ويراقب الكواكب والمجرات.

الدماغ موتور الإنسان ونواته. تحوطه بقيةُ الجسد، كلُّ بقيتِه بما فيها القلب، كمعطفٍ أو كقشرة. فالقلب الذي ظنّ الإنسان الأول أنه مصدر الحب والكراهية والمشاعر ليس أكثر من مضخة للدم.

نعم، بل يمكن استبدالِ قلب إنسانٍ آخر به. أو، منذ نحو عام، بِقلبٍ صناعيٍّ كامل، يسمح بمواصلة الحياة، وبمشاعرها السابقةِ نفسها بالطبع، من حبٍّ وكراهية. لأن موطنها الدماغ، مصدر كل نشاطات الإنسان الروحية قاطبة، وهيئة أركانها.

هكذا، خلال أسبوع، يهبط منبعُ ذكاء الإنسان من عرشه ليتعزّى للعامة: تُقدّمُ المختبرات للجميع تقاريرها السنوية ومحاضراتها عن آخر ما اكتشفته من أسراره، كلِّ جديدِ علاجاتها لأمراضه، وآخر دراساتها لخريطته، ولمناطق هذا النشاط الروحي فيه أو ذاك.

غير أن هذا الألفا والأوميغا، لم يعد المصدر الواحد الأحد للذكاء اليوم! له منافس صنع جيناته في البدء هو نفسُه: الكمبيوتر و«ذكاؤه الاصطناعي»، وشحنهُ بخوارزميات ذكيّة تحاكي نشاطات شبكة عصبونات الدماغ، وتُعلّم الكمبيوتر كيف يتعلم أن يتعلّم، ويتجاوز لذلك وبذلك كل الحدود!

ولأن التعلّم أحد أهمّ أركان الذكاء، فقد استطاع الذكاء الاصطناعي هزيمة ذكاء الإنسان عشيّة «أسبوع الدماغ» لعام ٢٠١٦ في مباراة «الغو»، محققاً هذه المقولة التي ترفرف في كل بيتٍ منها كلمة «التعلّم»:

«أعلمهُ» الرماية كلّ يومٍ

فلمّا أشتدّ ساعده رماني

وكم «علّمتهُ» نظم القوافي

فلما قال قافية هجاني

«أعلّمهُ» الفتوة كل وقت

فلما طرّ شاربه جفاني

فلقد هزم برنامج ألفاغو التابع لشركة غوغل بطل العالَم الكوري لي سيدول في لعبة «الغو»: أصعب لعب الذكاء المطلق، وفي موعدٍ سابقٍ لكل التوقعات بعقدٍ أو عقدين! قبلها، كان قد هزم الإنسانَ في كلّ اللعب المنطقية الذكية كالشطرنج.

الحقيقة أن «الغو» لعبة صينية قديمة عجيبة، ذات أهمية استراتيجية رئيسة، ظلت بعبع الكمبيوتر لأمد. يلعبها لاعبان على لوحة كالشطرنج، لكن أكبر بكثير: عدد مربعاتها ٣٦١.

قواعد لعبها في غاية البساطة: لكل لاعب حصى بلون خاص به، ويحق له نشر حصاه على نقاط تقاطع الخطوط الأفقية والرأسية للّوحة. إذا حوصرت بعض قطعِهِ من قبل الخصم تماماً، تصير بلا فائدة. والفائز هو من تنتشر حصاه غير المحاصَرة على أوسع عددٍ من نقاط تقاطعات اللوحة.

تلخص هذه المباراة بتجريدٍ بسيطٍ وعميق كل الحروب العسكرية والمالية والصراعات التنافسية عموماً، ولها تطبيقاتٌ عديدة في الصحة والمواصلات: فإذا أراد جيشان متنافسان مثلاً نشرَ كتائبهما المدفعيّة على أرضٍ خلاء، واحتلالَ أوسعِ المساحات فيها، يلزم أن يتوغّل كل جيشٍ في تلك الأرض أوسع ما يمكن، ويطوّقُ وحدات الخصم أكثر ما يمكن، تماماً كتوغل لاعب «الغو» وتطويقه لخصمه.

رغم بساطة قواعدها، تعتبر هذه اللعبة أعقد اللعب إطلاقاً. يمكن أن يقضي المرء حياته يلعبها دون أن يسبر أغوارها. يطلَق عليها أحياناً صفة «الباطنية» لشدّة ارتباطها بالحدس والمفاجآت. وثمّة أقسام جامعية متخصصة في كوريا لتعلمها.

لم يكسب الكمبيوتر مباراته هنا ضدّ الإنسان لأنه استخدم سعة ذاكرته لحفظِ «شجرة كلّ النقلات والنقلات المضادة الممكنة» عن ظهر قلب، أو

للبحث الشامل في بعض فروعها عن أفضل حل: يستحيل ذلك لحجمها اللانهائي تقريباً!

ولكن بفضل برمجة «شبكة العصبونات الاصطناعية العميقة» التي تحاكي شبكة عصبونات الدماغ البشري وهي تتعزفُ إلى ما تراه عين الإنسان.

ما هي هذه الشبكة؟

عندما ترى صورةَ الكعبة أمامك، تعرفُها لأن ٥٠ منطقة في دماغك (يعرف العلم مواقعها الجغرافية في خريطة الدماغ) اشتغلت معاً ووصلت إلى النتيجة. فيها شبكات عصبونات تتعزف إلى الزوايا في الأشكال الهندسية، وأخرى إلى الخطوط المستقيمة، وأخرى إلى اللون، وأخرى إلى الكساء ونوعه.

تتفاعل هذه الرؤيات الجزئية باتجاهٍ تصاعدي: تتعزَّف بعض المستويات العليا من تلك الشبكات إلى مربعٍ من أوجه الكعبة، وأخرى عليها كليّة كمكعبٍ ذي حجمٍ ولونٍ وبنيةٍ محدّدة...

كذلك تتعزف شبكات العصبونات الاصطناعية في برنامج ألفاغو إلى هذا الوضع أو ذاك أثناء المباراة: لا تراهُ كما ترى قطّةٌ لوحةً فنيّة، لكن تدركهُ وتحلّلهُ وتتعزفُ إلى بنيته ونوعيته، وعلاقته بـ٣٠ مليون وضعٍ في ذاكرة غوغل لأهم مباريات كبار أبطال العالم فيه، يمكن أن تستلهم منهم بعض الردود الجيّدة.

ذلك لا يكفي لأنه لن يسمح للكمبيوتر بهزيمة أبطال العالَم، لكونه يلعب مثلهم. لذلك لعب ألفاغو ضد نفسه ملايين المرّات لِيُحسّن مستواه الذي انتقل بفضل ذلك من ٣٠٠ دولياً في فترة زمنية قصيرة إلى الأوّل!

هكذا، الجديد النوعي الذي سمح لألفاغو بالنصر هو تعلُّمُ التعلُّمِ من وحي استلهام عمل دماغ الإنسان، وليس نقله آلياً. ولذلك أدى أثناء مبارياته ضد بطل العالم نقلات عبقرية ومخالِفة للعادة لم تخطر ببال إنسان. بل كان يُرفض بعضه أو يُستهجن من قبل المتخصصين!

لو لجأ الكمبيوتر إلى التقليد الآلي للدماغ، كتقليد الطيور في أسطورة «عباس بن فرناس »، لتعثرَ كتعثرِ هذا الأخير. إذ لا تصمَّمُ الطائرةُ مثلاً بأجنحةٍ تتحزك ميكانيكياً أو ريش. لتصميمها، احتاج الإنسان إلى فكرةِ الأجنحة والشكل العام لأجساد الطيور لا غير، وأضاف إليهما الطاقة الثرموديناميكية للانطلاق وعبور المسافات.

كذلك عمل ألفاغو. استخدم «العصبونات الاصطناعية العميقة» ليطير بها، وشحنها بطاقة ثرموديناميكية من ملَكاتِه التقليدية كالذاكرة الكمبيوترية الشاسعة، وما في حوزة غوغل من منجم مباريات كبار الأبطال في «الغو»،

وبعض الخوارزميات الاستشرافية التقليدية التي تسمح للكمبيوتر بعبور فروعٍ من شجرة النقلات والنقلات المضادة، حتى عمقٍ بعيد يتجاوز مقدرة الإنسان...

الممتع جداً أن الكمبيوتر لم يحتفل بانتصاره بالضجيج والسكرات. العِلمُ متواضعٌ لا يطمح إلا بتجاوز نفسه.

ها هو غير سعيدٍ لأنه انتصر خلال ساعات عديدة، هو الذي لعب ملايين المباريات الذاتية ليتعلّم! يرى اليوم أنه لم يكن ذكياً على نحوٍ كاف: كان بإمكان هذه الملايين سحق لي سودول بأسرع من ذلك.

يعتبر آليةَ عمله حالياً أشبه بأحصنةٍ تستخرج الفحم من منجمٍ عميقٍ عبر حبال، ويرى أنه بحاجة إلى آليةٍ أفضل تربطه بالمنجم، وتسمح له قريباً بسحق أبطال العالم بأسرع وأفضل من هذا الانتصار!

هذا هو العلم، بسيطٌ متواضع، عنودٌ وطموحٌ على الدوام!

بعد أتمتة محطّات بيع البنزين في فرنسا قبل أكثر من ثلاثة عقود، والاستغناء عن عمّالها ومحاسبيها، شعرتُ بالكآبة والحزن.

تساءلتُ: لماذا اللجوء إلى هذه الأتمتة في مجتمعٍ لا يخلو من البطالة. ولا سيّما أن ضخّ السيارات بالبنزين، في المساء بعد انتهاء دوام عمال المحطات، كان وسيلة تسمح للطلاب الجامعيين بكسب العيش والدراسة.

شعرتُ بالقلق أيضاً، وكأنّ هناك «يداً خفيّة» ترسم مستقبل الحياة البشرية على نحوٍ أنانيٍّ يستجيب لمصالح المهيمنين على الاقتصاد، ويدحرجُ الإنسان رويداً رويداً نحو الهاوية.

ثمّ بعد سنين من ذلك، عندما جرت أتمتة بيع تذاكر المترو والقطارات في المحطات، زاد قلقي لنفس السبب. فضلاً عن أن من قام بذلك هو قطاع الدولة نفسه، لأن المواصلات هنا ملكه وحده.

لو أتمتّت الدولةُ تنظيف الطرقات وتجميع الزبالة مثلاً، واستبدلت الإنسان روبوتات، لما حزنتُ بالطبع، لأن هذه الأتمتة الحميدة ستُعفي الإنسان من أداء مهمات ليست أنيقة.

ثمّ لم تتوقف اليد الخفية عن مواصلة تنفيذ خطّتها: جاء دور أتمتة مكاتب البريد، ليجد الإنسان نفسه أمام الآلة وهو يبعث الطرود المسجلة، ويقوم ببقية المعاملات البريدية.

في كلّ هذه المرافق المؤتمتة تجد نفسك وحيداً، يواجهك جهاز تحشر فيه أوّلاً بطاقة حسابك البنكي (التي يمتلكها المواطن، ولا يمكنه عمل شيء سواها)، قبل أن تُنفِّذ الأوامر التي تنكتب أمامك على الشاشة.

صار كلّ ذلك جزءاً من فولكلور الحياة اليومية في «المجتمعات الآلية». ولا تخطر اليوم ببال إنسانٍ فيها العودةُ إلى الخلف لِمراجعتها، رغم ازدياد البطالة في هذه المجتمعات.

غير أن فولكلور اليد الخفيّة دخل مراحل جديدة أكثر إثارةً (كالمثل الذي سأورده الآن) وأشدّ خطورةً (كأتمتة التجسس على الإنترنت، موضوع فصل لاحق).

الحدثُ المثير الذي وقعتُ في مطبِّهِ أنا نفسي:

كان ذلك في بداية عام ٢٠١٦. انقطع الإنترنت في منزلي فجأة. حاولت الاتصال بالشركة المسؤولة. كان الخط الهاتفي مشغولاً، والرسالة الصوتية المسجلة تقول بإمكان استبدال هذه المكالمة الهاتفية بـ«تشات» (دردشة

كتابية على شاشة الكمبيوتر، عبر الإنترنت).
لجأتُ إلى هذا الحل عبر إنترنت هاتفي المحمول الذي لا علاقة له بخطوط المنزل. بدأت محاوِرتي في التشات بالتعريف بنفسها: سارة، تلتهُ بتوجيه أسئلة متوالية دقيقة عن ماهية العطل، لتشخيص أسبابه.
حوارٌ طويل كان من الأسهل القيام به هاتفياً. أجرت سارة طواله من بعيد بعض الفحوصات للخط الهاتفي لتحديد علّة العطل.
بعد نصف ساعة، جاء ردُّها الفاصل: سبب العطل الحفرُ الجاري لإدخال الألياف الضوئية في الدائرة السكنية، وسيعود الخط بعد أقل من ساعة!
مرّ كل شيء كما يلزم. كان الحوار فعّالاً رصيناً لم تَشُبه شائبةٌ لغوية. ثمّ وجّهت إليّ السؤال الأخير: «السيد حبيب عبد الرب، ألك احتياجات إنترنيتية أخرى؟».
لشيءٍ في نفس يعقوب، سأبرّرهُ بعد قليل، كتبتُ رداً خارج الموضوع. كان من الأجدى أن تقول بعده سارة: «أتسخر مني؟»، أو «هل أنت بكامل حواسك؟»، لكنها قالت: «السيد حبيب عبد الرب: لم أفهم ما تريد، وضّح طلبك». أجبتُ بردٍّ أكثر غرائبية: «أريد أن أعرف ما هي عاصمة اليابان».
عقّبت: «السيد حبيب عبد الرب: سأبعث طلبك للجهات التقنية المختصة، وتستلم الردّ قريباً. شكراً، ويوم سعيد».
لم يخطر ببالي قبل سؤالها الأخير أن أتساءل لماذا أضاعت الآنسة سارة أكثر من نصف ساعة في الدردشة الكتابية (في زمنٍ «الوقت من ذهب»)، فيما كان ممكناً الوصول إلى نفس النتيجة بالاتصال الصوتي في أقل من عشر دقائق، ولا سيّما أن صوت المرأة ليس عورةً هنا، واللجوء إلى الأتمتة ليس حرصاً على وقت المستهلِك، بل لِزيادة ربح الشركات بعد تقليص عدد عمّالها. إذ تكفي رؤية المتاعب الإضافية عند السفر بالطائرات هذه الأيام: تُلزِمك بعض الشركات بطباعة بطاقة الإقلاع في جهازٍ يتعبك بثرثرة أسئلته ويأخذ صورة لجوازك. عليك بعدها بطباعة الملصقات التي توضع على حقيبة السفر، وبتسجيل تأكيد سفرك على الإنترنت يوماً واحداً قبل السفر.
الحقّ أني قبل سؤال سارة الأخير فقط، لاحظت تكرر إكليشات صيغ جملها التي تبدأ بمناداتي باسمي بشكلٍ آليٍّ رسميٍّ جداً: «السيد حبيب...»، رغم أني حاولت أثناء الدردشة خلق سياقٍ حواريٍّ ودّيٍّ رقيق.
لعلّ لذلك كان ردّي على سؤالها الأخير بإجابتين لا علاقة لهما بالسؤال، ليتأكد لي إن كانت سارة إنسانةً حقاً، أو برنامج كمبيوتر!
أعترف بوقوعي بمطب: أعرف أن الكمبيوتر وإن كان يقوم اليوم ببعض

المهمات في غاية الذكاء، مثل هزيمة أبطال العالم في الشطرنج والترجمة الآلية لتقرير مالي أو كتابٍ تقني بشكلٍ جيّد وخلال ثوانٍ فقط، فإنه ما زال لا يستوعب مدلول النص اللغوي حتى الآن (البحوث العلمية في هذا المجال في مراحل جنينية)، ولا سيما إن كان نصاً أدبياً لا يخلو من الكلمات الملتوية التي تتعدّدُ مدلولاتها حسب سياق العبارات. ولذلك لا تُعطي الترجمة الآلية نتيجةً مثلى في هذه الحالات.

قد يقول لي القارئ هنا: ثمة برنامج كمبيوتر اسمه «دكتور» يستطيع الحوار مع مستخدمِهِ مثل دكتورٍ نفسي، ويلجأ البعض إلى الدردشة معه والفضفضة له بمشاكلهم النفسية!

أجيب: «دكتور» (والبرامج الكمبيوترية الشبيهة) لا يستوعب ما يقول المستخدِم، لكنه بُرمِج بذكاء ليوهمه بأنه يستوعبه، ولذلك يقع الأغبياء (معظم المستخدمين!) في الفخ عندما يدردشون معه كما لو كانوا بمعية طبيب نفسي!

فعندما تقول له مثلاً: «لديّ مشاكل مع زوجتي» يرد: «آه، حدّثني أكثر عن عائلتك، عزيزي!».

السبب: جرت برمجته بحيث يلتقط من كل جملة يقولها المستخدِم بعض الألفاظ الرئيسة (مثل: زوجة)، يردّ على المستخدمِ من وحيها، بحذلقةٍ ماهرة، بعباراتٍ ببغاويةٍ أنيقة أُدخلَت مسبقاً في البرنامج لِتحاكي لغة الطبيب النفسي.

لكن إذا سألتَهُ: «ما هي عاصمة اليابان؟» مثلاً، يقع في الفخ، مثلما وقعَتْ عزيزتي سارة!

أعترف مع ذلك بخجل بأن الدردشة مع سارة لم توحِ لي طوال معظم الوقت بأني أدردش مع برنامج كمبيوتر، لكن مع إنسانةٍ (بدأتُ أتخيلُها كما أشاء، وارتجف أحياناً من روعة ردودها وسرعتها!)، لأن موضوع حديثنا: «عطل إنترنت» تقنيٌ بحت، قادت غاليتي سارة الدردشةَ خلاله بأسئلةٍ مهنية، الردودُ عليها تخلو من التعقيد والبلاغة واحتمالات التنوّع.

عاد الإنترنت بعدها إلى البيت، لكن كيف لي أن أطبع بوسات شكر وعرفان على خدّ برنامج كمبيوتر؟

عيد العلم البهيج

من نافل القول إن العِلم روح المجتمع الحديث، والتكنولوجيا طوطمه، وعلاقة العلم بالأدب فيه يُلخِّصها هذا المبدأ: «العلم يعيد صياغة الواقع، والأدب يُدخِل هذه الصياغة في اللغة، ويلعب دور أيديولوجية العلم».

ما يفصل، في تاريخ المجتمعات المتطوّرة، بين الحداثة وما قبلها، هو نشوء العقليّة العلميّة لدى الإنسان.

في هذا الإطار، تلعب الثقافة والتعليم دور الحارس الساهر على حماية الدور الجوهريّ الرئيس للعلم في حياة المجتمع، من خلال منابرهما اليومية: المدارس والجامعات، المتاحف، المسارح، المهرجانات العلمية والثقافية والفنية...

الأمر مختلفٌ تماماً في واقعنا العربي حيث دَور العلم ثانوي جداً، بل غائب غالباً؛ والتعليم والثقافة دينيّان في الأساس، كما كانت حال المجتمعات الغربية وعلاقتها بالدين المسيحي في القرون الوسطى.

لأضرب أمثلة حيّة عن كيف تضمن الثقافة الحفاظ على الموقع الرئيس للعِلم في حياة الإنسان.

ينعقد «عيد العلم» (في فرنسا، كمثل أشهد من عمقه) في منتصف أكتوبر من كل عام ولمدة أسبوع، تُفتح خلاله أبواب كل المختبرات العلميّة، في الجامعات والمؤسسات الإنتاجية، لزيارتها ومشاهدة التجارب والنتائج العلمية والبرمجيات الكمبيوترية الجديدة... وتُتاح فرصة اللقاء والنقاش المباشر بين الباحثين وبقية الناس فيها، أو في «قرى العلم» التي تتناثر في كل مفاصل المدن.

ينطلق الإعداد لهذا الأسبوع الحافل، في بدء كل عام، بتقديم إدارات المحافظات ووزارة التربية والتعليم، ووزارة التعليم العالي، ووزارة الثقافة، لكل الباحثين في كل المختبرات الجامعية عروضاً مدعومة مالياً من لدنها (التنافس حولها شديد في اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور)، لإعداد وتنفيذ مشاريع متميزة ضمن نشاطات عيد العلم، هدفها:

١) تقديم المعرفة العلمية على نحوٍ بهيج لجذب الشباب للدراسات العلميّة والتقنيّة.

٢) تحبيب البحث العلمي، وتطوير الملكات في مجالات خبرات الأبحاث في كل محافظة.

٣) السماح لأكبر عددٍ من الناس باستيعاب الدور الجوهري للعلم والتقنية في الحياة الاجتماعية.

في هذه المجتمعات، تمرُّ كل سنةٍ أحداثٌ علميّة جسام تملأ الصفحات الأولى في الصحف اليومية والمجلات والتلفزيون، وتتوقف عندها الحياة الثقافية والإعلامية عرضاً وجدلاً وتفسيراً، كما تتوقف عند أحداث زلزالية كتفجيرات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أو غزو العراق... منها على سبيل المثال في الأربع سنوات الأخيرة:

وصولُ سفينةِ الفضاء كريوزيتي بمعدّاتها وروباتاتها المذهلة إلى المريخ للتأكّد من فرضيّة نشوء الحياة فيه قبل ٤.٢ مليارات سنة، وسفينةٍ أخرى وصلتْ أخيراً إلى كويكب بعيد جدّاً بعد رحلة ستة أشهر للتأكد من الفرضية نفسها؛

اكتشافات الثورة الرقمية والإنترنت والذكاء الاصطناعي؛

صورُ الكون وهو فارغٌ من النجوم والمجرات، كما التقطها تيلسكوب بلانك من أشعّةِ ضوءٍ عجوز انطلقت بين لحظة ولادة الكون: الانفجار الكوني العظيم (البيغ بانغ، قبل ١٣.٧ مليار عام)، ولحظة تشكُّل النجوم والمجرات بعده بمئات آلاف السنين؛

اكتشافُ الجُسيم الأوليّ في الذرات: «بوزون دو هيجز» الذي كلّف البحث عنه ٤٠ مليار دولار، ونصف قرنٍ من التجارب!؛

استبدالُ القلوب البشرية بأخرى صناعية؛

وصول مسبار «الآفاق الجديدة» إلى كوكب بلوتو بعد رحلةٍ دامت ١٠ سنوات بسرعة ٨٣٠٠٠ كلم في الساعة، واكتشاف كوكبٍ شبيهٍ بالأرض على بعد ١٤٠٠ سنة ضوئية؛

وأخيراً، هزيمة الإنسان في لعبة «الغو» من قبل الكمبيوتر.

في هذه المجتمعات التي تتوالى فيها الفعاليات العلميّة السنويّة: عيد العلم، أسبوع الدماغ... والمحاضراتُ العلميّة الدورية لنخبة الباحثين وكبارِ العلماء، المفتوحةُ للجميع في كل المدن، ليس غريباً أن تضع نتائج الاستفتاءات الشعبيّة، في بداية كل عام، الأحداث العلمية الجوهرية في مقدمة أعظم أحداث العام السابق وأهمها.

لتعميق دور العلم في واقعنا العربي، وتحويل حياتنا، ذات يوم، إلى عيد علم بهيج دائم، يلزم على باحثينا ومنابرنا الثقافية الخوض في هذا السؤال الجذري: كيف نسرّب العلم عبرها، ونفسح له المجال، بطريقة آسرة، لدحرجة مسلّمات ما قبل الحداثة، التي جمّدتنا في «نقطةٍ ثابتةٍ» ثقافية هي أهمّ أسباب التقوقع الحضاري والتدمير الذاتي لمجتمعاتنا اليوم؟

ثقة اتجاهات أربعة لتحقيق ذلك، في تقديري.
أوّلها: غرس طرائق التفكير والمعارف الجوهرية التي تصوغ مداميك العقلية العلمية لطالب المجتمعات المتقدّمة، ويفتقر إليها طالبنا العربي.
لتقديم مثل صغير لإحدى هذه المعارف الجوهرية (التي تحتاج إلى حصرٍ شامل)، يجدر أوّلاً ملاحظة أنه لا توجد مدينةٌ متطوّرة كبيرة واحدة (من الهند والصين واليابان شرقاً، إلى أميركا وكندا غرباً) دون متحفٍ للعلوم الطبيعية، يزوره طلاب مدارسها أكثر من مرّة؛ ولا يوجد متحفٌ منها يخلو من قاعةٍ رئيسيةٍ فيها هيكل ديناصور!
قرب الهيكل عباراتٌ تشرح أن الديناصورات كانت، لزمنٍ طويل، سيّدةَ كوكبنا، حتى قبل ٦٥ مليون سنة، مثلما أن الإنسان (الذي لم يكن موجوداً حينذاك) سيّدُ كوكبنا اليوم.
ثم انقرضت إثر سقوطِ نيزكٍ ضخم على كوكب الأرض الذي ارتفعت درجة حرارته بعد ذلك كثيراً، لِتُفنى كلُّ الحيوانات والنباتات التي لم تستطع التكيّف مع الظروف البيئية الجديدة.
كيف حسب العلم هذه الـ ٦٥ مليون سنة؟
عبر التحليل للهياكل العظمية للديناصورات، بواسطة الكربون ١٤، الذي يدرس الطالب في المدرسة كيف ولماذا يسمح بتحديد تاريخ العظام والحجارة.
كيف برهن العِلم أن نيزكاً هائلاً سقط آنذاك؟
بطرقٍ مختلفة كثيرة، كان آخرها، بعد جهد جهيد، اكتشاف حفرة ضخمة مساحتها عشرة كيلومترات مربعة في المحيط قرب المكسيك، تشكّلت بالضبط قبل ٦٥ مليون سنة!
يتسنّى بفضلِ ذلك للطالب الحديث امتلاكُ رؤية أخرى لتاريخ الكون وسيرورة الحياة على الأرض، مبنيّة على المنهج العلمي. تُواصل المدرسة رفدَ ذلك بِعرض حفريات هياكل سلسلة السلالات الإنسانية التي لم تتشكّل جميعها وتتواتر إلا في السبعة ملايين سنة الأخيرة فقط، وبِشرح أنماط حيواتها عبر تلك العصور.
الاتجاه الثاني: تقديم الاكتشافات العلمية الحديثة في كل المجالات للقارئ بطريقة بهيجة تسهّل له فهم السبب والكيف، وجوهر الدليل، أكثر من مجرد البحث عن الاستعراض الشكلي الفضفاض لهذه الاكتشافات، بشكلٍ لا يختلف عن أسلوب الإثارة في استعراض الأطروحات الميتافيزيقية.
الاتجاه الثالث: الحديث والنشر المستمر في منابرنا الثقافية لتاريخ العلم.
مهمّ جداً ذلك لأنه يُجلي للإنسان منهج التساؤل والشك والرفض والبرهان

العلمي. يتعلّم المرء من خلاله أن أيّة فرضية لا تتحوّل إلى حقيقة علمية إلا بعد برهنتها، كحال فرضية انقراض الديناصور.

الاتجاه الرابع الغائب بشكلٍ كليّ تقريباً في حياتنا الثقافية العربية وهموم منابرنا الثقافية: تنمية توغّل العلم في ثنايا الأدب وأعطافه، بأسلوب يهدم الأسوار الصينية بينهما، ويُلغي شرطة الحدود التي تفصلهما.

كمثل: مجرد عرض مسرحية بريخت: «حياة غاليلو» في المدرسة يلعبُ دوراً مباركاً رائعاً وعميقاً في تنمية العقلية العلمية وتجذيرها.

كذلك حال الرواية العربية المنشودة: يلزم أن تفتح أحضانها للعلم.

ففي الغرب مثلاً، تعكسُ الرواية بطرق شتّى المعارف العلميّة واكتشافاتها المتتالية: ليس فقط لأنها تحكي روائياً قصص الأفكار العلميّة واصطدامها بالأفكار السائدة وتفاعلاتها مع المجتمع، وليس فقط لأنها تعكس اكتساح العلم رؤيةَ الناس للواقع والحياة، لكن لأنها تقدّم دوماً، في أنحاء مختلفة من النص الروائي، تأملات الكاتب الكونية والفلسفية من وحي روح الأفكار العلمية.

قبل أسابيع، كنت أبحرُ على الإنترنت في مواقعِ متاحف مدينةٍ أوروبية يلزمني زيارتُها للعمل. قبل نهاية إبحاري، تسلمتُ إيميلات بعروضٍ لأسعار تذاكرِ سفرٍ لتلك المدينة، وآخر بعروضٍ لفنادق فيها قريبةٍ من تلك المتاحف!

ذهِلتُ، إذ ثقة برمجية كمبيوتر تدركُ ماذا أعمل على الإنترنت، تعرفُ عنّي وعن أسفاري من خلال بصماتي في العالم الرقمي (ما يسمّى: Meta Data، ما وراء البيانات، أو: بيانات البيانات)، تستنتجُ أني أنوي السفر بالفعل إلى مدينةٍ محدّدة، وتريد اصطيادي لِعروضِ بيع تذكرةٍ وحجزِ فندق.

زميلُ عملٍ لي في دولةٍ بعيدة، كثير الأسفار أيضاً، أعاد نفس التجربة، وأكّد لي نفس النتيجة.

سيناريو آخر أخطر بكثير: احتاج شخصٌ دائمُ الأسفار، ذات يوم، لِشراء حقيبة سفر يعود بها إلى مدينته. توجّه إلى معرض حقائب، تنقّلَ فيه دون أن يجد ضالته.

لِأنوّهَ أوّلاً: هذا الشخص، مثل الأميركي إدوارد سنودن اللاجئ السياسي في موسكو بعد كشفه أسرار خطيرة عن مكتب الأمن القومي الأميركي NSA، لا يمشي في الشارع حاملاً هاتفاً جوّالاً حتى لا يعرف موضعَهُ الجغرافيّ أحد!

حال خروجه من المعرض، تسلّم مباشرة ٣ رسائل هاتفية: الأولى بعنوان معرض حقائب سفر قريب، فيه حقائب شبيهة، وبخفض ٣٠٪؛ وآخر مجاور له بحقائب أرقى، مع صورها، وبخفض ٢٠٪؛ وثالث لصورِ قائمةٍ مُغريةٍ من الحقائب، مع أسعارها، يمكن أن تصل أيةٌ منها، عبر أمازون، إلى أي عنوان يريده، صباح الغد!

من حقِّ من يتسلّم هذه الإس إم إسات أن يجنّ جنونه:

١- فصورته في مرآة المعرض انتقلت عبر الإنترنت إلى مكانٍ ما.

٢- بفضلها عرفت برمجيةٌ ما هويّتَه: اسمه، ثمّ رقم تليفونه...

٣- حلّلت برمجيةٌ أخرى نيات صاحبنا بشراء حقيبة، ودرست أشكال وأسعار كل الحقائب التي رآها ولم يُحبّها.

٤- أرسلت له عروضاً جذّابة.

تحديدُ الهويّة في الخطوة الثانية وبهذه السرعة، كان حتى قبل سنوات

من عداد المستحيلات. فيما تستطيع اليوم برامج كمبيوتر ذكية مقارنة صورة أي شخص، بأرشيف قاعدة بيانات من مليون صورة، وتحديد هوية ذلك الشخص بشكلٍ دقيق خلال دقائق!

لذلك، لم يعد هذا السيناريو مستحيلاً اليوم، ولا يوجد عائق تكنولوجي يمنع تحقّقه، ولن يتأخر موعدُ حدوثِهِ فعلاً. لكنه في منتهى الخطورة: ثقة برمجية كمبيوتر تستطيع أن تراكَ حيثما كنتَ، تُراقبُ ما تعمله، وتحاولُ التأثيرَ فيك. أثمة أفظع من هذا؟!

يقودنا ذلك إلى الحديث عن برامج الكمبيوتر التي تحلّ محل الإنسان لتتجسّس عليه!

في مقال نشر في صحيفة «ميديابارت» الفرنسية بعنوان: «ماذا يدور في رأس NSA؟»، يبدو أن «معظم رؤوس كوادر ذلك المكتب عسكريون قدامى في البحرية تعوّدوا مراقبة الغواصات السوفياتية، ويبحثون الآن عن المراقبة الكليّة لمحيط المعلومات، كما كانوا يفعلونه في محيطات الأرض!».

هدفهم إذن ليس استشراف المعلومات العسكرية أو الإرهابية فقط، لكن كلّ المعلومات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، كما برهنته وثائق ويكيليكس الأخيرة عن تجسسهم على كبار رجال السياسة والاقتصاد والمنظمات الإنسانية.

فبعد سقوط جدار برلين والمعسكر السوفياتي، شعرت القيادة الأميركية بأنها مهيأةٌ لِتمتلك العالم. وتَضخَّمَ لذلك نهمها الاستخباري ليواكب حجمها الإمبراطوري، فصارت استراتيجية مراقبتها الجديدة: المراقبة الكليّة!

ومنذ ٤ أكتوبر ٢٠٠١، عقب صدمة ١١ سبتمبر مباشرة، سمح الرئيس بوش بشكل غير قانوني لمكتب الأمن القومي بالتجسس على الكل: من يُحدّثُ منْ بالإيميل أو بالسكايب، نصوص المراسلات... وألزمَ شركات إنترنت بفتح كل معلوماتها لمكتب الأمن القومي.

فكما يقول كيث الكسندر، الذي عُيّن رئيساً لذلك المكتب في ٢٠٠٥: «يظن البعض أن مشكلتنا تكمن في تكديس كميات من المعلومات أكثر من اللازم. بالعكس، الحلّ هو امتلاك كلّ المعلومات الكونية دون استثناء، والاستمرار في تطوير طرائق أرشفتها وفهرستها وتحليلها!».

أي كما قال صاحب مقال ميديابارت: «ليس هدف هذه الاستخبارات البحث عن دبوس في كومة قش، لكن امتلاك كومة القش بكاملها»، وبشكلٍ خاص عبر السيطرة على «محيطات »البيانات العملاقة، Big Data.

لنذكّر بما تعني «البيانات العملاقة»:
هي كل ما نترك من نصوصٍ وآثار في حياتنا اليومية: تعليقاتنا، منشورات الفيسبوك، تويتر، ما نبحث عنه في غوغل، عناوين المواقع الإلكترونية التي نزورها، محاضراتنا، أغانينا المفضّلة، أصدقاؤنا، ما نشتريه بالبطاقة المصرفية... تُشفَطُ جميعها كل يوم لِتؤرشفَ وتُفهرَسَ في مستودعات ضخمة من الكمبيوترات، وتقدَّمَ لبرمجيات أكثر فأكثر ذكاءً لتحليلها.
أهداف ذلك كثيرة، بعضها حضارية مفيدة لذاكرة الإنسان عبر التاريخ، وأخرى تلصّصية مرعبة...
ما هي بنية وطريقة عمل البرمجية التجسسية (أي: جيمس بوند الرقمي!) في دهاليز ومتاهات البيانات العملاقة؟
لا يعرف ذلك أحدٌ تقريباً عدا شركات تكنولوجيا التجسس والجهات الأمنية. هي وحدها تحدّدُ أعضاءَ «القوائم السوداء» من البشر!
مقلقٌ وخطيرٌ تملّصُ الإنسان من مسؤوليته، وتحميلُها برمجياتٍ لا يمكن محاسبتها ومحاكمتها!
الأسوأ: آليات عملها غير شفافة، بل مجهولة تماماً، فيما من أبسط حقوق الإنسان الرقمية رؤيةُ نصوص تلك البرمجيات. أو، إن صعُبَ ذلك، معرفةُ خوارزميات تحليلها التي بإمكانها أن تحظّهُ يوماً في القوائم السوداء. أو، على الأقل، استيعابُ الخطوط الكبرى لِطرائق استنتاجاتها «الذكية» التي من شأنها أن تتركهُ عارياً في مسلخ المخابرات.
فإذا كانت أبسط البرمجيات التجسسية هي تلك التي تستنتج خطورة هذا الشخص أو ذاك من خلال تواتر توجّههِ إلى بعض المواقع الإرهابية على الإنترنت وسماعهِ المستمر لهذا الفيديو الإرهابي أو ذاك، أو من خلال بحثه في غوغل عن معلومات تفجيرية، أو استخدامه أثناء البحث لكلماتٍ مثل: «داعش»، تعتقد تلك البرمجيات أن من يبحث عنها مرشّحٌ لأن يكون إرهابياً، ويلزم لذلك تعقّب كل حركاته وسكناته ومكالماته الشخصية، فماذا لو كان الشخص باحثاً اجتماعياً أو شخصاً يهمّه كل ذلك من باب حبّ الاطلاع لا غير؟
وماذا لو كان على غرار ذلك المهاجرِ البريء إلى أميركا الذي بعث إيميلاً إلى أحد أصدقائه في اليمن قال فيه: «بلّغْ تحياتي للأحباء في القاعدة فاقتحم منزله (حسب الرواية المشهورة) فريقٌ من المخابرات الأميركية اكتشف بعد تحقيقٍ طويل أن «القاعدة» اسمُ قريةٍ قديمةٍ متاخمةٍ لمدينة تعِز في اليمن؟
أما أعقد البرمجيات التجسسية، هي تلك التي تطوف مجرّات البيانات

العملاقة باحثةً عمّا يسمّى «المؤشر الخافت»: معلومةً مطموسةً غالباً، تبدو لأوّل وهلة غير ذات اعتبار، لكنها تُنبئ بحدثٍ ذي أهمية قصوى: أزمة اقتصادية أو بيئية انفجارية، وباء، عطل صناعي أو مدني، ثورة شعبية، هجرة جماعية...

أي هي علامةٌ تلزم قراءتها كنذيرٍ يساعد على استشراف موعدِ جسيمِ بالغ الخطورة، والاستعداد له.

إحراق الشاب التونسيّ بوعزيزي لنفسهِ عشيّة الربيع العربي، مثالٌ تبسيطي على مؤشرٍ خافت.

البحث الآلي عن هذا المؤشر سيفٌ ذو حدّين، يدخل ضمن مجال دراسات «اليقظة الاستراتيجية»: بإمكانه أن يكون شديد الأهمية لحياة البشر، كما بإمكانه أن يكون تجسسيّاً بحتاً أيضاً.

ف.د رجلُ دولة، كثيفُ الحاجبين، ذو لغةٍ انسيابية لذيذةٍ ماكرة. يغوص في مقلتيك عند الحديث معك. رجلٌ «بِدقّةٍ مفتّشِ ضرائب، ونفَس عدّاءِ مسافاتٍ طويلة»، كما يصفهُ زملاؤه. خريجُ أرقى كليّات الإدارة، وراءَه نصف قرنٍ من التجارب.

في كلّ وزارةٍ مهمّة، وفي رئاسة الدولة، لا يوجد مثله إلا اثنان أو ثلاثة. رجالُ ظل. هم في الحقيقة من يختفون وراء كل قرارٍ استراتيجيٍّ أو مباشرٍ مهم، ويهندسون سيرورةَ دفّةِ الدولة بشكلٍ عام.

الوزراءُ والرؤساء واجهاتٌ مؤقتةٌ فقط، لِتعميد مشاريع قرارات هؤلاء، أو للحسم بين أكثر من اختيار يقترحونه.

يغادر الوزراء والرؤساء الحُكم، ويبقى هؤلاء ما بقت الدولة، وما دام ينبض فيهم عرق حياة.

ف.د مستشارٌ خاصٌّ لِرئيس الدولة، وكذلك مديرٌ لِدائرة الاستشرافات الاستراتيجية وإدارة الأزمات. يميل كثيراً إلى وضع الكمبيوتر في قلب نشاطات دائرته، وفي كلّ برامج طاقمِها المتبحّر في أتمتة التجسّس، وفي تقصّي «البيانات العملاقة» لاكتشاف «المؤشرات الخافتة».

يوجّهُ ف.د عملَ دائرته بألمعيّةٍ تسمح له كثيراً باستشرافِ الأزمات المالية والسياسية، والحروب وما تليها من هجرات وأمراض، وبتقديرِ ما سيحصلُ أوّلاً بأوّل، وبالأرقام القريبة من الحقيقة غالباً.

مثلُ لاعب شطرنج يعرف مقدّماً نقلات خصمه، أو لاعب بوكر يرى في المرآة أوراق خصمه، يبرمجُ ف.د قرار دخول بلدهِ في حربٍ أو لا، في ضوء كلّ المعطيات التي تُقدّمها له برمجياته الآلية.

لذلك يُسمّى ف.د «السيد حرب»، إذ لم تخض بلدُهُ حرباً منذ أربعين عاماً لم يكن وراء قرارها، ولم تبتعد عن حربٍ لم يكن معارضها.

يسردُ لِمهندسي دائرته غالباً، من خلال تجاربه وحدسه، سيناريو تداخلات الأحداث التي يمكنها أن تقود إلى «المؤشر الخافت»، الخطير جدّاً، الذي يمكنه أن يؤدي لهذا الحدث المهم أو ذاك. يقومون بعدها بتصميم برمجياتِ لأتمتة البحث الآلي في «البيانات العملاقة» عن توافر ظروف الأحداث التي رسم تداخلاتها في السيناريو، متابعين تطوّر سيروراتها التي يمكنها أن تقود إلى ولادة المؤشر الخافت، كما رسمه في السيناريو.

في مشروعِ الحرب الأخيرة لِبلدهِ، دارت الأمور كالعادة: مجلسٌ مصغّرٌ

تزأسَهُ رئيس الدولة ضمّ رئيس الوزراء، وزير الخارجية، رئيس الاستخبارات، كبير قادة الجيش، ووزير الداخلية... كلُّ واحدٍ من هؤلاء جاء بدراسةٍ، أعدّها له رجالُ دولة على غرار ف.د يعملون في مرفقه، حول جدوى قيام بلدهم بتلك الحرب، وخطّةِ شنّها في حال الموافقة على ذلك.

بعد الجدل، لم يبقَ على طاولة البحث غير مشروعَين فقط: أحدهما لا يوصي بالحرب، لكنه يمارسها بطريقة سياسية محدّدة تفي ربما بالغرض، والآخر يدعو إلى التدخّل العسكري السريع وفق خطّة محدّدة.

لزم أن يحسم رئيس الدولة بين المشروعين خلال ٢٤ ساعة!

كعادته، يلجأ الرئيس إلى مستشاريه الثلاثة بشكلٍ انفرادي، يلتقي بكلٍّ منهم قبل الاجتماع المصغّر لمدّة ساعة، لمساعدته في توجيهه. وبعده مباشرة لمدة دقائق فقط، يطلب من كلّ واحدٍ خلالها وضع نسبة مئويّة لِترجيحه لِكلّ خيارٍ خرج به الاجتماع المصغّر.

سيقرّرُ الرئيس بشكلٍ نهائي، في ضوء نسبة ترجيح ف.د ومستشارَين آخرَين، كلاهما مع الحرب بنسبة ٤٩٪ فقط. يكفي أن تكون نسبة ف.د ٥٣٪ لتندلع الحربُ التي كان ف.د موافقاً عليها، قبل الاجتماعِ المصغّر!

حدث شيءٌ عجيب جداً قبل اتخاذ ف.د قرارَهُ الأخير!

يلزم القول أوّلاً إن ف.د اشتهر بِسريّتهِ المثلى: إنسانٌ يستحيل اختراقه. له كمبيوتران في مكتبه. الأول لكلّ ملفاته المِهَنيّة فقط. لا يربط هذا الكمبيوتر بشبكة الإنترنت، ولا بأية شبكة، ولو داخلية. لا يثق ف.د بأحد. يحمل ملفاته ويسلّمها بيده للرئيس.

وله كمبيوتر شخصيٌ مرتبطٌ بالإنترنت، يستخدمه لقراءة الصحف ومتابعة الأخبار والشبكات الاجتماعية، لكن لا يضع فيه أي ملفٍ مهنيٍ إطلاقاً.

لا يلجأ إلى أي سيرفر «خادم» إيميلات إميركي كجيميل أو هوتميل أو ياهو، لأنه يعرف أن كل ما يمرّ عليها مفتوحٌ لِفِلترات برامج تقصٍّ استخبارية، لمكتب الأمن القومي الأمريكي، بموجب قانونٍ شرّع ذلك في معمعة هلعِ أحداث ١١ سبتمبر: تمز أمواج الإيميلات البشريّة على هذه الفلترات التي تبحث في لُجّها عن بعض الكلمات والأسماء المهمّة (داعش، بن لادن...)، تدرس تردُّدَها في النص، تُطَبّق عليه قواعد معرفية استنباطية وإحصائية ذكيّة للاستنتاج الآلي للمعلومات المفيدة استخباريّاً فيها.

ليس ذلك فقط، لكن ف.د لا يبعث لأيٍّ كان أي إيميل يتضمّن ملفات أو معلومات مهنيّة، أو حتّى أخباراً ما. لا يستخدم كمبيوترهُ الشخصيُ للبحث على غوغل عن أيّة معلومةٍ مهمّة قد تفضح ما يدور في رأسه، ولا يذهب

لزيارة مواقع إنترنيتية قد تُعرّي ما يبحث عنه، لأنه يعرف أن برامج كمبيوترية أميريكية استخبارية شهيرة تراقب كل شيء. لا يستخدم الفيسبوك في دار الرئاسة خوفاً من تسرُّب فيروس فيسبوكي يتلصّص على شبكتها، كما حدث أحياناً.

علاوةً على ذلك، يستخدم برمجية VPN التي تحمي سريّةَ ما يعمله وتخفي رقم كمبيوتره على الإنترنت. لا يكتفي بذلك، لكنه يضع لإيميله اسماً تنكريّاً أيضاً.

ف.د روبوتٌ حقيقيٌ صارمٌ بالفعل. لكنه إنسانٌ أيضاً. له علاقةٌ غرامية لا يعرفها أحد، بإنسانةٍ لا يستطيع التنفّس دونها. يتراسلان على الدوام، باسمين مستعارين.

قبل بعث إيميله لها، يعيد قراءة مسوَّداته ألف مرّة لِينظّفها من أية معلومات شخصيّة قد تكشف النقاب عن هويّة المرسِل أو المستقبِل، ومن أي بوحٍ مهنيٍ يسرّبُ فيه أسراراً بنحو غير مباشر. ثمّ يمحو الإيميل بعد ذلك، كذلك تمحوه معشوقته من كمبيوترها بعد القراءة.

مرّ كل شيءٍ كما يلزم، حتّى عشية اتخاذ القرار بالحرب. تسلّم ف.د ليلتها إيميلاً من مجهول يكشف له بعض مسوَّدات إيميلاته القديمة الأكثر حميمية وفضحاً للمستور، ويطلب منه أن يحول دون وقوع الحرب إذا كان لا يريد كشف أسرارهِ للعالَم!

جنّ جنونه!

كان قرارهُ في صباح اليوم التالي (الذي لم ينم طوال ليلته من فرط الصدمة) مفاجئاً للرئيس: قدّم استقالتهُ للتقاعد في سنٍّ يناهز الـ ٧٥، والابتعاد عن السياسة.

- والنسبة؟؛ سألهُ الرئيس.

- ٥٠٪!

لم تتفجّر الحرب!

قضى ف.د أشهراً بعد تقاعده يحاول تفسير هفوة حياته، هو الذي لم يفتح يوماً رابطاً إنترنيتياً مثيراً للشك، ولم يشحن برمجيةً مشبوهة، ولم يفتح ملفّاً فيروسيّاً واحداً...

ثمّ تذكّر أنه كان ذات يوم في بلدةٍ تمنع استخدام الفيسبوك وغوغل. شحن فيها من الإنترنت برنامج VPN مجاناً، سمح له بالفعل بتجاوز المنع، لكنه ترك في أمعاء كمبيوتره، كما يبدو، جاسوساً برمجيّاً يُجمّع مسودات إيميلاته، ويرسلها لِجهةٍ غامضة!

رغم مسحهِ لذلك البرنامج المجاني من كمبيوترهِ بعد عودته لبلده، ورغم

شرائهِ لنسخةٍ أخرى مضمونة، ظلّ الجاسوس القديم، كما يبدو، يتغذّى من مسودات إيميلاته، بانتظار اللحظة الحاسمة!

لعلّ احتضار الموسوعات الورقية، وازدهار الموسوعات الرقمية، هو أفضل رمزٍ يكثّفُ معالم حضارتنا المعرفية الجديدة.

مثل غيري، اشتريت بكل سعادة في فجر التسعينيات موسوعة يونيفرساليس (بالفرنسية) إحدى أشهر موسوعتين عالميتين، ونِدّة موسوعة برتانيكا (بالإنكليزية): نحو ٤٠ مجلداً سميكاً فخماً أسهم في كتابتها بعض أهم علماء العصر.

أخذتِ الموسوعة حيزاً مهمّاً من مساحة مكتبتي، ولزمني أن أشتري كل عام مجلداً جديداً لتصحيح بعض معلوماتها التي تتغير مع الزمن، أو لِتحديث معلومات أخرى، أو لإضافات.

كبر حجم المجلدات من عامٍ إلى عام، صعب التنقّل في غاباتها مع مرور الزمن، وقلّت رغبتي أكثر فأكثر في التنقّل من مجلد فهرسٍ أو تحديثٍ، إلى مجلدٍ سابقٍ ثمّ أسبق، قبل الوصول إلى المجلد الأصلي.

في البدء، كنتُ أغرق فعلاً في الموسوعة مرّة كل أسبوعٍ تقريباً، ثمّ مرّة كل شهر، ثمّ أمست زياراتي لها نادرة جدّاً، بعد أن صرتُ أتوجّه نحو موسوعة ويكيبيديا على الإنترنت عدة مرات كل يوم، أنهل منها يساراً ويميناً وأنا ألاحظ أنها تجيب عن معظم أسئلتي أفضل فأفضل.

أضحت مجلدات موسوعتي الورقية اليوم متحفاً لحضارة قديمة اندثرت، بفعل هذا العالَم الجديد الذي يصنع المعرفة الرقمية بطرقٍ جديدة: تفاعليّة وتعاضديّة يصنعها جميع سكّان الأرض، لم تخطر على بال أكبر الروائيين قبيل عقدين فقط.

فموسوعة ويكيبيديا الرقمية، التي سنتناول بعض أوجهها هنا، تُحرَّرُ بمختلف لغات الأرض، مجّانيةً حرّة، يصوغها من يريد من البشر والجامعات والمؤسسات. عدد موادها، في هذه اللحظة من عام ٢٠١٥ وأنا أكتب هذا المقال، أكثر من ١٧ مليون مادّة، خمسة ملايين منها باللغة الإنجليزية، نحو مليونين بالفرنسية ومليونين بالألمانية، نحو مليون ومئتي ألف مادة باللغة البولندية، ولا يزيد على ٤٠٠ ألف بالعربية، وإن كان أغلب مواد لغة الضاد مجرد ترجمات لعناوين مواد لغاتٍ أخرى، أو لملخصاتها فقط!

بفضل ثرائها هذا، صارت ويكيبيديا المرجع الموسوعي المعرفي الرئيس للجميع، وانقرضت بعدها تقريباً الموسوعات الورقيّة، مثلها مثل القواميس

التي صارت صيغها الرقمية هي السائدة والأكثر استعمالاً، فيما صيغها الورقية على طريق الاختفاء.

غير أن ويكيبيديا غابة هائلة تنمو وتتطور وتتغيّر يومياً، ونحن صنّاعها جميعاً. ينبغي عدم قراءتها بعقلية «من علّمني حرفاً، كنتُ له عبداً» التي لا تصنع غير السلبية والرضوخ والتخلف واستمرارية التقوقع، ولكن بعقلية «من علّمني حرفاً، كنتُ له ندّاً».

يلزم مع ويكيبيديا الإضافة اليومية لموادَّ جديدة من قبل كل قارئ، ونقد الصفحات الموجودة أحياناً على نحوٍ إيجابيّ يساعد على تطوير وتوسيع محتواها. ويهمّ قبل ذلك تصحيح المعلومات الخاطئة من قبل القارئ؛ لا يوجد أسهل من تغيير محتوى صفحة ويكيبيديا في أغلب الأحيان، ليظهر التغيير للعالَم مباشرة بعد ذلك، عدا بعض الصفحات التي تديرها مجموعات لا تتركها مفتوحة لتصحيح الجميع. يلزم حينها تواتر الضغط من أجل تغييرها، لأنها تظلّ معلقة وقتاً طويلاً أحياناً.

أغيّر شخصيّاً بين الآن والآن بعض المعلومات، ولا سيّما في المجالات العلميّة، أو أضيف شيئاً ما للمعلومات الناقصة. ويؤسفني أحياناً تعليق بعض تصحيحاتي كهذا الذي أضفته مثلاً للصفحة الخاصة بـ«وادي عَبقر» الميثولوجي السحيق؛ حيث، كما يعرف الجميع، كان لكل شاعرٍ في الجاهلية قرين يلهمه الشعر: لافظ بن لاحظ قرين أمرئ القيسِ، هاذر بن ماهر قرين النابغة الذبياني... وعندما يقال للمرء إنه عبقري، فذلك نسبةً إلى الوادي.

يعرف الجميع أن الوادي الخيالي يقع في اليمن، أو نجد. يقول الصاوي: «عبقر اسم قرية في اليمن». لكن في صفحة ويكيبيديا التي حرّرها أحدُ من نجد، اكتفى بوضع الوادي في دياره.

أردتُ فقط أن أضيف: «هو وادٍ يقع في اليمن أو في نجد» وما زلتُ لسوء الحظ أنتظر قبول التعديل!

تحاول ويكيبيديا، كما تقول، أن تكون حيادية. سهلٌ جدّاً ذلك في القضايا العلميّة والمعرفية، لكنه صعبٌ في بعض المواضيع السياسية أو الدينية. التيارات الدينية، والأيديولوجية التي تموّلها السلطات، تحاول بشراسة وذكاء تسريب أدبيّاتها باستمرار لكتابة تاريخها وبث أفكارها.

ولأن الأقوى هو الأكثر حضوراً على ويكيبيديا والأكثر استخداماً له، فليس غريباً أن تصدمنا أحياناً المعلومات التي تتسرّب في بعض صفحاتها السياسية أو الدينية، حتّى وإن كانت مكتوبةً بالعربية فقط، وللعرب لا غير، ولا ينوي أحدٌ ترجمتها إلى لغة أخرى.

لكن الصدمة ليست هي الحل. الحل هو الحضور المضاد، للتصحيح، أو لعمل صفحات موازية تنشر الحقيقة العلمية أو التاريخية.

كمثل: الصفحة الخاصة بكلمتي «الثورة السورية» تقود إلى خمس صفحات: «الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥»، «ثورة الثامن من آذار»، «الانقلاب العسكري في ١٩٦٦»، «الحركة التصحيحية في ١٩٦٦»، «الحرب الأهلية السورية».

تُعرَّف الأخيرة في أول سطرٍ من صفحتها بـ: «الحرب الأهلية السورية، أو الأزمة السورية، أو الثورة السورية، أو الانتفاضة السورية» بهذا الترتيب المتناقض وغير البريء، فيما صفحة «مضايا» تسرد تاريخ المدينة في إطار تاريخ الثورة السورية، وحُدّث سريعاً لتشمل، بموضوعية ودقّة، حصار المدينة في ٢٠١٦ وتجويعها والموقف الدولي.

لعل هذه الخاصية المثيرة لويكيبيديا التي يكتبها الملايين ويغيّرونها، ويشتدّ فيها حضور المجموعات الأيديولوجية في مواضيع محدّدة تهمّها، منبع قوة لا حدّ له، ونقطة ضعفٍ يلزم التنبه لها أثناء القراءة.

فدون قراءة نبيهة متمعّنة يمكن بسهولة الوقوع في مطبات ويكيبيدية مثيرة.

مثال شهير: حذف أحد الطلّاب بعض الفقرات من صفحةٍ على الويكيبيديا، وسردها كما لو كان قائلها في امتحان مدرسي. ثمّ اعترف بسرقته عقب تصحيح الامتحان، مبرراً ذلك بأنه قام بتغيير الصفحة لمدة أسبوعٍ فقط، لئلا يرى أستاذه عند تصحيح ورقة امتحانه أنه «شفط» فقرات منها. لكنه أعاد للصفحة محتواها، كما كانت عليه، بعد أن نال درجةً رفيعة في الامتحان بسبب الفقرات المسروقة!

مثال شهيرٌ آخر: قضّى أستاذٌ إجازة صيفة في تغيير موادَّ كثيرة على ويكيبيديا بطريقة خاطئة زائفة، ليمتحن مقدرة طلّابه على القراءة النقدية للنصوص وامتحان نباهتهم ومستوى تحليلهم للمعلومات التي يقرأونها!

اكتشف، وهو يصحّح نتائج امتحاناتهم، أنهم يقرأون ويعتنقون ما يقرأونه دون تمحيص!

وأخيراً لنتذكّر: ويكيبيديا جزء من منظومة واسعة تضمّ على سبيل المثال فقط: ويكي الكتب (مكتبة كتب عامة مجانية)، ويكي الجامعة (مواد تعليمية مجانية)، ويكاموس (قاموس حر)، ويكي الاقتباس (للأقوال المأثورة والمشهورة).

للتأمّل: الأخير منها، الذي يمكن أن يضيف إليه من يحبُّ ما يحبُّ من الاقتباسات، يضمّ الآن، وأنا أكتب الفصل، ٣٤ ألف اقتباس بالفرنسية، ٢٦

ألفاً بالإنكليزية، ٢٢ ألفاً بالبولندية، و٣٧٥ بالعربية فقط...
ومع ذلك، العربية أقدم اللغات الأربع، وينبوع اقتباساتها بسبب ذلك القِدم أكثر اتساعاً وثراءً، لكن نافورة اقتباساتها في وادي الاقتباسات في عالَمنا الرقمي عجفاء مسدودة!

لعلّ جودة التعليم، ودعم الثقافة وتطويرها، أهمّ وسيلتين تحافظ بهما الدول المتقدمة على موقعها الحضاري الطليعي.
جودة التعليم تقدّم للمرء من ناحية، ما وراء المعارف (الغائبة في تعليمنا العربي) المبنيّة على تحفيز عقلية التساؤل، والشك والنقد والرفض والبحث عن البرهان والفصل بين الحقيقة الدينية والحقيقة العلمية، أي على تعليم طرائق صناعة المعارف الحديثة؛ وتقدّمُ المعارفَ، من ناحية أخرى، عبر تشييد وتحديث بنيةٍ تحتيّةٍ من المحاضرات والدروس والمقالات النموذجية المفتوحة للجميع، التي تضمن وصول المعارف الأمثل إلى الإنسان، بأحدث الوسائل والطرق وأسهلها وأمتعها.
إذا ما تذكّرنا المثل الصيني الشهير «لا تعطني سمكة لعشاء هذه الليلة، لكن علّمني كيف أصطاد السمك لأتعشّى مدى العمر!»، فجودة التعليم تلزم أن تُعلّمَ المرء أوّلاً اصطياد السمك: ما وراء المعارف، وتهديهِ أدسم السمك وأحلاه في الوقت نفسه: المعارف.
بفضلهما معاً، تنهض الشعوب وتتواصل ابتكاراتها وأولويتها الحضارية.ثمة ضرورةٌ عاجلةٌ قصوى في الاستفادة عربيّاً من أبرز التجارب العالمية في مجال التعليم الحديث للخروج من أزمتنا الحضارية، وبشكلٍ خاص من آخر صرخات تقديم المعرفة النموذجية: «المووك» الذي سأتحدّث عنه هنا.
يلزمني أوّلاً التذكير بأنه على صعيد تعليم المعارف «المكتملة»، أي التقليدية الأساسية، ثمّة منذ أكثر من عقدين بوابات معرفية رقميّة عديدة مجانية، صنعتها مشاريع تدعمها الدول المتقدمة، وتشترك في صناعتها الجامعات، تقدّم هذه البوابات دروساً نموذجية على الإنترنت في كل المجالات الفكرية والعلمية، يمكن قراءتها وتحميلها بكل الوسائل الرقمية، مدعومة بمواضيع مشاريع وتمارين محلولة وواجبات.
أدرتُ شخصيّاً في إحدى البوابات الفرنسية لعلوم الهندسة، مشروعاً لدروس كاملة في إحدى مواد علوم الكمبيوتر الرئيسة: Compilers. استمرّ المشروع لعامين، وأسهم فيه زملاء في جامعتين في باريس ونيس (*).
هنالك أيضاً «التعليم الإلكتروني»، E_learning، المتعدّد الوسائط الذي بإمكانه أيضاً تقديم محاضرات نموذجية أحياناً بوسائط صوتية ومرئية متطوّرة.

أمّا في تجربة التقديم النموذجي للمعرفة المعاصرة التي في طريقها للاكتمال، عبر البحث العلمي، في شتّى المجالات الفكرية والعلمية، فهناك مثلاً تجربة نموذجية شهيرة ملهِمة تأسست في ١٥٣٠: كوليج دو فرانس!

يقدّم هذا الصرح العلمي المجاني المفتوح للجميع أحدثَ المعارف، عبر دروسٍ ومحاضرات متواصلة، في ٥٢ مجالاً علمياً، أدبياً، فلسفياً، وفنياً... يدرّس فيه كل من نالوا جوائز نوبل من الفرنسيين، وجوائز فيلدس (ما يعادل نوبل، لكن في الرياضيات) ونخبة من أهمّ أكبر الباحثين. درّس فيها فوكو وشتراوس على سبيل المثال.

ودخله أخيراً الفرنسي يان لوكان، بروفسور الذكاء الاصطناعي في نيويورك ورئيس مختبر الذكاء الاصطناعي لشركة الفيسبوك. ألقى محاضرته الافتتاحية في مساء ٤ فبراير ٢٠١٦ أمام جمعٍ هائل جاء قبل ساعات للحصول على مقعد.إذ يعتبر الدخول للكوليج أرفع تقدير يناله العالِم الفرنسي، والمحاضرة الافتتاحية، التي تصدر في كتاب بعد ذلك، لحظة معرفية مرموقة.

يكفي الحضور لإحدى محاضرات الكوليج ليعرف المرء ماذا تعني محاضرة نموذجية!

حضرت مثلاً في بدء عام ٢٠١٦ محاضرة، ضمن درسٍ أسبوعي، عن «مناطق اللغة في الدماغ». قدّم فيها أستاذٌ شرحاً لم يستعرض فقط متى وكيف بدأ اكتشاف موقع بعض مناطق اللغة في دماغ الإنسان منذ القرن التاسع عشر، بل شرح الطرائق العبقرية الجديدة المتنوّعة لتحديد خريطة شبكة مواقعها، ووضّح بالفيديو كيف يحصل ذلك، عبر عرض صور سكانير الدماغ التي تضيء فيه على الشاشة هذه المنطقة الدماغية أو تلك، في هذه اللحظة أو تلك، عند نشاط مناطق اللغة أثناء سماع عبارات من لغةِ الأم، من لغةٍ أجنبية، أو من مزيجٍ منهما؛ أو من حديثٍ جانبيٍ أو فيلم.يرافق ذلك عرض فيديو لِمقابلات ميدانية مع مرضى، تعاني لديهم تلك المواقع الدماغية من تلفٍ كليّ أو جزئي، لِتبرهن طريقتُهم بالحديث صحّةَ خريطة شبكة مناطق اللغة.

تلا المحاضرة، كعادة الكوليج ندوة دُعي إليه باحث أجنبي لِيقدّم آخر اكتشافات العلم في المجال نفسه.

جميع محاضرات الكوليج موجودة بالفيديو في موقعه، ومفتوحة للجميع نهاراً ومساءً.

ثمّ ظهرت في السنوات الأخيرة فقط، ولا سيما منذ عام ٢٠١٢ الذي أطلق عليه «عام الموووك»، كما يطلق على أعوام التقويم الصيني: «عام القرد»

(بدأ في ٧ فبراير ٢٠١٦)، عام «الحصان»... وسيلة جديدة صارت حديث الساعة: MOOC، Massif Open Online Courses أو: المساق الهائل المفتوح عبر الإنترنت.

مساقات يحضرها البشر مجاناً عبر الإنترنت من أنحاء العالَم، لمتابعة محاضرةٍ ثقافية أو علمية، والتفاعل معها. يكفي أن يُسجّل المرء طلب انضمام إلى أحد المساقات الشهيرة مثل Coursera، أو Edx، لحضور المحاضرة والتفاعل معها. عدد المسجّلين في الأوّل تجاوز الخمسة ملايين قبل ٣ سنوات.

فكرة الموووك الرئيسة هي أن المرء لا يتعلّم فقط من المحاضرات النموذجية، بل من تفاعلاته مع الآخرين، ومن خوض تجارب ومشاريع ومغامرات ذاتية. أي، باستعارة تبسيطية، من مزج ما يشبه محاضرات كوليج دو فرانس، بالشبكات الاجتماعية كالفيسبوك!

لفتت هذه التجربة العالَم عندما سجّل ١٦٠ ألف طالب لمتابعة مووك في الذكاء الاصطناعي لجامعة ستانفورد، قبل سنوات. تنافست كبار المعاهد والجامعات بعدها، ومشاريع الدول، على تقديم أفضل المووكات، وأضحت هذه التجربة الديموقراطية الواعدة مفتاحاً جديداً للتعلّم، مدهشاً ومثمراً جدّاً.

من يتابع المووكات، لدراسة مادة علمية أو فكرية، يشدّه روعة أدائها وإخراجها (٢٠ ساعة عمل من الأستاذ لإعداد ساعة محاضرة واحدة، وعدد شبيه من المهندس المخرج الفني للمحاضرة). تجذبه تمارينها المفاجئة، وأبواب مشاريعها الخاصة، وصفحات النقاش والاستفسارات التفاعلية التي تُذكّر المرء بالشبكات الاجتماعية.

لكأنَّ الحضارة الحديثة وجدت في صيغة الموووك التفاعلي «حجرتها الفلسفية» التي تحوّل معدن المحاضرات التقليدية إلى ذهب، كما قال أحدهم!

أو باستعارة ميثولوجية، ثمّة في الموووك ما يمزج بين البطلين الإغريقيين أبولو وديونيزوس!

الأوّل له «عين شمسية»، كما يقول نيتشه في « ولادة التراجيديا». كلّ شيءٍ منظّم دقيق في طلعة أبولو، إله الموسيقى والشعر والجمال الذكوري. لعلّه رمز محاضرات الكوليج دو فرانس والموووك.

لكن لا يتعلّم المرء حقاً دون تجربة شخصية تكمّل العرض الأنيق، وتدخل معه بحوار وتساؤلات وجدلٍ وشدٍّ وجذب. يأتي هنا دور الشغف والرغبة والمغامرة والتجارب التفاعلية مع الآخر، أي دور أحد أهم وأشهر وأروع

آلهة الإغريق: ديونيزوس، إله النبيذ والمسرح والتراجيديا.

ماذا عنّا عربياً؟

تحدّثت سابقاً عن غياب لغة الضاد في عالم المعرفة، حيث لا تُستخدَم اليوم لكتابة العلوم والمعارف الحديثة، لا تُدرَّس بها العلومُ، تُعاني من أنيميا قاتلة في مجال الترجمة عموماً، والمعرفية على وجهِ الخصوص، وتخلو من مصطلحات المعارف العصريّة وصيغها لدرجةٍ تركت البعض يقول إنها لغةُ الدّين فقط.

أعرف مثلاً أني لو كنتُ مترجِماً لجملة علميّة صغيرة تقليدية تلتقي فيها مثلاً: Compiler، Entropy، وAutomata. لفكّرتُ ربما بالانتحار، لأني لن أجد عربياً ما يسمح لي بذلك!

لا توجد غالباً حتى مصطلحات عربية (فما بالكم بدروس أو مواد معرفية!) لترجمة مثل هذه الكلمات شديدة الجوهرية في المعلوماتية والفيزياء، أو يترجمها كلّ بطريقته، كالثانية: انتروبيا، فوضائية، اعتلاج، عشوائية...

يجلي ذلك الفراغ شبه الكلي للعربية في المجال العلمي والتقني.

ختاماً، من نافل القول إننا في أمسّ الحاجة اليوم لِتقديم محاضرات نموذجية بالعربية تكون المرجع، وتشييد موووكات بها في مختلف المجالات. إذ لا يوجد اليوم غير مووك عربي واحد تمّ عمله في... إسرائيل![2]

---

(2) http://www.unit.eu/ori-oai-search/friendly/thematic-search.html/menuKey--unt/submenuKey--authors/id--abdulrab_habib

«القراءة من دون شاشة ليست قراءة!»؛ قالت بهدوء طالبتي الذكيّة التي تقرأ كثيراً كما ألاحظ، وهي تشتغل معي على أطروحة الدكتوراه منذ ثلاث سنوات، لكنها لا تطيق قراءة كتابٍ ورقيٍّ أو نصٍّ مطبوعٍ على ورق.

لا أبالغ، إذ صار كثيرٌ من أبناء هذا الجيل، الذي التصقت عيونه بالشاشات منذ أكثر من عقدين، يعزف عن قراءة الورق، كما لو كانت عادة سحيقة مارسها الأجداد الصالحون في زمن هوموإيبيليس!

قراءة النص الورقي تُتعِبُهم، لم تعد تتكيّف مع أعينهم وأدمغتهم، وتصيبهم بالدوخة أو وجع الرأس!

بعد معاينات لأدمغة أطفال الإنترنت أثناء قراءتهم للنص الورقي أو للنص الرقمي على الشاشة (القراءة الأولى خطيّة، والثانية شذراتيّة)، وبعد دراسات حديثة للتغيّرات التي حدثت في أدمغتهم جراء استخدامهم لألعاب الفيديو ذي الأبعاد الثلاثة ولوحات المفاتيح، يجوز التساؤل إن لم نكن أمام بدايات تغييرات فيزيولوجية، قد تقود بفضل قانون الانتقاء الطبيعي من جيل إلى جيل، إلى نوعٍ بشريٍّ جديد: هومو إليكترونوس!

فعندما ترى بعض أطفال اليوم وهم يبعثون سرّاً نُصيصاً هاتفياً (إس إم إس) من هاتفٍ محشورٍ في الجيب، دون مشاهدة لوحة مفاتيحه، فيما يتحدثون معك في الوقت نفسه، ستستوعب أن ثمّة أشياء في بنية أدمغتهم تتغيّر، نحو الأفضل أحياناً، ونحو الأسوأ أحياناً أخرى.

فمن ناحية، قادت هذه التغيّرات إلى مَلكة «ذكاء الأصابع» حسب تعبير فريق أبحاث إيف كوبانس، المكتشف الشهير لِجسد جدّتنا لوسي في إثيوبيا، وإلى ما أشاد به من مواهب جديدة اكتسبها أطفال الإنترنت في العلاقة بين العين واليد، وفي التفاعل مع الفضاء المحيط.

ومن ناحية أخرى، فقدوا شيئاً من المقدرة على التركيز والتذكّر بسبب إدمانهم الكمبيوتر والإنترنت، أعطت لهذه العبارة: «أحنّ إلى دماغي الذي سبق الإنترنت!» قيمتَها ومحلَّها من الإعراب في عالم اليوم.

لهذا الجيل الجديد: القارئُ الإلكتروني كتاب اليوم بامتياز.

إذا ما هاجمتَهم بمدح الكتاب الورقي والتغنّي برائحة الأوراق، فسيقولون لك إن رائحة الكافور تثير تقزّزهم، وإنك تمارس أشواق المومياءات، لأن الإنسان القديم كان يحنّ أيضاً إلى رائحة أوراق البردى والألواح الحجرية قبل صناعة الكتاب الورقي أيضاً، لكنها سنّة الحياة.

القارئ الإلكتروني، مثل كندل الذي تبيعه شركة أمازون (أقلّ من ربع سعر الآيفون)، غيّر حياة من له تجربةٌ معه، مثلي، لمصلحة القراءة الإلكترونية.

لأقولها من البدء: لا يعني ازدهارُ هذه الطريقة الجديدة في القراءة موتَ الكتاب الورقي، كما كان يخاف الجميع. لكنها تجربةٌ جديدة، مثلها مثل الآيفون الذي لم يقضِ على الهاتف الثابت، ولم يقضِ على الاتصالات، بل العكس، لعب دوراً في مضاعفة تواصل الناس بعضهم ببعض، وفي تجديد حياة الهاتف الثابت.

كذلك، رغم اكتساحِ القراءة الإلكترونية للقراءة الورقية (نحو ٣٠٪ من مبيعات الكتب في أميركا إلكترونية)، وأخذِ الأولى عموماً نصيب الأسد من حياة الإنسان، لم يختف الكتاب الورقي، بل ازداد استخدامه في مجالات معيّنة مع ازدياد القراءة الإلكترونية في هذه المجالات نفسها! لكنه اختفى تقريباً في مجالات أخرى كالموسوعات، القواميس، معظم الكتب العلميّة، وثائق المؤتمرات العلمية.

كلّ ذلك ضمن اتجاهٍ عامٍ لحضارة اليوم هدفُهُ إلغاءُ الورق في المعاملات، عبر الرقمنة وإجراءاتٍ عولميّةٍ لتوحيد صيغ وبروتوكولات تبادلها الرقمي، اسمه: Dematerialisation، أو: «الاسترقام»، حسب مقترح ترجمةٍ أنيقةٍ للمصطلح على وزن «الاستسقاء»، اقترحهُ الأستاذ فاروق مردم بيه.

مثل غيري، كنتُ من المتعصبين للقراءة الورقية، ولي مثلهم معها طقوس وشجون وعلاقة غرامية حميمة يصعب خيانتها. لكن «الحياة تجري بما لا اشتهي»، وها أنذا أعيش بعلاقتين متناغمتين متكاملتين: القراءة الورقية والقراءة الإلكترونية على الكندل.

للثانية خصائص مُغرية يستحيل عدم الوقوع في أحضان سحرِها. فشاشة القارئ الإلكتروني تستخدم تقنية «المداد الإلكتروني» المدهشة. ذلك يعني تشبه ورقة الكتاب من حيث كونها لا تبعث الضوء كشاشة الكمبيوتر والآيفون والآيباد، ولكنها تعكسه، مثل ورق الكتاب.

ويمكن لذلك أن يصاحبنا القارئ الإلكتروني إلى الساحل تحت الشمس حيث يصعب قراءة كمبيوتر، فضلاً عن كونه خفيف الوزن مثل كتاب الجيب لا غير.

ثمّ بطاريته، بسبب شاشته التي تكتفي بعكس الضوء وليس بصنعه وبعثه، اقتصاديةٌ جداً، يمكنها أن تظلّ مشحونةً لأسابيع قبل إعادة تعبئتها.

شاشة القارئ الإلكتروني الوردية، بتقنية مدادها الإلكتروني، مريحةٌ جدّاً للعين، جذّابةٌ جداً، قابلةٌ لتغيير مستوى إضاءتها العاكسة، فضلاً عن أن حجم بنط الحرف فيها يمكنه أن يكبر أو يصغر ليتكيّف مع كل عين، وهذا

القارئ الإلكتروني، مثل كندل الذي تبيعه شركة أمازون (أقلّ من ربع سعر الآيفون)، غيّر حياة من له تجربةٌ معه، مثلي، لمصلحة القراءة الإلكترونية.

لأقولها من البدء: لا يعني ازدهارُ هذه الطريقة الجديدة في القراءة موتَ الكتاب الورقي، كما كان يخاف الجميع. لكنها تجربةٌ جديدة، مثلها مثل الآيفون الذي لم يقضِ على الهاتف الثابت، ولم يقضِ على الاتصالات، بل العكس، لعب دوراً في مضاعفة تواصل الناس بعضهم ببعض، وفي تجديد حياة الهاتف الثابت.

كذلك، رغم اكتساحِ القراءة الإلكترونية للقراءة الورقية (نحو ٣٠٪ من مبيعات الكتب في أميركا إلكترونية)، وأخذِ الأولى عموماً نصيب الأسد من حياة الإنسان، لم يختف الكتاب الورقي، بل ازداد استخدامه في مجالات معيّنة مع ازدياد القراءة الإلكترونية في هذه المجالات نفسها! لكنه اختفى تقريباً في مجالات أخرى كالموسوعات، القواميس، معظم الكتب العلميّة، وثائق المؤتمرات العلمية.

كلّ ذلك ضمن اتجاهٍ عامٍ لحضارة اليوم هدفُهُ إلغاءُ الورق في المعاملات، عبر الرقمنة وإجراءاتٍ عولميّةٍ لتوحيد صيغ وبروتوكولات تبادلها الرقمي، اسمه: Dematerialisation، أو: «الاسترقام»، حسب مقترح ترجمةٍ أنيقةٍ للمصطلح على وزن «الاستسقاء»، اقترحهُ الأستاذ فاروق مردم بيه.

مثل غيري، كنتُ من المتعصبين للقراءة الورقية، ولي مثلهم معها طقوس وشجون وعلاقة غرامية حميمة يصعب خيانتها. لكن «الحياة تجري بما لا اشتهي»، وها أنذا أعيش بعلاقتين متناغمتين متكاملتين: القراءة الورقية والقراءة الإلكترونية على الكندل.

للثانية خصائص مُغرية يستحيل عدم الوقوع في أحضان سحرِها. فشاشة القارئ الإلكتروني تستخدم تقنية «المداد الإلكتروني» المدهشة. ذلك يعني تشبه ورقة الكتاب من حيث كونها لا تبعث الضوء كشاشة الكمبيوتر والآيفون والآيباد، ولكنها تعكسه، مثل ورق الكتاب.

ويمكن لذلك أن يصاحبنا القارئ الإلكتروني إلى الساحل تحت الشمس حيث يصعب قراءة كمبيوتر، فضلاً عن كونه خفيف الوزن مثل كتاب الجيب لا غير.

ثمّ بطاريته، بسبب شاشته التي تكتفي بعكس الضوء وليس بصنعه وبعثه، اقتصاديةٌ جداً، يمكنها أن تظلّ مشحونةً لأسابيع قبل إعادة تعبئتها.

شاشة القارئ الإلكتروني الوردية، بتقنية مدادها الإلكتروني، مريحةٌ جدّاً للعين، جذّابةٌ جداً، قابلةٌ لتغيير مستوى إضاءتها العاكسة، فضلاً عن أن حجم بنط الحرف فيها يمكنه أن يكبر أو يصغر ليتكيّف مع كل عين، وهذا

ما يستحيل عمله مع الكتاب الورقي بالطبع!

ومن الخصائص الشديدة الإغراء فيه، أنك لا تحتاج معه إلى قاموس أو موسوعة للبحث عن معنى مفردة، أو تعريف مصطلح. يكفي أن تمس الكلمة بطرف إصبعك لتنفتح لك نوافذ جانبية تقدّم لك معناها في القاموس، وما تقول عنها الموسوعة.

غير أن ذروة السحر، هي أنك ترتبط بفضل القارئ الإلكتروني بملايين الكتب، ويمكنك أن تشحن فيه ما تريد من حيث كنت، ومجاناً إن كان الكتاب قد تجاوز بسبب أقدميته الزمنية (عدّة عقود) حقوق المؤلف.

في هذا الجهاز الصغير الذي يقلّ وزنه عن ربع كيلوغرام، يمكنك شحن معظم كتب الدنيا والتسكّع معها في البيت والحمام والحدائق العامة والطائرات والمطاعم وسرير النوم!

غيّر الكتاب الإلكتروني حياتي لأكثر من سبب. أهمّها: حال وصولي إلى فرنسا للدراسة الجامعية في المجال العلمي، ثم للعمل مهندساً أولاً قبل أن أمسي بروفيسوراً جامعياً منذ ١٩٩٢، وجدتُ أن عليّ أن أكون انتقائياً في قراءاتي الأدبية؛ ولا سيّما أن بعض وقتي اليومي مكرّس للكتابة الأدبية، ومساحة اليوم ٢٤ ساعة فقط.

اكتفيتُ لذلك بالمتابعة الجادة للأدب المعاصر. وصارت لي قائمة واسعة من كُتّاب عصري الذين أقرأهم بانتظام، وأشتري كتب بعضهم يوم صدورها.

هكذا تأجّل من عامٍ لعام موعد قراءة الكتب الكلاسيكية التي لم أقرأ ترجماتها بالعربية في صباي العدَني.

ومع مرور الوقت، بدأتُ أظنُّ أنه تلزمني حياة جديدة لقراءة ما لم أقرأه لِمارسيل بروست، شاتوبريان، جيمس جويس، ستاندال، وعدد من الكتّاب الروس والإنكليز الذين لم أقرأ من أعمالهم إلا قليلاً. تحوّلَ التأخر في قراءتهم إلى عقدةٍ تخنق عصبونات دماغي، فضلاً عن هوَسِ قراءة ما لم أقرأه من أمهات الكتب بالعربية.

بعد ارتباطي بالقارئ الإلكتروني تساءلتُ: بماذا أبدأ؟ اخترتُ كتاباً كلاسيكياً مجانياً صغيراً قرأته خلال عدة ساعات قبيل النوم. تكرّرت التجربة اليوم الثاني مع «البحث عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست الذي أخذ عدّة أيّام ولذةً فاقت لذّة قراءته ورقياً، ولا سيّما أن البحث عن معنى هذه المفردة الغامضة أو عن بعض التفاصيل الموسوعية لأخرى، تظهر في نافذةٍ مؤقتة فوق المفردة، حال لمسها. تواصلت التجربة أكثر فأكثر، وانفتحت لي أبواب وعوالم جديدة.

ثمّ عاد لي هوَس القراءة بالعربية على الكِندل! سأكرّسُ الفصل القادم للحديث عن علاقتها به، والأسباب العميقة لعدم اندماجها في عالمه.

لِجهاز القارئ الإلكتروني، مثل كِندل، مع لغة الضاد مشاكل يلزم معرفة جذورها وحلّها السريع. ولا سيّما أنه تجربةٌ جديدةٌ في القراءة لها خصائص مدهشة وإمكانات واعدة. لم يأتِ للقضاء على القراءة الورقية، ولكن لِيرافقها، مثل الآيفون الذي لم يأت لِيدفن الهاتف الثابت، ولكن لِيتزاوج معه.

يزعجني عندما أرى في الرحلات الجويّة الغربية معظم الناس يحدّقون في «كنادلهم» ولا أدري ما يقرأون.أسترجع ذلك الزمان الشفّاف السحيق الذي كنت «أتلصّص» فيه على عناوين الكتب التي يقرأها ركاب الطائرات، وأطلق بيني وبيني نظريات حول العلاقة بين شخصياتهم، أشكالهم، والكتب التي يقرأونها. لكن أكثر ما يؤلمني حقّاً أني أجد الناس في الرحلات الجويّة الغربية يحملقون بكنادلهم طوال الرحلة، فيما لا أرى قارئاً إلكترونياً واحداً بيد مواطنٍ عربي في رحلةٍ جويّة عربية!

سيقول هنا أحدنا إن السبب هو خلوّ كندل من لوحة المفاتيح بالعربية، وعدم امتلاك جهازها كتباً عربية للبيع، و«ذلك لإضعاف لغة القرآن من قبل الغرب»، كما قرأتُ في مدوّنةٍ عربيّة!

ينسى صاحب الرأي أنه يطبع نصّه على ناشرٍ إلكترونيٍّ أميركي (كناشر ميكروسوفت أو آبل) يسمح بالنشر العربي، وفي مدوّنةٍ صنعها الغرب تسمح باستخدام العربية، وإذا فكّر في الترجمة الآلية إلى العربية فسيجد غوغل وغيره من الوسائل الغربية.

جميعها شركات رأسمالية جشعة لا تبحث إلا على الربح وتراكم المليارات. وعندما تصنع لك ناشراً إلكترونياً بالعربية، فليس لإعلاء لغة القرآن، بل لأنها ستبيع لك هذا الناشر وتكسب مقابل ذلك.

وعندما لا تضع خدمة بيعِ كتبٍ بالعربية، فلأنها تعرف أن ذلك غير مربحٍ لها في بلدانٍ تجتاحها الأميّة، لا يشتري سكّانها الكتاب الورقي إلا في ما ندر، فكيف بالكتاب الإلكتروني، وبواسطة بطاقة مصرفية لا يمتلكها أحدٌ هناك غالباً؟

الأهم: لا يمكن أيّ قارئ إلكتروني تطوير خدمةٍ للغةٍ لا تمتلك «قارئاً ضوئياً» O.C.R يحوّل النص الورقي إلى نصٍّ رقمي. والعربية هي اللغة الوحيدة من اللغات المهمّة التي لا تمتلك ذلك.

لأذكّر: القارئ الضوئي برنامجٌ يسمح عند عمل سكانير لصفحة كتابٍ ورقيّ

بتحويل الصفحة إلى نصٍّ رقميٍ، كما لو كان قد طُبِعَ بناشرٍ إلكترونيٍ مثل «وورد»، وليس إلى مجرد صورة، على غرار صورِ الـ PDF.
لا مجال للمقارنة بين النص الرقمي وصورته، فالأول يمكن التعامل معه ومعالجته من قبل الكمبيوتر: معرفةُ كلماته، ترجمتُها، نطقُها من قبله، تكبيرُ حجمها... فيما صورة النص بسكانير يخلو من O.C.R، في أعين الكمبيوتر، ليست أكثر من مجرّد شخاطيط، لا تختلف عن لوحة الجوكوندا في عين فأر.
معظم الكتب التي يعرضها القارئ الإلكتروني جرى تحويلها، بفضل القارئ الضوئي، من كتب ورقية إلى نصوصٍ رقمية كما لو طُبِعت بناشرٍ إلكتروني، ومعظمها كتبٌ ظهرت قبل الكمبيوتر.
بطبيعة الحال، يمكن إقحام كتابٍ عربيٍ بصورة الـ PDF في الكندل مثلاً، لكن لن تكون له خصائص كتب النصوص الرقميّة التي يعرضها القارئ الإلكتروني.
كلما تذكرتُ (أي معظم الوقت) عدم امتلاك لغتنا لِهذا القارئ الضوئي الذي لم أتوقّف، منذ عشر سنوات، عن التلويح والصراخ بأهميته المفصلية اللازمة لدخول العربية العصر الرقمي، تذكرتُ أحد الأغنياء العرب الذي قدّم لعارضة أزياء سويدية شهيرة عرضاً رفَضتهُ بمليون دولار لتتناول العشاء معه فقط!
كان بإمكانه أن يدخل التاريخ لو قدّم هذا المبلغ لفريقٍ هندسيٍ عربي، يرافقهم، باحثَين أو ثلاثة، لتصميم هذا القارئ الضوئي الغائب!
لا يمكن أن يكون المرء غيوراً على لغة الضاد، وهو يرى هذا النقص المهين لها، الذي لم تعمل على ردمهِ مؤسسةٌ مدنيّة أو دينيّة أو دولةٌ أو إنسان، رغم تبذير الملايين في مشاريع تافهة، أو دون أهميةٍ بهذا الحجم.
لن تتأخر شركات القارئ الإلكتروني، وغيرها ممن لا يهمها إلا الربح، ثانيةً واحدةً بالطبع عن إضافة العربية لخدماتها إذا ما وُجِدَ قارئٌ ضوئيٌ لها. لكن إدخال العربية كخدمة، في ضوء غيابه، أشبه بإهداء جهاز بيانو لكسيحِ مبتور اليدين!
في بلدان اللغات المهمّة والشعوب الناهضة، ثمّة روبوتات تحوّلُ ليل نهار، منذ عقود، كل الكتب والمجلات والصحف والمطبوعات الورقية، ولا سيّما التي ظهرت طوال القرون التي سبقت الكمبيوتر، إلى نصوصٍ رقمية.
ومنذ عقود لم تتوقف المشاريع البحثية على دراسة هذه النصوص لألف غرضٍ وغرض: تهمُّ علماء اللغة لتأليف وتطوير معاجم تاريخ مفردات اللغة. ولِلتعرّف الآلي إلى هذا الكاتب أو ذاك من خصائص مفرداتهِ وأسلوبه،

وتحديدِ النصوص المشكوكِ من كتابتها.
وتهمُّ المؤرخين وعلماء الاجتماع لدراسة ظواهر تاريخية واجتماعية ومعرفية متنوّعة في حياة شعوبهم، بعضها شديدة الجوهرية، عبر تحليل آلي إحصائي لمختلف النصوص المكتوبة قبيل الظواهر وأثناءها.
كم نحتاج لهذا القارئ الضوئي للغة العربية سريعاً لدمجها في العصر الرقمي، وعالَم القارئ الإلكتروني. إذ بفضل خصائص هذا القارئ، يتحوّل المرء غير قادرٍ عن الابتعاد عنه، كما هو مع الآيفون. يكفي أن يتسكّع في غابة كتب أمازون، غوغل بوكس، جارليكا: المكتبة الفرنسية الرقمية، وموقع منجم مناجم الإنترنت:Internet Archives، ليجد كتاباً مجانياً يشتهيه قبل النوم، بين ملايين الكتب الكلاسيكية المجانية، وليشحنه للقراءة في جهازه.
أعترف مع ذلك بأني لم أشترِ كتاباً جديداً لكاتب معاصر على الكندل إلا مرّتين! ربما لأني ما زلت أعتقد خطأً أن الكتاب لن يكون مِلكي إلا إذا ما كان بين يديّ لحماً وشحماً، أي غلافاً وورقاً. لعلّي ما زلتُ بعقلية مواطن المجتمعِ «الاستهلاكي»، وليس مواطن المجتمع «الاتصالي».
صحيح أنه حدث ذات مرّة أن أمازون سحبت من مكتبتها كتاباً وُجِد فيه خطأ مطبعي، واعتذرَتْ برسالة إيميل لمن اشتروا الكتاب! وجد هؤلاء أجهزتهم الإلكترونية من دونهِ بين عشيّة وضحاها، دون إذن، وإيميلاً يقول لهم إن ثمّة خطأً سيُصحَّح، وستُبعثُ لهم نسخةٌ جديدة!
في البدء، صدمني أن يختفي من جهاز إنسانٍ كتابٌ اشتراه. ثمّ تساءلتُ: كم عدد الكتب الورقية المترعة بالأخطاء المطبعية أو المعرفية أو التنقيطية التي بودّي أن أستعيد ثمنها بعد قراءة صفحتها الأولى، أو أن أرميها إلى سلّة المهملات؟!
بطبيعة الحال، في حال وجود خطأ في الكتاب الورقي، يلزم على دار نشره أن تعيد طباعته كليةً لتصحيح الخطأ، بينما تكفي دقيقة واحدة لتصحيح الخطأ في الكتاب الإلكتروني، وذلك بتصحيح النص الرقمي في ناشرٍ إلكتروني، ثمّ إعادة إرسالِهِ إلكترونياً بالطبعة الجديدة لكل من اشتراه.
ذلك ممكنٌ جداً بفضل عبقرية النص الرقمي، أعظمِ اكتشاف للإنسان منذ فجر التاريخ!
ختاماً أقول: عدم امتلاك العربية لقارئٍ ضوئي يعوق، في ما يعوق، دخولها عصر القارئ الإلكتروني، ويُعتبر ثاني أهمّ أمراضِها الكبرى في العصر الرقمي، بعد المرضِ المستديم الأوّل: غيابها في عالم المعرفة حيث لا

تُستخدم اليوم لكتابة العلوم والمعارف الجديدة، لا تُدرَّس بها العلومُ، تُعاني من أنيميا قاتلة في مجال الترجمة عموماً، والمعرفية على وجهِ الخصوص، وتخلو من مصطلحات وصيغ المعارف الحديثة لدرجةٍ تركت البعض يقول إنها لغةُ الدِّين فقط!

سلفي في منتهى الخشوع!

قبل أيام من نهاية عام ٢٠١٥ كنت أقرأ لِمهندسٍ معروف، يسكن في مدينةٍ غارقةٍ بالحرب، هذا المنشور الذي هزّني: «أشعر بالطفش ووجعِ القلب من كلّ هذه الدنيا. لا أدري ما العمل. أخذت لنفسي ٤٥٣ صورة (سِلفي)، وما زلت طافشاً. أيعرف أحدكم ما الحل؟».

لم يستطع صاحبنا تقيؤ طفشه كما قال، لكنه باعتراف كل التعليقات على منشوره: قلّل بعضاً من طفشِ قُرّائه.

لم يتغيّر شيء: «الطفشُ» الوجوديّ الذي لم يعرف له الإنسان حلّاً من أزل الآزلين أقوى من هذا السلاح الجديد: الصور السّلفية. أما السرد والبوح والدهشة فتظلُّ أنجح نسبيّاً، كما يبدو.

كلمة «سِلفي» تعني: صورة يأخذها الإنسان لِنفسِه بهاتفه المحمول، ويضعها في الشبكات الاجتماعية. لعلها أهم كلمة في عام ٢٠١٣، حسب إحصاء جامعة أكسفورد. ويتصاعد حضورها في حياتنا مذّاك أكثر فأكثر.

عدّة مليارات من الصور السّلفية أُخِذَت طوال عام ٢٠١٥، ومليارات في أسابيع الأعياد ورأس السنة وحدِها فقط. فإذا كنّا فعلاً نعيش في «عصر الصورة الرقمية»، فلعلّ «عصر الصورة السّلفية» هذا أرقى مراحلها، مثلما «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» على حدّ تعبيرٍ شهير.

إليكم أوّلاً، للتأمل، نماذج عناوين صورٍ سِلفيّة رأيتها على الإنترنت: «سِلفي وأنا في منتهى الخشوع في المسجد النبويّ»!؛ «سِلفي وأنا أبكي»، لِسياسيٍّ يمني يغيّر معطفه كل يوم!

وهاكم منشورين فيسبوكيين حقيقيين أيضاً: «ماتَ للأسف قبل أن نأخذ سِلفي مشترك!»؛ «أصدقائي، أرجوكم لا تموتوا قبل أن نأخذ صورة سِلفي معاً!».

للصور السّلفية «شهيد»: داني باومان شاب إنكليزي أدمن أخذ السّلفي منذ الثالثة عشرة. طُرِد من المدرسة في السادسة عشرة لأنه يغادر الصف ثلاث مرات يومياً على الأقل لأخذ سِلفي!

ساعده الطرد على التفرغ لإدمانه المفضل: العزلة في البيت لأخذ نحو مئتي سلفي في اليوم، بحثاً عن السلفي النموذجي الأوسم.

داني، الذي «يشبه يوسف بجماله» في مقاييسنا العربية، كان مصاباً بمرض «الخوف من القبح» الذي يُفسّر بحثَه المجنون عن السّلفي الكامل الأوصاف الجمالية! لم يجد داني ضالته المنشودة طوال ثلاث سنين من

البحث. وفي التاسعة عشرة، فقد اثني عشر كيلوغراماً من وزنه بسبب ذلك، وارتكب محاولة الانتحار بشرب عدد كبير من المهدئات! انقذته أمُه في اللحظة الأخيرة.

يروى (والله أعلم!) أن السّلفي الأخير قبل محاولته الانتحارية أخذه وهو يعمل بسبّابة ووسطى يده اليمنى إشارة النصر: ٧.

الباحث عن تفسيرٍ فلسفيٍ أو نفسيٍ لِظاهرة الصور السّلفية سيستغرب من تناقض الأطروحات وتلاطمها:

للبعض: أخذُ سِلفي يدلّ على النرجسية وجذور البسيكوباتية! برهانهم: معدّل ميلِ النرجسيين والجهاديين الدينيين إلى أخذ الصور السّلفية ونشرها يتجاوز المتوسط بكثير.

للبعض الآخر: الصورة السّلفيّة بصمةٌ نضالية بتوقيعٍ فردي، لِتوثيق اللحظة، اليوميّ، الذاكرة الجمعيّة... عداءُ أخذ السّلفي يأتي غالباً من انتماءات ارستقراطية ترفض أن يكون المواطن البسيط في الموقعِ المركزي المحجوز للنجوم لا غير.

دليلهم: الممثلة الفرنسية كاترين دونوف وأمير بريطانيا لا يستمرئان صور السّلفي الشعبية، بينما البابا فرانسوا (بابا الكادحين!) يميل كثيراً إلى أخذها.

ثمّة اليوم مَعارض فنيّة دولية لِصور سِلفي متخصصة: «سلفي الأقدام على الشبكات الاجتماعية»، معرض «إجابةُ الأصبعِ الوسطى!» في نيويورك.

وثمّة مواد دراسية في بعض الماجستيرات الفنيّة والاجتماعية عن الصور السّلفية كنوعٍ فنيٍ جديد يطمَ طوفانُه العالَمَ الرقمي، وإن ما زالت البشرية اليوم في عصرِهِ الحجري.

ومن يدري، قد يأتي اليوم الذي يقام فيه معرضٌ يستمر ستة أشهر في «القصر الكبير» في قلب باريس للصور السّلفية بعد الصحو من النوم مباشرة، بعنوان: «سِلفي على الريق»!

الصور السّلفية تكتسح اليوم الأفراح والمآتم معاً. إليكم بعض مشاهدها:

طقوس حفلة «دفن العزوبية» تسبق حفلة الزفاف بيوم أو يومين. تؤخَذ فيها سلسلة صور للعروس والعريس في موقعٍ جغرافيٍ متميّز، بفستانِ الزفاف الأبيض وطاقم المعطف وربطة العنق الخاصة بحفلة الزفاف.

يقرّر روسيان (من طبقة اجتماعية مافياوية يسمّيها الروس احتقاراً: «الروس الجدد») أن تكون طقوسهم هذه بعد الشروق مباشرة، على بعد آلاف الكيلومترات، في مدينة ميونيه الفيتنامية الساحلية، حيث يلتقي في نفس المكان البحرُ بالغابات بالصحراء بالجبال و«النهر الأحمر».

يصعدان ببطء وصعوبة نحو علياء أعلى كثيبٍ متاخمٍ لساحل المدينة، يرافقهما أقرب الأصدقاء، ومصوِّرٌ فوتوغرافي محترف شرح لهما أنه لم تعد آخر صرخات الموضة اليوم أن تأخذ سِلفي بهاتفٍ واحد، بل باثنين: سِلفي بالهاتف الثاني لك وأنت تأخذ سِلفي بالأوّل. أي سِلفي مُربَّع.

من وحي ذلك، يأخذ العريس هاتفه المحمول الثاني كما لو يأخذ سِلفي لِعروسته وهي تأخذ سِلفي معه وهو يأخذ السِّلفي بالهاتف الأوّل لهما.

ثمّ تُخرِج العروسة هاتفها الثاني للسلسلة الجديدة من الصوَر الأكثر فأكثر بهلوانيةً و«سِلفيّة».

اكتسحت الصور السِّلفية طقوس التأبين وعوالم الموتى أيضاً.

حتّى نهايات القرن الماضي (يعني: عصر الديناصور!)، كنّا لا نستطيع تَحمُّل رؤية من نحب ميّتاً على السرير، ونعتذر عن مشاهدته في تلك الوضعيّة: لا نريد أن يقبع جثّةً هامدة في صورتِه الأخيرةِ المنتصَبةِ في واجهة الذاكرة.

تغيّر كل شيءٍ الآن في هذا العصر الجديد الذي انقطع فيه عرق تأنيب الضمير على القتل في جبين الإنسان. الإنسانُ الذي أمسى يضع بكلّ برودة سِلفي للقاتل بجانب المقتول، على الفيسبوك. الفيسبوكُ الذي لم يعد يمكن فتحه دون أن ترتطم على أعيننا مناظر موتٍ كابوسية تدمّر أليافنا العصبية.

أحدُهم وضع صورةً لوالدتِهِ وهي جثة هامدة على فراش الموت، قبل نقلها إلى التابوت مباشرة. لعله أوّل من عزّى هذه اللحظة الحميمةِ الواحدةِ الإحدى، دون استئذانِ أحد، ولا سيّما والدته المغدورة.

نال أكثر من سبعة آلاف لايك (هو الذي لم يحصد يوماً أكثر من سبع لايكات) في هذا العالَم الجديد الذي تتناسب فيه طردياً قيمتُك الاجتماعية مع عدد اللايكات التي تنالها منشوراتك!

ظلّ هذا الرقم قياسيّاً حتّى خطر ببال صديقٍ له تجاوزُه: وضع سِلفي له مع جثمان والدته في نفس الوقت: «سِلفي مع أمّي في سرير الموت»!

النتيجة: أكثر من ١٧٠٠٠ لايك!

غير أن الصور السِّلفية رفيقةُ الطفش في الغالب.

كنتُ مؤخراً في أحد مطاعم مدينةِ شرق آسيوية ناهضةٍ جداً. أمامي أكثر من عشرين شاباً يعملون في بنك، يتناولون «عشاء الفريق»، وجبة ترفيهية تفاعلية لتوثيق العلاقة الوديّة الحميمة بين أعضاء الفريق خارج العمل، وتمتين تواطدهم.

أراقب ما يدور بِعينِ ميكروسكوبية: الجميع يأكل دون أن يهمس للآخر

ببنت شفة. بين لقمةٍ ولقمة، يستغرقُ كلّ واحدٍ بقراءة شاشة هاتفه المحمول، لا غير!

أكاد لا أصدّق! لا كلمة فعلاً طوال العشاء، وعندما لا يجد هذا أو ذاك ما يقرأه في شاشةِ هاتفهِ المحمول، يرفعه قليلاً لأخذ سِلفي له وحده، قبل أن يعود للخوض في المائدة ويفاوض أحد صحونها!

كدتُ أصرخ ملء المطعم: «سِلفي جماعي على الأقل، اتّقوا الله!».

عُرِضَ عليّ، على هامش دعوةٍ أدبية في بلدٍ عربي، أن ألتقيَ مع طالبات مدرسة ثانوية في حوارٍ مفتوحٍ لساعتين. هلّلتُ من الفرح، وبدا لي، في قرارة نفسي، هذا اللقاءُ أهمَّ من الدعوة الأدبية نفسها! إذ إني سأصغي مباشرةً إلى آراء ومقترحات شريحة ممن لا معنى لحياتي دون التفاعل معهم والكتابة لهم.

تساءلتُ: ماذا «سأمَرِّر» من أفكار في الحوار؟

آه، بضاعتي المفضَّلة لم تتغير: بيع التساؤلات والدهشة والنقد والرفض، والترويج لحبّ القراءة وممارسة الإبداع. يكفيني أن أحفِّزهن على ذلك.

تقلّني السيارة صباحاً من الفندق، ترافقني فيها شابّة جامعية. لاحظتُ كم أحب هذه المدينة العربية الأصيلة، منذ أن كنتُ أهوى جمع الطوابع في طفولتي. كان لديّ طابع بريدٍ أفخر به، أجملُ طوابعي، عليه صورة هذه المدينة!

أصلُ بابَ المدرسة. تقودني مرافقتي إلى غرفةِ المديرة التي استقبلتني بحفاوة. حوارٌ خفيفٌ على طاولةٍ زاخرة.

درَست حضرتُها البيولوجيا في بريطانيا. قادنا ذلك إلى الحديث مباشرة عن رحلة سفينةِ دامت خمس سنوات حول العالَم: «بِيجِل»، أقلّت شاباً يدرس الكائنات الحيّة، غيّرَ كتابُه «أصل الأنواع»، الذي اكمله بعد الرحلة بعدة سنين، تاريخَ العِلم الحديث.

تعرفُ السيّدة الجليلة تفاصيل يوميات هذه الرحلة، وتشرحها لي بشغفٍ بديع، منذ فاتحة اكتشافات الباحث الشاب في جزر أرخبيل جالاباجوس المقابل للإكوادور، حتى اكتشافاته في مدينةٍ في شمال أوستراليا، سُمِّيَت بعد ذلك باسمه: داروين.

حان موعد اللقاء بالطالبات. أترك المديرة. حسرتي الوحيدة أنها كانت بنقاب لن يسمح لي بأن أتعرّف إليها إذا رأيتها في شارعٍ ما، ذات يوم، لأقول لها ببساطة: صباح الخير!

أصل إلى قاعة المحاضرة. تتقاطر الطالبات. تبدأ مدرّسةُ تقديمي بقراءةِ سيرةٍ عني وجدَتها في ويكيبيديا. أزعجني ذلك مرّتين، إحداهما بسبب هذا المدخل الرسمي. ولأنها قرأته بصوتٍ مصطنعٍ زائف، على طريقة مذيعات إذاعة «صوت العرب» المتكلفات جدّاً.

قلتُ بعد الشكر:

- ليكن حوارُنا نقاشاً مفتوحاً وأخذاً ورداً. أترك لكُنَّ توجيه تساؤلات عن المجالات التي سمعتموها أثناء التقديم، ولي تجارب متواضعة فيها كالتدريس والبحث الجامعي، الرواية، الرياضيات وعلوم الكمبيوتر.

صمتُ كلي. أعدتُ طلبي بلهجة تشجيعية أفضل. لا جديد.

لجأتُ إلى مدح ضرورة أن تكون أدمغتنا ماكنات تساؤلات، لأن المعرفة تبدأ من التساؤل. لا جديد. الصمتُ المطبق نفسُه.

لعلي اضطربتُ قليلاً، وانتقلتُ إلى التهديد الودّي. قلتُ: إذا لم توجّهن الأسئلة، فلديّ لكل واحدةٍ منكن مئة سؤال! لا أبحث في الحقيقة عن سؤال مدهشٍ نادر لم يخطر ببال، بل عن تساؤلٍ راودَ إحداكنّ يوماً، لِنستهلّ الحوار به.

تجرأتْ إحداهنّ بهذا الاعتراف الخافت:

- لسنا متعودات طرحَ الأسئلة. الأستاذة تقول لنا: «لا ترفعنَ يداً لتوجيه سؤال. أنا هنا من أوجّهُ الأسئلة!».

اعترتني صدمة. انساب مني، بلا شعور، خطابٌ حارٌّ لِنسف ما تعوّدنه من كتمِ التساؤل، وقتلِ روحه. ثمّ:

- أثقة سؤالٌ الآن؟

ردّت إحداهنّ:

- نتعلّم الرياضيات في المدرسة، لكننا لا ندري ما فائدتها؟

مدحتُ السؤال من باب التشجيع، ولم أقل لهنّ إنه يشبه سؤال: ما فائدة الأوكسجين؟ ثمّ أحببتُ أن لا أردّ بطريقة تقليدية، منطلقاً من عبارة غاليليو: «الكون كتابٌ لغته الرياضيات»، كاشفاً ومبرهناً لهنّ أن «ملِكة العلوم» تقطن في كل حركة وسكنة: من هيئة شبكة خلية العسل، حتّى بناء السفينة الفضائية وورقة طريقها، مروراً بتشفير الرسائل الإلكترونية.

فضّلتُ، بدل ذلك، أن أعطي مثالاً مدهشاً مرتبطاً بحياة اليوم. شرحت لهنّ حالة موتورات الأبحاث على الإنترنت قبل غوغل، وكيف استطاع شابّان، في العشرين من العمر، اكتشاف معادلة رياضية صغيرة تسمح بإعطاء ردودٍ أفضل من ردود تلك الموتورات. وكيف بنيا بفضلها إمبراطورية شركة غوغل ذات الثروة التي تفوق ثروات دول كبيرة، مفصّلاً في شرحي أهميّة معادلتهما في إدارةِ معارفِ البشرية، الأهمّ من كل ثروة.

لم ألاحظ أية دهشة! صدمةٌ جديدة هزّتني، أنقذتني منها المرافقة الشابّة التي سرّبت لي ورقةً صغيرة عليها: «لم يسمعن عن غوغل، بالتأكيد!».

- هل تعرفن موقع غوغل على الإنترنت، وتستخدمن تطبيقاته في هواتفكنّ؟

- «لا، يا أستاذ»؛ قلن جميعاً بصوتٍ ممطمطٍ إنشاديٍّ مشترك، كقطيعٍ مدرّب على الردّ الجماعي، أثار كلّ استغرابي!

- لماذا لم تقاطعني إحداكنّ وتقول لي وأنا في مطلع السرد: «شو هذا غوغل؟».

ثمّ حاولتُ شرح طريقة عمل غوغل لهنّ، ماضيه وحاضره ومستقبله، وعلاقةَ استخدامه بموضوع التساؤل الذي سردتهُ سابقاً، وضرورة البحث الدائم فيه.

- سؤال آخر؟ قلتُ.

- «لا، يا أستاذ!»؛ قلن من جديد بصوت قطيعٍ واحد، وبنبرةٍ إنشاديّةٍ غريبة!

- خلاص، لديّ سؤال لكل واحدة منكن: ما هو أحب كتابٍ قرأتِه، ولماذا؟

صمتٌ مطبق.

- لا نقرأ الكتب إلا في حصّة اللغة العربية؛ ردّت إحداهن.

دخلتُ في وعظٍ آخر، ما كاد ينتهي، عن أهميّة القراءة. عبثيٌّ ربما، لأني لم ألاحظ عليهنّ دهشةً أو تأثّراً. ثمّ قرّرتُ أن أوجّهَ سؤالاً أسهل:

- ما هو أحبّ بيتِ شعرٍ لكل واحدةٍ منكن، ولماذا؟

صمتٌ مطبق، ثم ردّتْ إحداهنّ:

- لا نحبّ الشعر ولا نحفظه!

قاطعَتها أخرى:

- بيتي المفضل: «من علّمني حرفاً، كنتُ له عبداً»!

انفجر ضحك جماعي مفاجئ، شبه هستيري، لم استوعب سببه.

- لماذا الضحك؟ سنتناقش حول هذا البيت الآن؛ قلتُ.

لم يتوقّف الضحك العميق، ولم أدرك سرّه إلا عندما أشارت مرافقتي بسبباتها إلى جدار صالة المحاضرة خلفي، حيث تلتصق قطعة قماش كبيرة، عليها بخطّ النسخ الرائع: «من علّمني حرفاً، كنتُ له عبداً»!

ضحكن إذن لأن رفيقتهن «غشّت» وهي تقرأ «بيتاً» على الجدار! لا يهمّ. دخلتُ في قراءةٍ ناقدةٍ رافضة لهذه المقولة العبودية بامتياز. قلتُ لهنّ: يا للبشاعة! كم تثير تقزّزي هذه المقولة! إذ من أجل عبودية القافية، تُحوّلُ الطالبَ إلى عبدٍ سعيدٍ بعبوديته لمدرّسه، وتُلغي إنسانيته تماماً!

برّرتُ لهنّ ومدحتُ المقولة المضادة: «من علّمني حرفاً، كنتُ له ندّاً».

- بيت شِعرٍ آخر؟ سألتُ.

لا ردّ.

- أسمح لكنّ باستخدام الهاتف الذي لا يفارق أيديكن وأنا أتحدّث، للبحث

عن بيت شِعرٍ فيه، والتعليق عليه سلباً أو إيجاباً. أريد أن أسمع تعليقات شخصيّةً حرّة، آراء. لن أغادر المحاضرة بدونها!

لا ردّ!

- أليس هناك بيت شِعر واحد في كلّ الإنترنت؟ سألتُ.

- لا نستخدم الهاتف للشِّعر كما قلنا لك يا أستاذ؛ ردّ صوتٌ من وسط القاعة.

- ماذا تقرأون إذن عليه؟

- WhatsApp!

- آه، وما هي تطبيقاتكن المفضّلة!

- نحب نأخذ سيلفي بواسطته.

- كم سيلفي باليوم؟

جدلٌ واختلاف في العدد، استنتجتُ منه أن المعدل اليومي نحو ٢٠٠ سيلفي؛ ٣٠٠ حسب مرافقتي!

اقترب موعد انتهاء المحاضرة. توجّهتُ مع مرافقتي إلى صالة المديرة التي ضمرت حفاوتها، كما يبدو. لم أتجرأ على مطالبتها بمواصلة سردِها الممتع لِيوميات سفينة بِنجِل.

لم يكن في رأسي غير حلمٍ واحد: سفينة نوح، أحمل فيها كل طالبات ومدرّسات هذه المدرسة (التي تشبه كلّ المدارس العربية تقريباً، من المحيط إلى الخليج) بعيداً عن طوفان ثقافةٍ تقتلُ التساؤل والنقد، وتقطعُ في الجبين عِرق الدهشة!

صار جلياً أننا نحيا اليوم في بحر عجاج، متلاطم الأمواج، من المعلومات. من يُجِدِ الإبحار فيه وتوجيه موجاته يقُدِ العالم!

فوصول المعلومة مثلاً نحو المستهلِك، عبر قنوات القيل والقال بكلّ أشكالها التقليدية أو الحديثة كشبكات التواصل الاجتماعي، التي تحدّثنا عنها في فصلٍ سابق عن «التلفون العربي»؛ وبواسطة إثارة غرائز الرغبة لدى المستهلك وجعله عضواً فاعلاً في قبيلة عِرقية من المستهلكين، كما استعرضنا في فصلٍ سابق عن «مثلث الرغبة»، هي ما تلهث وسائل الإعلام، والاستراتيجيات التسويقية للشركات الاقتصادية، للسيطرة عليه. من يستقطب اليوم شبكات المتابِعين والمستهلِكين الفاعِلين كهذه، يسيطر على الاقتصاد والعالم. الوسيلة المثلى لذلك: السيطرة على لاوعيهم الرقمي!

يجدر أوّلاً تقديم بعض الأرقام المذهلة، التي تصيب بالدوار والغيبوبة، لاستيعاب ما يبرر رهانات كبار قوى المال والتكنولوجيا اليوم على هذه السيطرة.

مثال ساطع: تطبيق إنستاغرام Instagram على الهواتف المحمولة، الذي يسمح بوضع صور شخصية على الإنترنت وتحسينها وإرسالها للأصدقاء، صنعهُ ويديره اثنا عشر مهندساً. لا يبدو عبقرياً بحد ذاته. بيد أن كونه يمتلك ثلاثين مليون مشترك، اسال لعاب شركة الفيسبوك لتشتريه، قبيل أعوام قليلة، بمليار دولار! بعد شرائه ارتفع عدد المشتركين فيه إلى أربعين مليون عضو.

ومع ذلك إنستاغرام ليس أرخبيل جزرٍ سياحية أو أسطولاً بحرياً أو شبكة مصانع أو قارة من نفط. ليس أكثر من صفحة إنترنت!

لكنه موقع يضم قبيلة من المستخدِمين المدمنين، على غرار قبيلة الفيسبوك والواتساب. المستخدم هنا، بطبيعة الحال، يختلف عن مستهلك زمن ما قبل الإنترنت، الذي كان يكتفي بقراءة الكتب ومشاهدة الصحف المرئية، من موقع غير فاعل. على عكس الثاني تماماً، الأول مستهلك منتج فاعل، يضع تعليقاته ومواده الشخصية والإبداعية وصوره أمام مرأى الجميع. يثري بها مجاناً مستودعات الشركات الرقمية التي تعرف كيف تستخدمها لمزيدٍ من الثراء.

مثال آخر أشدّ سطوعاً: شركة واتساب WhatsApp التي تأسست في

٢٠٠٩ لتحتكر سوق النصيصات الهاتفية (إس إم إس)، ضفت قبيلتها مليار مستخدم في سنوات قليلة! لهذا السبب، اشترتها شركة فيسبوك في ٢٠١٤ بـ ٢٢ مليار دولار!

أتعرفون ما يعني ٢٢ مليار دولار؟

الإنتاج القومي السنوي لأكثر من نصف دول العالم، الذي يضم كل ثرواتها الطبيعية المبيعة، كل منتجاتها الوطنية، وكل عائداتها الاقتصادية من الخارج أيضاً، أقل من هذا الرقم الهائل!

في ١٣ يونيو ٢٠١٦، تواصل اندفاع هذه الأرقام ليصل إلى قمة جديدة: شركة ميكروسوفت تشتري شركة لينكدإن LinkedIn بـ ٢٦.٢ مليار دولار، أغلى ثمن دُفِعَ حتى الآن لمجرد شبكة اجتماعية!

ومع ذلك، لينكدإن موقع على الإنترنت فقط، لشبكة اجتماعية خدمتها الرئيسة البحث عن وظيفة، وربط علاقات مهنية بين شبكات المستخدمين. مجموع أعضائها اليوم نحو ٤٠٠ مليون عضو، ربعهم فقط له حضور شهري منتظم!

يجدر الإشارة هنا إلى أن الرقمين القياسيين الأولين لهذه الصفقات المجنونة كان في عام ٢٠١٥، عندما اشترت شركة ديل للكمبيوترات الشخصية بـ٧٦ مليار دولار شركة EMC، وعام ٢٠١٤ عندما اشترت شركة أفاجو منافستها برودكوم بـ٣٧ مليار دولار. لكننا هنا أمام بيع صناعات تكنولوجية ملموسة من لحم ودم، ولسنا أمام بيع مواقع شبكات اجتماعية على الإنترنت لا غير.

أهمية هذه الشبكات الاجتماعية تكمن أساساً في مقدرتها على الوصول إلى المرء، والسيطرة الروحية عليه، وتوجيه رغباته وقيادة لاوعيه الرقمي، ومغنطته ليكون أسير الحاجة إليها، يرتبط بها كما يرتبط المرء بمخدِّر.

إحدى آلياتها لتحقيق ذلك، خلق علاقة وصل «لحمية» بين السلعة والمستهلك الحديث، في إطار قبيلة رقمية فاعلة، على غرار قبيلة جمهور شركة آبل.

لذلك، تعمل الدعايات والمواقع الترويجية على جذب المستهلك إلى مختلف فضاءاتها الرقمية أو التجارية، وعلى «مشاركته» منشوراتها وإعلاناتها، وجعلِه يرتبط عضوياً بمنتجاتها و«أسرة» المعجبين بها.

تتركه، على سبيل المثال لا الحصر، يتمثّل نفسه محل هذا النجم أو ذاك، يعمل «سيلفي» صنعياً افتراضياً معه، يتقفص حياته في سياق افتراضي، ويمتلك نمط رغباته.

إذ لم يعد مستهلك اليوم مثل مستهلك القرن الماضي، مجزءَ مستقبِل

سلبي، ولكنه مساهم مشارك منتج فعّال خلّاق أيضاً!
أكثر الأمثلة إثارة للتأمل هنا، الفيديو الأكثر شهرة وشعبية ورواجاً في تاريخ الإنترنت: جانجنام ستايل، Gangnam Style.
تفعيل مثلث الرغبة فيه ضرب الرقم القياسي، بشكل مدهش مثير!
هو فيديو لأغنية، تدوم أربعة دقائق، لفنان كوري غير معروف، أطلق على نفسه اسم: بسي. شاهده ملياران ونصف مليار حتى صيف ٢٠١٥، بعد سنوات ثلاث من ظهوره، وما زال حتى اليوم في رأس قائمة أكثر ما تناقله الناس على الإنترنت!
إنّ من يرى الفيديو لن يجد صعوبة في ملاحظة أنه يخلو تماماً من أي خلقٍ موسيقي أو إبداع سينمائي. كلمات هزيلة، وسذاجة فجّة كلية. يصوّر حياة ملياردير فقط، ونمط حياته. يُسيل بالتأكيد رغبات ومتعة كثيرين ممن شاهدوه، وتمثلوا أنفسهم محله.
سرّ نجاح هذا الفيديو الكوني يكمن في أنه يثير رغبات البعض لِتعديله قليلاً، ووضع أنفسهم في الفيديو محلّ الفنان وهو يؤدي «رقصة الحصان» فيه.
ظهرت لذلك على الإنترنت عشرات آلاف «الستايلات» التي تحاكي هذا الفيديو بصيغٍ مسروقة محرّفة محليّة مختلفة، لدرجة أنه لا يمكن أن نجد بلداً عربياً (أو مدينة أحيانا) لم يحرّف أحدهم فيه هذا الفيديو ليجعله بلون بلده أو مدينته! ثقة على سبيل المثال فقط: مصر ستايل، القاهرة ستايل، صنعاء ستايل.
هكذا، وحدهم من يمتلكون طرق الوصول إلى شبكات الناس، وتحويلهم إلى خادمين فاعلين مُسيّرين، يسيطرون على العالم. ومن لا يعرف استقطاب شبكات كهذه مصيره الزوال. كما لو كنّا في عصر البقاء فيه للأقدر على التواصل الاجتماعي والسيطرة على اللاوعي الرقمي.
ففي عصر طوفان المعلومات، يمكن أن يختفي ويموت كتاب عبقري أو سلعة نموذجية، لأنه لم يعرف الوصول إلى الناس التي تتجاذبها اليوم ملايين القنوات والسلع والعروض والكتب، وسط محيط من المعلومات لا قعر له ولا قرار.
لكن إذا امتلكتَ ما يشبه شبكة تواصل كتاب «هاري بوتر»، وتأثيرها على اللاوعي لترويج كتابك، فسيغزو العالم قبل خروجه من المطبعة!
لذلك، دخل هذه الشركات الحديثة يتجاوز الخيال: عدد الدعايات الترويجية على الفيسبوك أكثر من مليونين يومياً! ولكل كلمة في القاموس ثمنٌ يدفعه لشركة غوغل من يريد الترويجَ لموقعه على الإنترنت،

وبروزه في رأس قائمة نتائج غوغل، عند البحث عن الكلمة التي يشتريها! فقيمة كل كلمة في بورصة غوغل مرتبط بعدد النقرات عليها من قبل سكان الكرة الأرضية.

والمثير هنا أن أغلى كلمة في القاموس هي «مجان»: قيمتها أكثر من ٧٠٠٠ دولار!فيما قيمة كلمة مثل «فرويد»: ٣ دولارات، «الله»: ١٠ دولارات.

السؤال الأهم: كيف يلزم التعامل مع شبكات التواصل الاجتماعي وحماية اللاوعي الرقمي من الانجراف العبودي لها؟

لا أظن أن عدم العضوية في الشبكات الاجتماعية هو الحل. ثقة منشورات وروابط وآراء لا نجدها إلا في طياتها. وبفضلها نستطيع مجاناً امتلاك موطئ قدم في عالم اليوم، والتعريف بكتاباتنا ومقالاتنا وكتبنا بشكل أفضل.

لكن خطورتها تكمن في أنها مثل «الثقب الأسود» في الفضاء الكوسمولوجي: تشفط المرء ليظل مخدَّراً فيها، وتستولي على بياناته ونصوصه لدراساتها الخاصة ومصالحها، ولكل الأغراض الخفية، بما فيها الاستخبارية.

أفضل ما يمكن أن يعمله المرء هو معرفة آليات عمل هذه الشبكات للسيطرة عليه، ووسائلها في تنويمه المغناطيسي، لكي يتجنب أن يتحوّل معها إلى ما يشبه «كلب بافلوف» تنقاد غرائزه وفق هوى الشبكات الاجتماعية، وعلى إيقاع طقوسها اليومية.

ما الذكاء الاصطناعي، أوّلاً؟

هو مشروع محاكاة برامج الكمبيوتر للذكاء الإنساني، بل التفوق عليه أحياناً، في كل المجالات.

تهزمه في الشطرنج، وفي لعبة «الغو» الأكثر تعقيداً بكثير؛ تقوم روبوتاتها بمهنة الجرّاحين والأطباء والممرضين؛ تكتسب خبرات المحامين والقضاة والمحاضرين الجامعيين وغيرها من المهن المهددة بالانقراض مستقبلاً بعد أن تحلّ هذه البرامج محلها؛ تقود السيارة بدون سائق، ليس فقط لتفادي الأخطاء البشرية أثناء القيادة، لكن للتواصل اللاسلكي والتنسيق مع غيرها من شبكة السيارات، لامتصاص الزحمة وتحسين حركة المرور وتفادي تلويث الجو؛ تتعرّف لوحدها على كل مكونات الصور على الإنترنت، لتستطيع مثلاً تحديد كل شخص داخل صورة مسيرة جماهيرية؛ تستوعب مدلول النصوص المكتوبة، وتستطيع الإجابة عن الأسئلة حولها والاستفادة من معارفها؛ توجّه روبوتات التدمير العسكري الشامل لحروب المستقبل...

استخدِم مصطلحَ «الذكاء الاصطناعي» لأول مرّة في اجتماع شهير لعلماء الكمبيوتر في عام ١٩٥٦، في أهم معهد أبحاث دولي في التكنولوجيا: MIT، وإن راودت الفكرة قبل ذلك العبقري آلان تورينج، مخترع فكرة الحاسوب (ماكينة تورينج النظرية)، ومصمّم ومهندس أوّل كمبيوتر، استطاع بفضله فكّ شفرة برقيات جيش هتلر، ما أدّى إلى هزيمة النازية قبل موعدها الافتراضي ببضع سنين.

لم يتطوّر علم الذكاء الاصطناعي بشكل استعراضي إلا في العقود الأخيرة. ثقة منعطفان مرموقان في سيرة حياته: هزيمة بطل العالم في الشطرنج كاسباروف من برنامج ديب بلو في عام ١٩٩٦، وإن كان الذكاء الاصطناعي في ذلك البرنامج محدوداً، بالمقارنة بذكاء المنعطف الثاني، الأشد أهمية: هزيمة بطل العالم لي سيدول في لعبة الغو في مارس ٢٠١٦، من قِبل برنامج شركة غوغل: ألفاغو.

تتعانق في هذا البرنامج العبقري تقنيات ذكاء خالص متنوعة، أهمها: «شبكة العصبونات الاصطناعية» التي تحاكي، عبر تقنيات «التعلم العميق»، عمل عصبونات الدماغ البشري، بغية دراسة خريطة اشتباك القطع في ساحة لعبة الغو والتعرّف إلى مورفولوجيا وبنية أوضاعها، لاستنتاج النقلة الأفضل للردّ على الخصم بطريقة منطقية أو تحليلية أو

رياضية، أو بالاستلهام من عِبَر ملايين المباريات التي لعبها ألفاغو ضد نفسه وهو يستعد للبطولة خلال أشهر، أو من نتائج مباريات كبار أبطال الغو المشحونة في ذاكرته.

المثير هنا أنّ برنامج ألفاغو الذي يستطيع الانتشار أفضل من الإنسان في ساحة لعبة الغو المعقدة، والسيطرة على أوسع وأكثر عدد من بقعات مربعات الساحة، يمكنه هو نفسه أن يُكيِّفَ مستقبلاً للسيطرة على ساحة المعارك العسكرية الحقيقية ضد جيش عدو، أو على الأسواق المالية!

لعلّ هذا الانتصار بالذات قد فتح صفحة جديدة من تاريخ الذكاء الاصطناعي. فبعده مباشرة نظّم البيت الأبيض الأميركي ندوات ومعامل نقاشات جامعية وشعبية تمحورت حول الذكاء الاصطناعي ومستقبله، قبل أن يخرج في منتصف أكتوبر ٢٠١٦ بوثيقة خطيرة وكبيرة، عنوانها «تجهيز مستقبل الذكاء الاصطناعي»، قُدّمتْ كآخر إنجاز باسم باراك أوباما، قبل تركه البيت الأبيض. (فيما إنجازاته الخارجية باهتة فاشلة، ولا سيما تركه لتراجيديا ذبح الشعب السوري، من مجرمي الداخل والخارج، تتفاقم دون حل).

جرت العادة في الحقيقة بأن يُترك لكل رئيس انتهت ولايته الحق في وضع بصماته على مأثر كبير يخلّد اسمه في كتاب الأبدية. ففي فرنسا مثلاً، لميتران أربع عمارات حديثة عملاقة، كل واحدة منها تتألف من عشرات الطبقات، لا حد لثرائها المعرفي: المكتبة الوطنية فرانسوا ميتران.

يختلف الحال مع أوباما الذي وُلدت أو تطوّرت في عصره كلّ عمالقة التكنولوجيا الحديثة، ولا سيما غافا (غوغل، آبل، فيسبوك، أمازون) وأخواتها: تويتر، واتساب، أوبير...

أوباما «جيك» (مدمن كمبيوتر) بحق، وواسع المعرفة بعلومه أيضاً، كما كشفه حواره مع رئيس مختبر MIT، جوي إيتو، الذي أجريَ في يوم ظهور وثيقة البيت الأبيض، كما نقلته المجلة التكنولوجية الراقية: Wired.

٨٠ مليار دولار ستخصص لتنفيذ الوثيقة بتوصياتها العشرين، خلال ١٠ سنوات من الآن، سيتغير خلالها وجه العالم.

مثال صغير لميادين عمل الوثيقة قريباً: لم يعد يجهل أحد أن السيارات دون سائق جاهزة اليوم، بل تستخدم أحياناً، بانتظار تشريعِ دخولها للطرق السريعة، وتعميمها قريباً. غير أن الجدل الشعبي المفتوح حولها، يفتح أسئلة تشريعية وبرمجية مدهشة، لم تُحل بعد:

ما العمل عندما تدخل فجأة، على خط سيارة دون سائق، امرأةٌ حبلى أخطأت السير، أو مجموعة بشريّة ينتظرها الهلاك للسبب نفسه؟ هل

تضحي السيارة بهؤلاء، أو تستدير سريعاً تسعين درجة، لتصطدم بجدار، وتضحي براكب السيارة فقط؟

المفارقة الممتعة أنّ الجدل الشعبي كشفَ إعجاباً بفكرة التضحية بأقل عدد من الناس، أي براكب السيارة فقط في هذه الحالة. لكن الاستفتاءات خلال الأشهر الماضية أجلتْ أنه لا يوجد إنسان مستعد لشراء سيارة قد تقرّر أن تُضحي به شخصياً!

كل تعقيد الطبيعة الإنسانية ينطوي في هذه المفارقة!

ونحن، العرب، في كل ذلك؟

جليّ أن العقل العربي حالياً غير قادر على مجرد تصوّر هذا المشروع أو استشرافه، أو المساهمة به، من قريب أو بعيد. لماذا؟ كي يعيش الإنسان هذه الأحلام الإلكترونية، وكي يرغب في تحويل الخيال العلمي إلى واقع، يلزمه أوّلاً أن يكون ابن الحداثة، وأن ينظر إلى الأمام، وقد عمل قطيعة جذرية مع الماضي (وإن لهذه القطيعة المتطرفة مع الماضي أحياناً مخاطرها الكثيرة الخاصة).

«وادي السيلكون» في كاليفورنيا (معمل هذه الأحلام الإلكترونية الرئيس): «جنّة زنوات»، حسب تعبير الفيلسوف الألماني الكبير بيتر سلوتيريجيك! أي، كما قال: «مجمع شباب بلا أجداد، يدّعون أن التاريخ يبدأ عند دخولهم فيه. شأنهم شأن ما حصل في أوروبا في القرن الخامس عشر، عند اختيار تسمية عصر Renaissance، «الولادة من جديد» حسب الاسم الحرفي الغربي (أي: عصر النهضة)، الذي يظل رمزه ليوناردو دافينشي، الابن غير الشرعي لمحامٍ إيطالي، وعبدةٍ عربية!».

أحد رموز هؤلاء «الزنوات» الجدد: لاري باج، رئيس شركة غوغل.

«آخر شيء سنقبله، هو باقة بيروقراطيين يؤخرون من انقضاضنا على وحيد القرن»، كما يقول أوباما، بلسان لاري باج الذي يريد كغيره أن تكون شركات «وادي السيلكون» مركز انطلاق مستقبل الذكاء الاصطناعي، فيما يريد إيتو أن يكون معهده هو المركز.

وفي حين أننا، نحن العرب، ما زلنا في أنفاق القطب الماضوي المعاكس، الذي لم يندمج بعد مع عقلية الحرية والتعليم الحديث، وقطع العلاقة بمسلمات العصور الوسطى، لينتميَ إلى عقلية الحداثة، مهندسة هذه المشاريع المدهشة... وإن كان ثقة ما هو أكثر إدهاشاً:

قبل قراءة حوار أوباما وإيتو بدقائق، لمحت في غلاف صحيفة «الثورة» اليمنية، عبارة لعبد الملك الحوثي: «حربنا الراهنة امتداد لحرب الحسين»!

بين هذا الغرق المجنون في مستنقعات الماضي، وتحليق وتوغل الذكاء

الاصطناعي المغامر في سماوات المستقبل، يبتعد عالمنا العربي عن العصر الحديث وهمومه وتطلعاته، بسرعة قصوى باتجاه الحضيض.

نسورٌ ومناطيد، فوق جمجمة العالَم

بعيداً عن المشاريع المستقبلية، التي تشبه الخيال العلمي، لِعملاقَي التكنولوجيا الحديثة، غوغل والفيسبوك، كإدامة الحياة وهزيمة الموت، الروبوتات المؤنسنة العبقرية، السيارات الطائرة...

ثمة مشاريع باهرة لنا موعدٌ قريب معها خلال السنوات القليلة القادمة، إن لم تكن قد انطلقت فعلاً: السيارات دون سائق، وشبكات نسور الفيسبوك ومناطيد غوغل التي ستملأ السماء، لتغطية كل الكرة الأرضية بشبكة الإنترنت.

لنتحدث عن فيالق عفاريت وجنّ التكنولوجيا الحديثة التي بدأت تتناثر في سماء العلم، لِتغطّيها عمّا قريب، تماماً كما تُغطّي سماءَ الميثولوجيا جنُّ الخرافات والأديان والأساطير وعفاريتها.

أربعة مليارات إنسان يعيشون اليوم دون الإنترنت. نصف هؤلاء، كما يقول مؤسس الفيسبوك مارك زوكيربيرغ، لا يمتلكون شبكات إنترنت في ديارهم، أو هي مكلّفة جداً، ونصفهم الآخر لا يعرف ما يعني الإنترنت، أي يعيش في عصر الجاهلية الرقمية، إذا جاز القول.

لذلك تتنافس شركة هذا الشاب ذي الفانيلة الرمادية، مع شركة شاب آخر لا يقلّ عبقرية، لاري باج، صاحب غوغل، في إيصال الإنترنت إليهم، كما يتنافس المبشرون الدينيون لإيصال أديانهم إلى أقاصي الأرض!

بالطبع، يبرّران ذلك بدوافع إنسانية، لا تخلو من بعض الحقيقة، من أجل ربط البشر جميعاً بجسور الإنترنت، وكسر الجدران الفاصلة بين الناس، وفتح أبواب الحضارة والمعرفة لجميع سكّان كوكبنا الأزرق!

الحق، أن النزعة والرأفة الإنسانية النقية ليست وحدها بالضبط منبع هذا التنافس المحموم! فمن منظور هؤلاء الشباب الذين يصوغون اليوم بنية حضارة الإنسان الحديث (على هدى وغرار نبيّهم: ستيف جوبز، مؤسس آبل، الذي كان وراء إدخال الإنترنت إلى الهواتف المحمولة): البناءُ التحتي لحضارة الغد تلخصها كلمة واحدة، الإنترنت، وشبكات استخدامه الكونية الموخدة.

السبب بسيط: البناء الفوقي لِحياة إنسان الغد: المواصلات، التعليم، الصحة... سيمرّ عبر الإنترنت، وعبره فقط. ومن يسيطر على البناء التحتي يسيطر على البناء الفوقي بالطبع، كما يجيد الماركسيون شرح ذلك.

ولأن ما يشخصن حضارة اليوم هو هذا الاندفاع المهروِل إلى الأمام، والذي لا يمكن توقيفه ولا يعرف أحد مصيره، فمَن لا يفتح اليوم أبواباً جديدة لاقتصادهِ وتطورِه، فمصيره الانبطاح والتلاشي.

لعلّ تجربة هواتف شركة نايكون الفنلندية التي كانت في القمة قبل عقود قليلة، ثمّ سقطت سقوطاً مهيباً بسبب تلكؤها في إضافة تقنيات الصور الرقمية لهاتفها حينذاك؛ أو تجربة تويتر الذي نقص ثمنه عدّة مليارات أخيراً ولم يجد مشترياً، بسبب عدم تنوّع مشاريعه وخدماته، تشرح لماذا يرفض غوغل والفيسبوك النومَ على أريكة أمجادهما الحالية (للفيسبوك أكثر من مليار ونصف مشترك، ولِجيميل غوغل أكثر من مليار مستخدِم)، ورغبتهما في مضاعفة عدد مُدمِنيهما مرتين أو ثلاثة!

فكل شيء بالنسبة إليهما يبدأ أولاً بإيصال البناء التحتي للإنترنت إلى الإنسان، حيثما كان. لكنه لا يصل إلى الجميع بالطريقة نفسها، إذ ثمّة راكبو قطار الحضارة في عربات الدرجة الأولى، وثمّة راكبوه في عربات الدرجة العاشرة.

لنبدأ بأصحاب الأولى. لهم الإنترنت الذي يمرّ عبر أسلاك الألياف الضوئية، المغروسة في عمق الأرض وأسفل البحار والمحيطات، والتي تربط أميركا بأوروبا باليابان والصين.

كانت هذه الألياف، حتى قبل سنوات، تدخل جامعات الدول الغنية المتقدّمة ودورها الحكومية والاقتصادية الكبرى فقط. ثمّ حُفِرَت، في خلال سنوات، أخاديد في أراضي مدنها الكبرى، لِغرس هذه الألياف ومحطّاتها المتصلة بالعمارات والمنازل المنفردة.

أتذكّر: قبل سنوات، وصل بيتي عاملان من شركة الهاتف، لمدّي بخطوط الألياف الضوئية مجاناً (في هذه البلدان التي اختفى فيها مفهوم المجّان!).

يفتح العامل الأول ثقباً خفيّاً في أرض البيت، حيث تمرّ أسلاك الهاتف والكهرباء في قعر الأرض، ليضيف إليها سلك ألياف ضوئية، مطوياً في عجلة مهيبة جاء بها.

يمدّ العامل سلك العجلة من الثقب، ليصل طرفه، عبر باطن الأرض، إلى محطةٍ ما في أحشاء الشارع، حيث يتلقفه العامل الثاني. ثم يربط الطرف الآخر بهاتف البيت. يضع بعدها، بين هاتف البيت وعلبة الإنترنت، جهازاً صغيراً يحوّل إشارات الإنترنت الآتية عبر الألياف الضوئية إلى إشارات كهربائية!

تتغيّر حياة الإنسان هكذا بعد ساعة واحدة فقط من وصول العامِلين، وهو

لديه في بيته إنترنت هائل السرعة. تجهيزٌ مكلِّفٌ جداً، ومجاني مع ذلك!
تساءلتُ في قرارة نفسي حينها: متى سيصل عاملان كهذين إلى بيوت مدن بوركينافاسو والموزمبيق، لإمدادها بهذه الألياف الضوئية؟ متى ستصل الألياف الضوئية إلى بيوت «طور الباحة» باليمن؟
مستحيل بالطبع! لهؤلاء صمّمت، كبديل جماعي، مناطيد غوغل ونسور الفيسبوك!
اشترت غوغل قبل سنوات «المستودع رقم واحد» من أرض شركة الفضاء ناسا، ليكون منطلَقاً لأسراب مناطيد تبعثُها لتغليف سماء الأرض، ولا سيما حيث لا يوجد الإنترنت.
يغطي كل منطاد ٢٥ كم مربعاً. ولا تتوقف غوغل عن تحسين تصميم لوحة شمسية (نانو فوتوفولتاييك، كما يقول الراسخون في علوم الطاقة) تسمح بتطويل مدّ هذه المناطيد بالطاقة، لِتظلّ تُحلِّق في الظلام، قبل ضخّها من جديد بطاقة ضياء الشمس حال إشراقها.
لكن التقدّم في هذا المجال، والأولوية الاستعراضية فيه، من نصيب الفيسبوك الذي أطلق هذا الصيف أوّل طائرة دون طيّار، أكيلا (النسر)، مجهّزة لهذا الغرض؛ وحمل زوكيربيرغ نفسه تمثالاً لهذه الطائرة، سافر به إلى الفاتيكان ليسلّمه للبابا فرنسوا، كرمز لهذا «العمل الخيري الذي سينقل البشرية من الظلمات إلى النور»!
لأكيلا جناحان أكبر من جناحي طائرة إيرباص، لكن لها جسد ضئيل بثلث حجم سيّارة كهربائية: تبدو أكيلا هكذا كما لو كانت مجرّد جناحين فقط، مستطيلين مفروشين تفصلهما زاوية منفرجة شاسعة. ترفد بطارياتها الشمسُ بالطاقة، بين شروقها وغروبها، لِتسمح لها بالتحليق في خلال ثلاثة أشهر!
تطير أكيلا بارتفاع يتجاوز ٢٥ كم، وتغطي دائرة جغرافية نصف قطرها نحو ١٠٠ كم!
تجربة طيرانها الاستعراضي في صيف ٢٠١٦ كانت تمهيدية وواعدة جداً.
سربٌ من هذه النسور ستملأ الفضاء قريباً، ترتبط إحداها بإنترنت الأرض عبر أشعة الليزر، وتمرّر إلى جيرانها من النسور إشارات الإنترنت، وعبرها إلى جيران جيرانها، على نفس المنوال، لتغطي كل العالَم.
ثم هناك ابتكار عبقري حديث ملتصق بكل نسر: مصباح من ألياف بلاستيكية مشعشعة، سيقود إلى إرسال إشارات الإنترنت بأشعة ضوئية غير مرئية، وبسرعة محترمة.
كيف يمكن استيعاب اهتمام جبّاري الإنترنت بديار الجياع والمحرومين،

ورأفتهما بجوعهم الإنترنتي (وإن لم يعبروا عنه، مثل جوعهم البيولوجي، وحياة الفقر والديكتاتورية والظلمات التي تعصف ببلدانهم)؟
الليبرالية الجديدة أذكى من أن تترك، على نحوٍ أبارتيديّ، ديارَ هؤلاء الجياع بعيداً عن الحضارة، في زمن ما قبل الإنترنت، زمن ما قبل التاريخ. لأن لذلك مخاطر على العالَم أجمع، لا تعد ولا تحصى.
تُفضِّل بطبيعتها الاستثمارية الاكتساحية غزو كل العالَم، ومدّ المحرومين بالحدّ الأدنى من البناء التحتي الذي يسمح لهم بصنع الثروة في بلدانهم، والحياةِ الأفضل فيها، وركوبِ قطار الحضارة أيضاً، لكن في عربات الدرجة العاشرة.
ثم يدفعون لها مقابل ركوبهم القطار، جزءاً مهماً من الثروة التي صنعوها بفضل البناء التحتي التي مذتهم به.
تضمن لنفسها هكذا دورائهم في فلكِها، بنفس طاعة المناطيد والنسور التي تحلق فوق أراضيهم، وتغدو بديلاً لشركات الهواتف الوطنية في دولهم.
يكفي بعدها، من يدري، أن تعيش بلدانهم كمحميات لها، في إمبراطوريتي الفيسبوك أو غوغل!
ختاماً، على مواطن البلدان الكادحة أن يفكّر وحده كيف يستفيد من هذا الإنترنت «المجاني»، ليس كمستخدمٍ خاضعٍ فقط، ولكن كمبدعٍ وصانعٍ ومقرّرٍ ومكتشفٍ ومؤثر، عبر التعلم والانفتاح على عقلية الحريّة والإبداع.
أما رفضه الاندماج في هذا الفضاء الجديد، فيعني زواله بكل بساطة.
فانغلاق الصين، التي كانت في قمة الحضارة في القرن الرابع عشر، على نفسها، وعداؤها للأجانب في عهد سلالة مينغ آنذاك؛ ورفض الدولة العثمانية والعرب، الذين كانوا في قمة الحضارة حينها أيضاً، دخولَ المطبعة إلى ديارهم خلال ثلاثة قرون، بحجّة أن «حبر العالِم أقدس من دم الشهيد!»، قادا إلى خسوف الحضارتين!
خرجت الصين من خسوفها عبر الاندماج بحضارة العلم والمعرفة، وشقّ طريقها الخاص فيها، أما نحن العرب فلا نزال نغوص عميقاً في لجّ ذلك الخسوف المتأبد!

الكتاب الورقْمِي: البرمائيةُ هي الحل!

الكتاب الورقمي يحمل اسمه بجدارة: هو كتابٌ ورقيٌ ورقميٌ في الآن نفسه!

ماذا يعني ذلك؟

هو كتابٌ تتعانق فيه كل مزايا الكتاب الورقي مع كل مزايا الكتاب الرقمي، في وحدة بيولوجية لا تنفصم، كما تتعانق في الحيوانات البرمائية مزايا الحيوانات البريّة والمائية في الوقت نفسه!

لماذا، وكيف يمكن ذلك؟

لئلا يجد أحد سكّان الأرض، ولا سيّما نحن العرب، حجّةً لعدم القراءة. أي لعدم التهام الكتب الورقية الرقمية معاً، أو بكلمة واحدة: الورقمية. فكلّ أولئك الذين لا يحبّون قراءة الكتب الرقمية، على القارئ الإلكتروني كجهاز كندل أو على الكمبيوتر، بحجّة أنهم يعشقون رائحة الورق، والنومَ بصحبة الكتاب الورقي وهم يلمسون صفحاته بحنان، ويديرونها بشوق وعشق، لن يستطيعوا رفض الكتاب الورقمي لأنه أيضاً كتاب بِورق تقليدية، يقلبونه في كل الاتجاهات كما يقلبون الكتاب الورقي، لدرجة أنهم لا يشعرون بأي فرق بينه وبين أي كتاب ورقي. لِصفحاته رائحة الورق التي تعوّدوها، وبإمكانهم أيضاً أن يختاروا لها روائح أخرى كما يُحبّون: روائح الكافور، الحُلبة، الجوز الهندي، الحبر، الورد، العطر...

تستطيع هكذا، عزيزي ابن قبيلة الورقيين، قراءته كما تقرأ الكتاب الورقي، وتقليب صفحاته كما اعتدتَ ذلك، حتى على الشاطئ تحت الضوء الساطع الذي لا يلائم شاشة الكمبيوتر أو الهاتف المحمول، لكنه يلائم جهاز القارئ الإلكتروني، بفضل خاصية «الحبر الإلكتروني» لشاشة هذا الجهاز: لا ينبعث الضوء منها كما هو حال شاشة الكمبيوتر، لكنها تعكس الضوءَ كما تعكسه صفحات الكتاب الورقي، ولا يمكن لذلك قراءة شاشة القارئ الإلكتروني في الظلام، كما هو حال الكتب الورقية.

لكنك تستطيع، مع الكتاب الورقمي، أن تصغي في الظلام الدامس إلى صوت رقيق رخيم ينبعث من أعطاف صفحاته، يذيب القلب، يواصل قراءة النص لمسمعك من حيث توقفتَ عند انقطاع الضوء. إضافة إلى كل ذلك، تنبعثُ، لمن يهوون القراءة مع سماع الموسيقى، مع كل نص يقرأونه في الكتاب الورقمي موسيقى تواكب النص بتناغم بديع. وبإمكانهم أيضاً اختيار القطع الموسيقية التي يودّون سماعها مع هذا النص أو ذاك.

هكذا لا يستطيع عاشق الكتاب الورقي النفورَ من الكتاب الورقمي، لأنه يجد نفسه يقرأ كتاباً ورقياً كعادته، بكل مزايا الكتاب الورقي التي لا يريد خيانتها؛ وبعدد لا نهائي إضافي من المزايا الرقمية المدهشة الجديدة.

في الجانب الآخر، لا يستطيع عشاق القراءة الرقمية، الذين لا يسبُحون إلا بحمد النص الرقمي ذي المزايا الكاسحة الجديدة التي غيّرت وجه الحضارة الحديثة، رفض أو استهجان الكتاب الورقمي، بحجّة أن «القراءة غير الرقمية ليست قراءة»، أو «القراءة دون شاشة ليست قراءة».

فعلى كل صفحة من صفحات الكتاب الورقمي ينطبع النص الرقمي تماماً كما ينطبع على الشاشة اليتيمة للقارئ الإلكتروني أو الكمبيوتر. ويكفي أن تمش بأصبعك هذه الكلمة أو تلك، لتظهر عليها نافذة صغيرة تحوي معناها في القاموس، أو تعريفها في الموسوعة، تماماً كما يمكنك فعل ذلك في القارئ الإلكتروني.

وجهاز الكتاب الورقمي، مثل القارئ الإلكتروني، خفيف الوزن (بضع مئات من الغرامات)، صغير الحجم مثل كتاب الجيب، يحوي عدداً من الأوراق الإلكترونية، كأي كتاب ورقي صغير، لا تتجاوز المئة غالباً، لها جميعاً خصائص الشاشة اليتيمة للقارئ الإلكتروني. يكفي أن تختار فيه قراءة الإلياذة مثلاً، لتمتلئ الصفحات المئة منه بأول مئة صفحة من الإلياذة، ثم بالمئة الثانية، والثالثة، وهكذا دواليك.

هو، هكذا، حضنٌ لا نهائي يستوعب، على نحو دائري، أي كتاب مهما كان حجمه. وهو، لذلك، كتاب لا نهائي، لأنه يتسع لكل كتب الأرض. فهو أمازون، وهو مكتبتك ومكتبتي، وكل مكاتب الفراشين أيضاً في كل بقاع الأرض. لا يمكن إذن عشاقَ الكتب الرقمية إلا الانسجام مع الكتاب الورقمي بفضل هذه الملَكات الرقمية العبقرية الخالصة، هم الذين يزدرون الكتب الورقية لأنها غير عملية غالباً، لا يمكنها أن ترافقهم في الجيب والأسفار، ولا سيما إذا كان تصميمها مقرفاً وغريباً جداً، مثل حال الإلياذة (في طبعة المجلس الأعلى للثقافة، مصر)، المخرجة في كتاب مجلد ضخم من الورق الفاخر السميك، وزنه خمسة كيلوغرامات تقريباً، حمله يشرخ الكتف عموماً، ولا يمكن قراءته على السرير أو الحمام؛ فيما يمكن طباعة الإلياذة في كتاب صغير الحجم، هوائي أنيق وعمليّ جداً، من بضع مئات غرامات لا غير!

إذ إن أمّهات الكتب لا تطبع على طريقة الأصمعي عندما كتب قصيدته الشهيرة «صوت صفير البلبل»، المعقّدةَ الألفاظ، على جلمودٍ من الصخر، كمطبٌ للخليفة البخيل أبي جعفر المنصور الذي لم يكن يكرم الشعراء من

بيت مال المسلمين.
كان يقول لهم إنه سيمنحهم وزن قصائدهم ذهباً، شرط أن تكون جديدة. ثم يعتبرها، من باب الخديعة الماكرة، قد قيلت من قبل؛ والدليل أنه وغلاماً وجارية له قد سمعوا بها أيضاً! في حين أن الخليفة كان يلتقطها في ذاكرته، بفضل قوة حافظته، حال سماعها لأول مرة، ويرددها كما لو كان يعرفها من قبل! وكذلك غلامه الذي يرددها بعده، لاحتياج حافظته لسماعها مرتين أوّلاً، ثم الجارية أخيراً التي تحتاج لسماعها ثلاث مرات لحفظها وترديدها.
عندما جاءه الأصمعي متنكراً بهيئة أعرابي وقرأ قصيدته على جلمود الصخر، فشل الخليفة في ترديدها بعده، وكفّ عن عدم إكرام الشعراء على «نقلهم ومنقولهم».
فأمهات الكتب تطبع مثلاً في سلسلة «البِلياد» (الكوكبة)، غاليمار، في كتب ارستقراطية أنيقة مجلّدة، لكنها صغيرة وخفيفة جداً!
يزدري الرقميون الكتب الورقية لأنهم يحملون في القارئ الإلكتروني الصغير (مثل كندل) ملايين الكتب في اللحظة نفسها، وليس كتاباً ورقياً واحداً فقط، مهما كانت خفته وأناقته. فيما يجدون في الكتاب الورقي كل مزايا الكتاب الرقمي وأكثر، ولا سيما تلك التي يبدو الكتاب الورقي مقارنةً بها من بقايا عهد عاد: روابط النصوص التشعبية الفائقة (Hyperlink) التي يَسمح مجردُ لمسِها بالانتقالَ إلى صفحة أو موقع أو كتاب أو مرجع آخر في أي مكان في الدنيا، وكذلك إمكانية وضع نافذةٍ، تتخلّل الكلمات والفقرات، لِصورةٍ رقمية، أو مقطع فيديو من فيلم أو يوتيوب!
سيبدو الكتاب الورقي للقبائل الرقمية هكذا أشبه بالقارئ الإلكتروني في الجوهر، اللهم إلا أن الانتقال عليه من ورقة إلى ورقة يتمّ كالكتاب الورقي تماماً، بقلب الصفحة، بدلاً من لمس أسفل شاشة القارئ الإلكتروني للانتقال إلى الصفحة التالية. معه سيحققون حلمهم بِرَمي كل المكتبات الورقية المنزلية والجامعية وغيرها إلى الزبالة، واستغلال مساحتها لمآرب أخرى، كما تُستبدل اليوم محطات وقوف السيارات، في بعض الأحياء والمدن التي تغيّرَ فيها منهج المواصلات بغية تقليص نفث غازات الاحتباس الحراري، بحدائق أو متاحف أو متاجر.
باختصار، بعد الكتاب الورقي، لن تلوك قبائل الورقيين حديثها المقرف عن حاجتها العضوية لاستنشاق رائحة الورق في أثناء القراءة، لأن الكتاب الورقي يوفرها لهم، بين عدد غير محدود من المزايا. وستبتهج القبائل

الرقمية لأنه يحوي كل مكتبات الدنيا في كتاب واحد. فهو الكتاب الورقي اللانهائي الخفيف الذي يستطيع أن يتحول، على نحوٍ ميتامورفوزي، إلى أي كتاب!

خطر لي، في الحقيقة، حلم فكرة هذا الكتاب الورقمي عندما سمعت أحد قراء مقالاتي يعبرّ عن رفضه الحاد للقارئ الإلكتروني، بحجة حاجته لاستنشاق رائحة الورق!

ذكّرني ذلك بكابوس لا يُنسى: عندما رفضت الإمبراطورية العثمانية وبلادها العربية دخول المطبعة إليها، خلال ثلاثة قرون، بحجة ضرورة الاكتفاء بالمخطوطات الحبرية فقط، لأن «حبر العالِم أقدس من دم الشهيد»!

استحضرتُ تطوّرَ المدن الأوروبية حال وصول المطبعة إليها بشكل تجاوز سريعاً المدن التي لم تدخلها المطبعة. ارتفعَتْ معدلات نموّها حينذاك، في أقل من نصف قرن، لتسحق المدن التي تلكأت عن ذلك. ثم تدافعت بعدها الاختراعات والاكتشافات هناك، بسرعة مذهلة، لتنقل ديار المطبعة إلى أعلى الحضارة، فيما توقفت ديارُ «حبر العالِم» ديارُنا التي كانت مع ذلك في طليعة الحضارة، وتقهقرت نحو مؤخرة المؤخرة.

أعترفُ هنا: لا تخلو فكرة هذا الجهاز الورقمي من العبث والفانتازيا، لأنه يستبدل شاشة القارئ الإلكتروني المستندة إلى تقنية الحبر الإلكتروني، بمئة شاشة مثلها، لها هيئة الورق ورائحته، مرتصة مثل صفحات الكتاب الورقي.

لعل حلم تصميم هذا الكتاب ونزوته الطائشة جداً راودتني بسبب عقدة كابوس رفضنا كعرب لدخول المطبعة إلى ديارنا، وخوفي المرَضي من عدم استغلالنا المثابر الجاد للتقنيات التكنولوجية الجديدة، كالقراءة الرقمية والقارئ الإلكتروني، لردم الهوّة التي تفصلنا عن عالم المعرفة، والإسراع باللحاق بركب الحضارة!

بيتٌ يتجوّلُ كسفينةِ نوح

في عصرنا هذا، الذي تتسكّع فيه السفن الفضائية للإنسان في كواكب قصية، لم تعد الأحلام غالباً عبثاً وترف، بل فاتحةً لِمشاريعَ قابلةٍ للتحقيق ذات يوم.

لعلّ ذلك هو مصير أحلام الإنسان الذي راودته منذ الأزل رغبةُ العيش بشكلٍ مختلفٍ عن حياته التقليدية: في جزرٍ نائية غرائبية، كجزيرة واق الواق المذكورة في «ألف ليلة وليلة» والتي قال ابن بطوطة إنه زارها؛ أو جزيرة «يوتوبيا» (من الإغريقية: موقع لا مكان له) التي تخيّلها توماس مور في كتابٍ شهيرٍ له، بهذا العنوان، صدر في عام ١٥١٦.

في الأولى ثقة «شجرة النساء» التي تزهر نساءً وليس ثمراً، وفي الثانية يتأنسن شعبٌ همجيٌ ليصير من أكثر شعوب العالم حضارةً ورقيّاً. إذ يبدو اليوم أن المشاريع المعمارية المستقبلية الباهرة للجزر العائمة (التي كرّست لها صحيفة اللوموند الفرنسية عدداً خاصاً في ملحق «ثقافة وأفكار» في ٢ مايو ٢٠١٥) هي أفضل تجسيدٍ لتحقيق الحلم الطوباوي للإنسان بالحياة في عالمٍ جديد، مائيٍ ساحرٍ مدهش.

جاءت فكرة تشييد الجزر العائمة، أو ما يُسمى البناء المعماري الأزرق، حلاً للتراجيديات البيئية التي تنتظر إنسان المستقبل، جرّاء التغير المناخي الحاصل في كوكبنا، وما يقود إليه من فيضانات وكوارث، ولا سيما أن المدن الكبرى (من شنغهاي وهوشي منه، إلى سان فرانسيسكو وبوينس أيرس) التي شُيّدَت تاريخياً في دلتات مائية، أو قرب مصبّ أنهار، لم تعد قابلةً لمزيدٍ من التمدّد. إذ إن تمدين البيئات المتاخمة للماء يؤدّي بالضرورة، كما أشار مصمّمُ أوّلِ عمارةٍ عائمةٍ في ميناء روتردام في هولندا، بارت رويفين، إلى المسّ والخلل في منظومتها الإركيولوجية الأزلية، وحاجاتها الطبيعية لِتراكم الطمى، للسهول الخصبة، لمستنقعات المانجروف أحياناً، لِكمياتٍ كثيرةٍ من الحيوانات، ولِحركةٍ طبيعية للمياه.

السبب الجوهري الآخر أنه بلغ حجم مدن العالم الكبرى ومساحاتها حدّاً يصعب اليوم تمديدهُ الجغرافي غالباً، فضلاً عن أن عدد سكّان البشرية سيصل إلى نحو عشرة مليارات نسمة في ٢٠٥٠، ولم يعد أمام الإنسان من متّسعٍ لاحتواء هذا العدد الهائل غير الصحراء (تنقصها المياه)، أو الفضاء (شديد التكلفة)، أو البحار والمحيطات (نحو ٧١ في المئة من حجم كوكبنا).

ثمّ إن مشاريع الجزر العائمة الكبرى تنطوي على جوانب معمارية بيئية لتطوير الزراعة المائية التي يكفي أن يُستثمرَ لها واحد في المئة من حجم البحار والمحيطات، كي يمكن إشباع إنسان المستقبل.

بدأت فكرة الجزر العائمة، أو «الثورة المعمارية الزرقاء» كما تسمّى، في هولندا حيث انطلق شعار «الأخضر جيد، لكن الأزرق أفضل!»، بغية أن تتناغم حيواتنا مع الماء الذي سترتفع معدلات فيضاناته بنحو هائل في الأعوام القادمة، بسبب التغير المناخي لكوكبنا. إذ يلزم حينها لتلافي الكوارث – ولا سيما أن معظم سكان الأرض يعيشون قرب الماء - بناء الحواجز العملاقة المكلفة، أو التفكير في البناء المعماري البرمائي الذي تسعى إليه الثورة المعمارية الزرقاء، والذي يسمح ببناء أحياء سكنية عائمة، متنقّلة، يمكن ضمُّها وتحريكها لتشكّلَ كتلةً متوحّدَةً هائلة تستطيع التفاوض مع حركة المياه، وتجنّبَ فيضاناته أو صدّها.

في هولندا، بلد الأراضي المستصلحة من البحر، تعلّمَ الناس منذ زمن فن الحياة المتناغمة مع الماء. «لا يلزم محاربة البحر، بل التكيف معه»، يقولون. ثمّة حالياً منازل عائمة في حي إيجبورج في أمستردام، على سبيل المثال. وثمة شركات عدّة فيها، وفي مدنٍ أوربية أخرى، تخطّط وتبدأ مشاريع الجُزر والأحياء العائمة، مثل «المدينة العائمة» (مساحتها عشرة كيلومترات مربعة) التي خططتها الشركة البريطانية ATDesign للصين.

لعلّ مشاريع شركة Syndelta الهولندية التي شيّدت أوّل بنايةٍ عائمة في ميناء روتردام هي الأكثر إذهالاً: أرخبيل من جزر عائمة، كل جزيرة تقوم على عربةٍ أسمنتية دائرية قطرها نحو نصف كيلومتر، تفصلها عن البقية مساحات بيئية تسمح لعبور الضوء إلى قعر البحار، ويمكن وصلها بالأرخبيل، عند الحاجة، بأنابيب ديناميكية، وربط الجميع وضمّه في كيان تكتليّ واحد.

ثمّة كذلك مشروع Lilypad الشبيه: أرخبيل من جزر عائمة، ذات شكلٍ غرائبيّ مدهشٍ مثير، تتسع كل جزيرةٍ منها لثلاثين ألف نسمة.

تلزم الإشارة إلى أنه بعكس الجزر الاصطناعية (كما هو الحالي في مدينة دبي) التي تضرّ بيئياً بقَعر البحر، تأتي فكرة الجزر العائمة كمشروعٍ أكثر ديناميكية واحتراماً للبيئة، هدفه حل كثيرٍ من معضلات حياة الإنسان في العقود القادمة، بطريقةٍ عبقريّةٍ جديدةٍ مدهشة.

شدّتني هذه المشاريع الجديدة للجزر العائمة، وبُعدُها البرمائي الذي ينسجم مع طبيعتي التعددية. وجدتُ أحلامي الطوباوية المعمارية تقترب

من التحقق فيها!
بدأت أحلامي المعمارية، في الحقيقة، قبل عقدين أو ثلاثة بمشروع هذا المنزل الغرائبي:
منزلٌ واسعٌ مشرئب، بأوجه أربعة، يعلو أكمةً أو قمةً ما على طريقة القصور اليمنية التقليدية.
وجههُ الغربيّ زجاجيٌ خالص يُتاخم البحر. أمامي كل يوم: غروبُ الشمس في الأفق المواجه، لا يفصلني عنه إلا زجاجُ شفّافُ لا غير. مِلكي: أسراب طيور النورس، الأمواج، السماء المتوهجة... يكفي كي أعوم، أنا الذي لا أستطيع أن أحيا دون العوم الدائم، أن أقفز نحو الأعماق من شرفة منزلي مباشرة!
وجهه الشرقي من المعدن الفضيّ اللامع، يقابل المدينة وجهاً لوجه. يترامى أسفل شرفته الشرقية أرخبيل مقاهٍ ومطاعم مفتوحةٍ ليل نهار، سينمات ومسارح، أحياء مدينةٍ نابضةٍ سعيدة، بشرٌ متوقّدٌ حز، يسرح ويمرح في كل مكان. في الأفق البعيد عماراتٌ عاليةٌ متوهّجة.
وجهه الشمالي (من الحجارة المنحوتة بيد نحّاتٍ ماهر) يقابل جبلاً شامخاً، بهيئةِ عملاقٍ ميثولوجي، ذا تماثُلٍ هندسيّ مثير. رأسهُ (الذي سمّيته: «القُلّة»، على طريقة أسماء قمم الجبال اليمنية) يستحوذ على ناظري كل يوم.
تتفجّر على جانبيه ينابيع ساحرة، تتساقط من صدره شلّالاتٌ باهرة. بطن وأرجل الجبل مدرّجاتٌ زراعية على طريقة المدرجات اليمنية، تتخلّلُها سهولٌ وممرّاتٌ تعبرها ذهاباً وإياباً قبائل حيواناتٍ محميات سرينجيتي في كينيا وتنزانيا، وتحلّقُ فيها كل طيور رأس الرجاء الصالح، بكلّ تنوّعاتها المدهشة.
ووجههُ الجنوبي المبنيّ من الطوب الأحمر يقابلُ الصحراء. رمالٌ بيضاء متماوجة تذكّرني دوماً برُبعنا الخالي الساحر، بالمهد، بالبادية. تعبرها الجِمال في تماوجٍ يشبه إيقاع أوزان الخليل، لا أملُّ الإصغاء إليه.
أردت هكذا، في هذه المرحلة الأولى من حلمي المعماري الطوبائي، أن أدمج في بيت أحلامي عوالمَ متنوعة، وأن أمدّ فيه جسوراً تربط البادية بالمدينة، الجبل بالبحر، الطوب بالزجاج، الماضي بالحاضر، البر بالماء، اليمن بفرنسا.
أردته كذلك ليستحوذ عليّ دوماً ويمنعني من مغادرته، أنا الذي أشعر بالتخثّر إن بقيتُ في المكان نفسِه أسبوعاً فقط، ولا سيّما أنني صمّمتُ مكتبة بيتي هذا بطريقةٍ ستجعلني أتلظّى شوقاً له ولها، إن عشتُ يوماً

بعيداً عنهما.

صمّمتُ «ماكيت» مكتبتي لتكون على جدران طويلة لولبية، تضيق شيئاً فشيئاً كلما اقتربنا من القمة، حيث تمكث الكتب القديمة التي استمدَّ منها الإنسانُ ينابيعه الفكرية والأدبية والوجدانية الأولى: الإلياذة والأوديسة، ألف ليلة وليلة، ملحمة جلجامش، فن الحرب، مهابهاراتا، الكتب «السماوية»...

أمّا الوصول إلى رفوف هذه المكتبة الباسقة التي أحتاجُ في الحقيقة إلى خمسين حياة لأقرأ كلَّ كتبها فقد صمّمتهُ عبر سلالم نحيفة، تشبه شجرة السلالات، تنتشر في كل أرجاء جدران المكتبة، كما تنتشر الشرايين والأوعية الدموية في جسد الإنسان.

الوصول إلى كتابٍ عبر سلالم المكتبة، حسب موضوعه، ينسجم مع طريقة البحث عنه في شجرة مواضيع المعارف الإنسانية. يؤدي ذلك إلى بقعةٍ في رفوف المكتبة ترتبط بموقعها في شجرة المعارف، يُعثَرُ على الكتاب فيها عبر التسلسل الأبجدي. لم أحب أن يكون في منزلي روبوتٌ حديثٌ يذهب كعبدٍ ليحضر لي الكتاب الذي أبحث عنه، لكن أردت أن أبحث عنه أنا نفسي، كمن يتسلّق لِقطف ثمرةٍ من شجرة.

كنتُ سعيداً بهذا الحلم قبل أن أكتشف أنه مشحونٌ بتناقضات تجعله مستحيل التحقيق. إذ كيف لي أن أجد موقعاً في هذا العالم تتعانق فيه الصحراء بالجبل، والبحر بالمدينة، وتلتقي جميعها في نقطة جغرافية معينة، تشرئب منها ربوةٌ أو جبلٌ صغير يعلوه منزل أحلامي؟

ثم إن وجدتُ يوماً تلك النقطة الجغرافية المستحيلة، فكيف لمنزلي أن يلغي حاجتي الجذرية للسفر والحركة والتنقّل، أنا الذي أشعر فعلاً بالاختناق إذا مرّ أسبوع دون أن أغادر سكني، وأعبر مئات الكيلومترات بقطارٍ أو طائرة، كي أرى الطبيعة تنساب أمام ناظري كفيلم سينمائي ولو بضع ساعات فقط، قبل أن أرى مدينةً أو قريةً أو عالماً آخر.

وبالمقابل، كيف سأستطيع مغادرةَ منزلي هذا وتحمّلَ فراق مكتبته، والسفر بعيداً عنهما ولو يوماً واحداً؟

ذابت هكذا كلُّ الإشكاليات بعد أن قرأتُ عن مشاريع الجزر العائمة، وعوالمها البرمائية الساحرة: لا حلّ لي إذن إلا في تنقّل منزل أحلامي هذا، كسفينة نوح، كي يطوف بمعيّتي بحار ومحيطات العالم، يستقرّ حيثما أريد، في شواطئ كل الدنيا وموانئها!

المجد للمنازل العائمة، المجد للثورة الزرقاء!

في ملكوت المدنِ الذكيّة
(أو: المدينةُ التي أعشقُها عشقاً!)

إذا رأيتَ يوماً منظراً بانورامياً لِطوابير طولها عشرات الكيلومترات من سيارات مرصوصةٍ لا تتقدّم أو تتأخر خلال ساعات، أو إذا عشتَ هذا الجحيم مرّةً واحدةً فقط على تخوم المدن الكبرى أو في ساعات انتهاء الدوام، أو في بعض شوارع المدن العربية كالقاهرة والجزائر، فستكرهُ حياتك وتشعر بالتعاسة والنرفزة والنكد.

لكأنّك حينها تعيش في أجواء «سورة القارعة». أو أمام جيوش صراصير مزدحمة في باب المدينة، تُلوّثُها بغازات الاحتباس الحراري. تدمّرُ أعصاب الإنسان وتقيّدُ حركته.

مرّ على تاريخ حركة المواصلات المدنية أكثر من قرن، لم تتغيّر فيه بنيتها حتى الآن. صارتْ عتيقةً قاتلة، ووصلتِ اليوم إلى طريقٍ مسدودٍ يزدادُ إخفاقُهُ مع تدهور وضعِ كوكبِنا المختنقِ بإفرازات نشاطات الصناعة والمواصلات المختلفة. تتقيأُ هذه النشاطات الإنسانية غازاتها بكمياتٍ زلزلتِ اتّساق المنظومة البيئية لكوكبنا، لدرجةِ أن العبارة الرسميّة التي تتكرر اليوم في أدبيات المؤتمر الدولي للبيئة الذي انعقد في باريس في نهاية ٢٠١٥، COP21، سوداويةٌ لا ترحم: «تأخّرت البشرية عن الحل، تأخّرت أكثر من اللازم!».

استمرار البنية المعاصرة للمواصلات يبدو مستحيلاً في المستقبل مع نذير زيادة الانفجار السكاني لكوكبنا: ملياران إضافيان ينتظران المعمورة خلال العقود الثلاثة القادمة. سيزداد خلالها سكان لندن مثلاً نحو مليونين إضافيين، دون الحديث عن بعض المدن العربية التي تزداد فيها معدلات الولادة بأرقام عشوائية خيالية.

لا حلّ للإنسان إذن إلا إعادة تخطيط مدنهِ من منطلقٍ جديد، إذا لم يُرد أن يتكدس فيها ويتخثّر.

لذلك برزت مصطلحات ومشاريع ما تسمّى بـSmart City: المدينة الذكية، أو الأنيقة. تلك التي أعشقها عشقاً. الكلّ يراها كما يحب، ويرسم مشاريعَهُ حولها بطريقته، في كل مجالاتها من معمارٍ واتصالات وفضاءات ثقافية ومواصلات.

كيف أراها شخصياً، في مجال المواصلات؟

هي، بالنسبة إليّ، مدينةٌ تتكئ على التكنولوجيا الحديثة، وعلى الثقافة

كحلٍّ لأزمة الحضارة الإنسانية الراهنة.

التكنولوجيا الحديثة، في الحقيقة، سيفٌ ذو حدّين، يمكنه أن يشتغل حثيثاً لمصلحة قوى المال وتدمير البيئة، كما هو الحال غالباً اليوم. ويمكنه أن يشتغل لمصلحة الإنسان وسعادة كوكبنا الأزرق، كما تسعى إليه بعض المشاريع الديموقراطية: البرمجيات المجانية، الموسوعات الإلكترونية المجانية، الاقتصاد التعاضدي، مشاريع الطاقة المستديمة...

تطوّرات التكنولوجيا الحالية مدهشةٌ وواعدة: السيّاراتُ التي تسير دون سائق (ببرامج ذكيّة، ولاقطات وكاميرات الكترونية متصلة بكل محيطها) هي أفضل الحلول لتلافي ضحايا المواصلات، التي يُسبّبها الإنسان في الغالب.

تكفي ملاحظةُ كيف استطاعت الخوارزميات الحديثة التخفيفَ الهائل من حوادث الطائرات، وإجراء العمليات الجراحية المعقدة الناجحة بواسطة الروبوتات.

فهذه السيّارات، التي لا يقودها إنسان، لم تعد حلماً طوباوياً، ولكن حقائق على الأرض، تتطوّر الأبحاثُ لتحسينها، وتُهيئ الشركاتُ الكبرى نماذج عملية لها ستغزو السوق قريباً.

السيّارات التي لا تنفث غازات الاحتباس الحراري في تطوّرٍ مطّردٍ هي الأخرى، تكتسح سوق المواصلات المدنيّة أكثر فأكثر... نجدها حالياً، مثل دراجات «التوليب» القابعة في باحاتٍ مختلفة في أرجاء باريس: بسعرٍ رمزي بسيط يضمن اشتراكك فيها لعام، تستطيع أن تأخذ إحداها من أقرب باحةٍ لك، لتقودها في طرقٍ خاصة مسفلتة حديثة، وتتركها في أقرب باحة وقوفٍ من مرفأ رحلتك.

هكذا، بإمكان التكنولوجيا الحديثة أن تصنع مفاتيح حلولٍ عبقرية جديدة لمواصلات الغد، إذا ما كان هدفُها جذرياً: مواصلاتٌ دون خيطٍ من ثاني أوكسيد الكربون، دون اصطدامٍ واحد، بتصميمٍ ورؤىً وطرائقَ جديدة، ضمن ما تسمّى مشاريع «المواصلات الجماعية الذكية، حسب الطلب».

كيف أتصوّر سيرورة مواصلات مدن المستقبل الذكيّة، وكيف أحلمُ بها شخصياً؟

لا حاجة في المدن الكبرى إلى قيادة سيّارات شخصيّة تنتشر في الطرق كالفيروسات. ولا سيّما أن الحلَّ البديلَ أفضلُ، أسرعُ وأرخص. وسيقبل الجميع، لهذه الأسباب الثلاثة، منع استخدام السيّارات الشخصيّة في المدن الكبرى، أو التقليل منها في حدودٍ قصوى.

كم سيكون ذلك رائعاً! لا حاجة لِضياع ساعات في البحث عن مواقف

للسيارات، أو لبذل مجهودٍ ووقتٍ في سياقة سيارة. الوقت الذي سيربحهُ الإنسان، والأماكن التي ستحلّ محلّ باحات الوقوف، ستصير أوقاتاً لسعادته وبهجته، وأماكن لنشاطات ثقافية وفنيّة و«ورش فكر».

كيف يتحقّق ذلك إذن؟

لدى كل إنسان، على هاتفهِ المحمول، عناوينُ الأماكن التي يذهب إليها عادة: العمل، محطة القطار، مركز المدينة، مطاعمها، مسارحها...

يكفي أن ينقر وهو يخرج من منزله، أو حيثما كان، على أحد هذه العناوين، أو أن يكتب عنواناً جديداً. ترتسم على شاشة هاتفه أنواع السيارة الجماعية الذكيّة التي يودّ ركوبها، نوع يمكن أن يشتغل فيه أثناء الرحلة كما لو كان في قطار أو طائرة، أو آخر يتفسّحُ فيه ويتحدّثُ مع من حوله ويشاهدُ برامج ثقافية... ينقر على ما يشاء من اختيار.

يذهب طلبه إلى كمبيوترٍ خادم «سرفر» في دائرة جغرافية تحيط به، أو مباشرةً إلى مجموعة سيارات «المواصلات الجماعية الذكيّة» القريبة منه جغرافياً، وليس إلى «سرفر» مركزيٍّ لكلّ المدينة يمكنه أن يختنق من فرط عدد الطلبات.

يُحدّد برنامجٌ ذكيٌّ يتسلّم الطلب السيّارةَ الأقرب والأنسب التي يتّجه راكبوها الحاليون إلى المكان الذي يبتغيهِ صاحبُنا أو إلى مكانٍ قريبٍ منه، والتي يتفق ديكورها مع مزاجه.

تصلهُ السيارة بعد دقائق من الطلب، لتأخذهُ ومجموعتَه على أقصر مسارٍ يتّجه نحو مآلاتهم، تحسبه خوارزميات دقيقة.

كل أضواء الطريق الحمراء «ذكيّة»: تتواصل إلكترونياً مع السيارة، لا تمنع مرورَها إلا عند الحاجة لا غير، ولأقصر مدّة فقط...

يحصل كلّ ذلك في حركةٍ كليّةٍ نظيفة، نموذجيةٍ في اختصارها المسافة والوقت، وثمنِ الرحلة الذي بتوزّعه على مجموع الركّاب يصير بالضرورة أرخص من ثمن قيادة سيارةٍ شخصيّة. ويتحقّق داخل فضاءٍ معماريٍّ جديدٍ وجميل: يمكن أن يُشبِهَ بهوُ السيارة سفينةً فضائية سداسيةَ المحيط، جميلة الديكور والشاشات، وبأحجامٍ متنوّعة تتّسِع لأعداد مختلفة، وبمقاعد مريحة تسمح بقضاء وقت الرحلة بالعمل أو التثقُّف والمتعة، كما يهوى الزبون.

تُشكّل هذه الوسيلة الجديدة العمودَ الفقري لحركة مواصلات المدينة الذكية. تتكامل مع المواصلات التقليدية: باصات، دراجات، مترو أرضيّ أو هوائي... يُعاد تنظيم حركة هذه الأخيرة بشكلٍ تكامليٍّ جديد، لامتصاص الطلبات المزدحمة المتواترة الكبرى.

النتيجة: شبكة مواصلات نموذجيةٌ في تقليلها الأمثل لِلمسافات المقطوعة في كلّ المدينة، لِاستخدام الطاقة، لِتكلفة المواطن، لِعدد السيّارات التي تعبر المدينة... تتحرّك بسرعةٍ سائلةٍ في طرقٍ نظيفةٍ قليلة السيّارات، وفي فضاءٍ نقيّ سعيد!

الجنّة على الأرض ممكنةٌ حقّاً بفضل خوارزميات ذكيّة، وإنسانٍ يحافظ بعشقٍ على تناغم وتوازن المنظومة البيئية لِكوكبنا الأزرق الحبيب.

الثقافة مرتكز حضارات الأمم المتطورة وضمان حمايتها وديمومتها. والمكتبات القومية الكبرى، ذات التأثير التنويري الفعّال القادر على نشر المعارف الحديثة وتعليم صناعتها محلياً، رافدٌ جوهريٌ لثقافات تلك الحضارات المزدهرة.

للمكتبات القومية الحديثة المثلى في الزمن الرقمي الجديد بنية هرمية من ثلاثة مستويات.

طابقها القاعدي: المكتبة الورقية التقليدية المدججة بأحدث التقنيات، من حواسيب وبرمجيات متخصصة وروبوتات متحركة، تخزن وتؤرشف وترتب الكتب والوثائق، تعرضها موتورات البحث على الشاشة عند أدنى طلب من القارئ، وتهرع روبوتاتها للبحث عنها في الرفوف وحملِها للقارئ مباشرة.

طابقها الثاني: المكتبة الرقمية الحديثة التي تنسخ نصوص الطابق الأول على الحاسوب وشبكة إنترنت (كصورٍ من ناحية، وكنصوصٍ رقمية من ناحية أخرى)، وتضيف إليها بنكاً هائلاً من النصوص الأخرى المتعددة الوسائط (صور، فيديو، أفلام...) تربطها جميعاً، بنحو عضوي، بواسطة البروتوكولات الحاسوبية الحديثة، بالمكتبات الكونية بطريقةٍ تسمح بمعالجتها جميعاً واستفسارها أوتوماتيكياً من قبل الحواسيب مباشرة!

طابقها الثالث: مجموع التقنيات والوسائل الحديثة التي تسمح لهذه النصوص بالاستحواذ على اهتمام المجتمع وتوعيته وتنويره وجعله مجتمعاً يصنع المعرفة. دون هذه النتيجة الاستراتيجية (أي: صناعة المعرفة محلياً) تكون المكتبة أشبه بديكور جميل لا يسمن أو يغني من جهل!

الطابق الأول لا يختلف جوهرياً عن المكتبة التقليدية، منذ الإسكندرية قبل الميلاد حتى مكتبات النصف الأول من القرن العشرين، مروراً بمكتبة فلورنسا في عصر النهضة الأوروبية، اللهم إلا:

١) بدخول الحاسوب كوسيلة لرصد الكتب وتنظيم توزيعها عبر قاعدة بيانات وموتورات بحث تسمح للقارئ بمعرفة كل مواد المكتبة وقراءة ومشاهدة صور عدد هائل منها على الحاسوب.

٢) بدخول الروبوتات الآلية (كما هو الحال اليوم في بعض مدن الغرب، كشيكاغو) التي تضع الكتب في رفوفها وتذهب لِحملها مباشرة للقارئ في

صالة القراءة.
يكون ذلك باستخدام تكنولوجيا RFID، أي «التشخيص بترددات الموجات الإذاعية»، التي تنبعث من شريحة رقيقة تلتصق بالرف أو الكتاب، ويمكن الروبوت التفاعل معها والكتابة فيها عن بعد.
مكتبة قطَر التي افتتحت في عام ٢٠١٥ مهيّأة لتكون مدجّجةً بأحدث هذه التقنيات، في تحفة معمارية مهيبة.
سأسلّط الضوء هنا على الطابقين المتوسط والأعلى اللذين يكون الانتقال بفضلهما من الطابق الأرضي (الذي لا يختلف عن مكتبة «العصر الحجري» في الجوهر!) إلى مكتبة العصر الحديث والمستقبل.
يلزم لذلك أوّلاً تعريف النص الرقمي المتعدد الوسائط: هو النص المكتوب على الكمبيوتر (كتب، محاضرات، مقالات، براءات اختراع، مدوّنات، تقارير خبراء، حوارات ونقاشات في الشبكات الاجتماعية... أكان نضاً مطبوباً، مسموعاً، أم مرئياً). لهُ خصائص مدهشة تجعل منه أرقى ما أبدعه الإنسان من فجر التاريخ: هو «هوائي» التواجد (يمكن أن يتناثر على «حواسيب سُحبيّة» متباعدة، وأن نصل له من أجهزة إلكترونية مختلفة، من أي مكان). يمكن ربطه بأيّ نص رقمي آخر في أي مكان في العالم عبر «روابط النصوص الفائقة»، hypertext. لا وزن له: يمكن وضع كل مكتبة قطَر في بضعة مفاتيح U.S.B خفيفة كقطعة نقدية دون أن يتغيّر وزن المفاتيح. يمكن تغيير كلماتٍ أو فقراتٍ منه دون إعادة طباعته كلّاً من جديد، كالنص الورقي!
يستطيع الحاسوب أن يتعامل مع النص الرقمي المكتوب: ينطقه، يفهرس كلماته لموتورات الأبحاث، وليس فصوله فقط، يترجمه دون أن يعرف مدلوله.
من المهم جدّاً هنا التمييز بين النص المطبوع على الحاسوب من ناحية، وصورة سكانير لِنصٍّ مطبوع على ورق من ناحية ثانية: الثاني مجرد «شخاطيط» في أعين الحاسوب (يراه مثل قطة تشاهد صفحة من «رسالة الغفران») لا يستطيع معالجته أو فهرسته بالطبع. لذلك تمتلك كل لغة مهمّة - عدا العربية حتى الآن! - «متعرف ضوئي إلى الأحرف» (OCR) يحول صورة السكانير إلى نص رقمي.
وتمتلك المكتبات الكبرى روبوتات تشتغل ليل نهار لرقمنة الكتب المطبوعة: تفتح هذه الروبوتات الكتاب صفحةً صفحة بشكل آلي، تُصوّر كل صفحة لتُقرأ في الحاسوب كصورة، ثم - وهنا المرحلة النوعية البالغة الأهمية - تُحوّل الصفحة إلى نصٍّ رقمي بعد التعرف الآلي إلى كل حرفٍ من أحرفه

وطبعه من جديد.

منذ العقد الماضي، إثر مشروع غوغل العملاق لبناء مكتبته الرقمية الكونية (أذكّرُ هنا: لم تكن شركة غوغل في البدء غير مكتبة رقمية في ستانفورد)، توالت المشاريع الأممية العملاقة في الدول المتطوّرة، وجرت رقمنة ملايين الكتب، بكل اللغات، بهذه الطريقة.

يمكن رؤية فيديوهات تصوّر الريبوتات وهي ترقمن الكتب في بعض المواقع الإلكترونية للمكتبات الدولية كموقع المكتبة الرقمية جاليكا (التابعة للمكتبة القومية الفرنسية).

يكفي مثلاً فتح كتاب «الكوميديا الإلهية» لدانتي من موقع هذه المكتبة، كصورة أو كنص رقمي. في الحالة الأخيرة سنجد هامشاً يقول: «يمكن أن توجد هنا أخطاء لأنه تم تكوين هذا النص بالمتعرف الضوئي للأحرف (OCR) بِنسبة تعرُّفٍ تساوي ٩٩,٩٦٪».

يتوازى هذا التعرف إلى صور النصوص مع مشاريع بعيدة الأمد: التعرّف الآلي إلى المخطوطات اليدوية، ولا سيما مخطوطات التراث، ورقمنتها. كمثل: للمكتبات القومية الدولية الأوروبية مشاريع أبحاث كثيرة تهدف لِرقمنة مخطوطاتها العتيقة، الموجودة في المتاحف والمكتبات القديمة.

لا أعرف شخصياً كتاباً عربياً ورقياً واحداً تم تكوينه بمتعرف ضوئي إلى الأحرف، لأن نسبة التعرف في المتعرّفات الضوئية باللغة العربية ما زالت ضعيفة تقارب الستين بالمئة، أي غير صالحة للاستعمال.

لعلّ أهم تحديات مكتبة قطر: حلّ هذه المشكلة القومية الرئيسة المزمنة. أي: رقمنة كل الكتب العربية الورقية المطبوعة بآلات الكتابة القديمة (دون الاكتفاء بتحويلها إلى صور سكانير كما يحصل حالياً في مكتباتنا العربية الأخرى، التي ليس لها أية أهمية من وجهة نظرٍ رقمية) وإدخال اللغة العربية هكذا في عصر الرقمنة مثل سائر اللغات الكبرى التي رقمنت ملايين الكتب حتى الآن، وبدأت عصر الخوض الآلي في دلالات النصوص!

للمعالجة الآلية لدلالات النصوص، يلزم الحديث أوّلاً عن مفهوم «أنتولوجيا المعرفة»: هي نمذجة حاسوبية للمفاهيم المعرفية وعلاقاتها وخصائصها، في أي مجال أو موضوع، بِبُنيةٍ تُعطيها معنى دقيقاً يمكن أن يتعامل معه الحاسوب، وبِلغةٍ معيارية تستخدمها جميع الأنظمة: RDF وأخواتها. هدفها الجبار استيعاب الحاسوب لمحتوى الأنتولوجيا، لفهم النصوص بواسطتها ومعالجتها آلياً!

مثال: أنتولوجيا معارف موسوعة ويكيبيديا الرقمية، دِيبيبيديا، التي ترتبط عضوياً بعدد هائل من المواقع المعرفية على الإنترنت. يستخدم

الحاسوبُ دِيبيبيديا كبوابة لمعالجة المعارف الويكيبيدية آلياً. تنمو هذه المعارف الموسوعية الرقمية يومياً وبكل اللغات، بشكل يجعل الموسوعات الورقية التقليدية تبدو كائنات من زمنٍ غابر. بدأت المكتبات القومية في السنين الأخيرة (وأشارت إلى ذلك بعضُها بشكلٍ واعد، في مواقعها الإلكترونية مؤخراً) مرحلة بناء أنتولوجيا كُتبِها ووثائقها لربطها العضوي ببقية مواد مكتبات العالم، وللسماح لقارئ المستقبل بتوجيه أسئلةٍ للحاسوب حول مدلول نصوص الكتب (نعم، حول مدلولها!)، وليس فقط حول وجود هذا الكتاب أو ذاك، أو الاستفسار حول موضوعه ونوعه وكاتبه.

لعلّ ذلك يقع أيضاً في مقدمة مهمات مكتبة قطَر (بعد مهمة الرقمنة) لأن النص الرقمي اليوم كنزُ البشرية، ذهبُها الأسود. الهدف من صناعته وأرشفته استخلاص المعارف والمعلومات منه بشكل آلي من قبل الحاسوب نفسه، لأن من يسيطر عليهما سيسيطر على المستقبل!

المكتبات القومية (في هذا العقد من القرن) تعمل في وسطٍ بشري صار النشاط الثقافي الرقمي فيه أوسع بكثير من النشاط الثقافي الورقي، ولا سيما لدى الشباب والصغار. قلّ التردّدُ فيه على المدوّنات والمواقع الشخصية الإلكترونية، كما كان الحال قبل سنوات، لمصلحة الولهِ الكثيف بشبكات التواصل الاجتماعي، ولا سيما فيسبوك، يوتيوب، والمنتديات والوسائط التفاعلية الأخرى.

تتعوشب في ربوع هذا الوسط كميّاتٌ هائلة متصاعدة من المواد الرقمية المتنوعة التي تتكاثرُ بشكلٍ أسَيٍّ كل سنتين، تستحوذ وقت الإنسان وتجذبه لِخضمّ إغراءتها وتلاطماتها في كلّ الاتجاهات.

كيف يمكن موضعة الحقل المعرفي في قلب هذه المعمعة الرقمية؟ كيف يمكن جذب الإنسان فيها نحو القراءة والتأمل والتفكير وصناعة المعرفة؟ كيف يمكن المكتبات الحديثة تحسين نتائج مردودات بثّها المعرفي، بالاشتراك مع المدارس والجامعات والهيئات الثقافية والرقمية الأخرى؟

تفجّرت هذه الأسئلة اليوم بغية البحث عن آليات الاستحواذ والاهتمام المعرفي الرقمي، واكتشاف وصناعة وسائل حديثة تنسجم مع مزاج وتطلعات شخصيّة كلّ إنسان، لاستقطابه نحو عالم القراءة والمعرفة الرقمية، لِكسب معركة التنافس مع العروض والعوالم الرقميّة الأخرى التى تبحث عن استهلاك وقته هي أيضاً. ولا سيما أن نواقص وعيوباً كثيرة تعتور القراءة الرقمية اليوم: قراءة الكتاب على الشاشة، من شبكة إنترنت، ممارسةٌ مرهقة للعين، هشّة التركيز، تدخل على خطّها «طفيليات» رقمية

دائمة: إشعارات، إعلانات، رسائل... برز هكذا مفهوم «اقتصاد استحواذ الاهتمام» الذي يسعى إلى خلق فضاءات رقمية فنية تفاعلية تعاضدية جذّابة مثمرة للقراءة، يُساهم في صناعتها الفنّانون والمهندسون وعلماء النفس والدماغ، لتوريط القارئ وجرّهِ إلى لُجّ الثقافة الرقمية المنتِجة للمعارف والإبداعات الخلاقة.

لتكنْ مكتبة قطَر في هذا الطابق العلوي شديدةَ الحضور أيضاً. ولتكنْ، أتمنّى، بمستوى المشاريع النوعية والأحلام السامية الهائجة التي أرميها على عاتقها بأملٍ وضراوة!

يعرض المعجم التاريخي لأية لغة سيرةَ (C.V) كل كلمة فيه، منذ دخولها اللغة، ويتابعُ تطوّرات مدلولاتها وتحوّلاتها عبر السنين.

لا شك مثلاً في أن مدلول كلمة «عقل» يختلف اليوم عن مدلولها قبل ١٤ قرناً، حيث كان الناس يعتقدون أن «القلب» مصدر الإدراك، وليس الدماغ. فهي مشتقة في لغة الضاد من «عقال»: الحبل الذي يُعقل به البعير، حيث كان مدلولها حينذاك: الرسوخ، وليس التفكير المستند إلى السببية (كنظيرتها اللاتينية: Raison)، كما لاحظ محمد عابد الجابري.

كل اللغات العالمية (عدا العربية) تمتلك معاجمها التاريخية التي تضيء تاريخ اللغةِ والحياةِ معاً: عندما صمّت آذاني قبل أيام كلمة «ميليشيا» (الكثيرة الاستخدام في اليمن هذه الأيام!) لجأتُ إلى المعجم الفرنسي الذي كشف عورات مدلولاتها وتاريخها، قائلاً:

هي من اللاتينية milita التي تعني: خدمة عسكرية، والمشتقة من miles التي تعني جندي. دخلت الكلمة القاموس الفرنسي في ١٥٧٨ بمعنى صيانة السلاح، ثم تغير معناها في ١٦١١، ١٦٣٦، ...، حتى آخر تغير: تنظيم عسكري «خارج الجيش».

يستحيل الحصول على مثل هذه المعلومات، ولا سيما التاريخية، لكلمة في المعاجم العربية: مفارقةٌ مثيرةٌ ومؤلمةٌ معاً، لأن اللغة العربية كانت أول من أسس القواميس والمعاجم اللغوية (منذ الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب قاموس العين، وربما الأصمعي قبل ذلك)؛ وقامت في عصرها الذهبي بِدورٍ طليعيٍ في تأسيسِ دراسات النحو والصرف العبقرية، وتصنيفِ المفردات وترتيب جذورها واشتقاقاتها، وتأليفِ كل المعاجم، بما فيها معاجم الجنّ والشياطين! وانفتحت مبكّراً على لغات العالم منذ العصر العباسي وحملة ترجماته الزاخرة!

لهذه المفارقة أكثر من سبب. أحدهم ظلامي يصرّ على أن كلمات العربية موجودة منذ الأزل، في لوحٍ ميتافيزيقيٍ محفوظ، وليست لها سيرات وتواريخ شأن كلمات اللغات الأخرى.

والآخر مرتبط بأحوال اللغة العربية المتردّية في العالم الرقمي. لاستيعاب ذلك يلزم أوّلاً شرح مفهوم «النص الرقمي» الذي أصبح اليوم كنزَ البشرية، وذهبَها الأسود: هو النص الموجود على الكمبيوتر (كتب، محاضرات، مقالات، براءات اختراع، مدوّنات، تقارير خبراء، حوارات ونقاشات في

الشبكات الاجتماعية... أكان نصّاً مكتوباً، مسموعاً، أم مرئياً). لهُ خصائص مدهشة شرحناها في الفصل السابق.

تجدر الملاحظة أن حجم النصوص الرقمية يقاس اليوم بالزيتابايتات (الزيتابايت يساوي ألف مليون مليون مليون حرف. أي:

١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ حرف! أكثر من عدد حبات رمل الكرة الأرضية!).

ويتوقّع أن يصل حجم نصوص عام ٢٠٢٠ إلى خمسين زيتابايت، أي: ٧٥ مرة عدد حبات رمل الكرة الأرضية!

في البلدان التي دخلت العصر الرقمي، الذي لم نلجهُ بعدُ، نحن العرب، تُحوَّلُ الكتبُ التي طُبِعت قبل ولادة عصر النص الرقمي، بأرقامٍ خياليّة، وكذلك المخطوطات اليدوية القديمة في المتاحف والمكتبات والبيوت، إلى نصوصٍ رقميةٍ مباشرة، وليس إلى صور سكانير، كما هو حالنا.

أحد الاستخدامات المهمة للنصوص الرقمية اليوم، تأسيس «مدوّنة اللغة» (بنك اللغة)، التي تنبثق منها المعاجم التاريخية الحديثة في عصرنا الرقمي. تحوي هذه البنوك عيّنةً ضخمةً (تعدُّ مجموعُ كلماتها بالمليارات) من النصوص المتنوعة التي كُتِبت في تلك اللغة في مختلف الأزمنة، والتي تُغطّي كل الاستعمالات التقليدية لها: شفهية أو كتابية، أدبية، علمية، اجتماعية...

تُختار نصوص المدوّنة من عيّنات آتية من قطاع متنوع عريض محايد من المصادر (الصحف والمجلات المكتوبة والمسموعة والمرئية، الكتب المتنوعة، النقاشات، التقارير، الشبكات الاجتماعية ومواقع إنترنت...) كي تعطي صورةً دقيقةً كاملةً عن اللغة في مختلف أشكالها واستعمالاتها اليومية والعلمية والعمليّة والأدبية، خلال مرحلةٍ زمنية معيّنة.

من كنوزها (التي يجري رفدها رقمياً كل يوم) تُستخلَص القواميس والمعاجم المتخصصة في المجالات اللغوية والعلمية والتقنية والعملية. إذ هي المختبر الذي تخرج منه: معاجم تاريخ وأصول الكلمات وعلاقتها باللغات الأخرى، والدراسات اللغوية المتنوعة حول بِنيَة اللغة وظواهرها وشتى دلالات كلماتها، وحول نواقصها واحتياجاتها المتجدّدة.

لتأسيس المعاجم التاريخية عبر استخدام برمجيات الحاسوبات اللغوية، يكفي البحث الآلي عن أقدم نصٍّ في بنك اللغة ظهرت فيه كل كلمة. يعطي ذلك غالباً موعد ولادتها التقريبي، أو محظةً من محظات سلسلة حيواتها. ثم يكفي - بالاعتماد على تلك البرمجيات، وبتحليل ودراسة ميكروسكوبات علماء اللغة والتاريخ والاجتماع – متابعة سيرورة حركتها في اللغة ومختلف تحوّلاتها وتفاعلاتها، والتطوّر البيولوجي لمدلولاتها

واستعمالاتها، وانتقالها أحياناً من كلمة عادية إلى كلمة أدبية راقية مثلاً، أو سباتها الشتوي وموتها الإكلينيكي وانقراضها المهيب.

لعلّ مشروع تأسيس معجم تاريخي عربي - إذا ما بُنيَ بأدوات العالم الرقمي الحديثة: المدوّنة، والقارئ الضوئي، ورقمنة المخطوطات؛ وليس بطريقة يدوية على غرار المعاجم التاريخية في القرن ١٧ في فرنسا - لن يكشف لنا أسرار تاريخ لغتنا العربية الحبيبة فقط، ومعالم مهمّة من تاريخنا الكليّ أيضاً، بل سيكون وسيلتنا للولوج إلى العالَم الرقمي الذي نظنّ، بمجرد استخدامنا الإيميل وتصفّح المجلات، أننا أقرب له من حبل الوريد، فيما ما زلنا في الحقيقة أبعد أهل المعمورة عنه تقريباً!

إذ يلزمنا أن نتذكّر دوماً، كما شرح فصلٌ سابقٌ لنا أن من «كتبَ غلبَ، ومن رقمنَ هيمنَ».

جبال من الوثائق السريّة (١١.٥ مليون وثيقة) تابعة لمكتب محاماة «موساك فونسيكا» البنمي، جرى الوصول لها بخفاء ودهاء، قبل أن تحلّلها ميكروسكوبات لجنةٍ من عشرات الخبراء والصحفيين، بمهنيّة وسريّة كاملة خلال تسعة أشهر!

النتيجة: «فضيحة بنما» التي كشفت النقاب عن مليارات تنطح مليارات، تُخفَى بعيداً عن الضرائب، أو تبيّض لتستر أصولها المظلمة الآثمة.

ثقة ما يستحق التأمل ملياً وبعمق في هذه الفضيحة التي هزّت العالم، وما زلنا في مستهل تداعياتها ونتائجها.

قد يظن البعض أولاً أن شلالات الدولارات هذه تتدفق في بنما. كلا، لو كان ذلك لكانت بنما أغنى دولةٍ في العالم. دور بنما هنا يشبه دور «شاهدي الزور» الفقراء، الذين يقبعون بجانب محاكم بعض الدول الإسلامية الفقيرة الفاسدة: يمكن جلب أحدهم إلى قاعة المحكمة ليشهد زوراً على قضية لا يعرف عنها شيئاً قبل ذلك، ويحلف بالمصحف الكريم مقابل مبلغٍ زهيد يسمح له بأكل لقمتين، يعطيه إياه المتهم سرّاً، لِينقذ نفسه من العقوبة بفضل شهادة كاذبة!

كذلك هو دور بنما في هذه الفضيحة الدولية.

لتوضيح ذلك، يلزم التذكير بأن ما كانت تُسمّى بـ «الجنّات المالية»، كسويسرا ولوكسمبورغ، وجدت نفسها، بعد الأزمة المالية في ٢٠٠٨، ملزمةً، حسب القوانين الأوروبية التي لحقت الأزمة، بالإفصاح للدول الأوربية بأسماء كل من يودعون أموالهم في أقبية بنوكها، للتأكد من شفافيتها وقانونيتها.

ذلك يعني أن على أموال الغشاشين، ممن يريدون إخفاء مبالغهم المالية على الضرائب أو استخدامها في أمور مظلمة، أن تكون باسماء ملاك وهميين، يلعبون دور شاهدي الزور تماماً.

هذا ما تقوم به شركة المحاماة البنمية: تسهل للغشاشين خلق «مرايا شركات» كما تسمّى، أي شركات سرابية تدير أموالهم المودعة في البنوك، بأسماء ملاك بنميين لهذه الشركات، فيما يظل الغشاشون المالكين الحقيقيين لهذه الأموال، يستخدمونها خلف الأقنعة كما يحبّون. ما يهم فقط أن لا يظهروا على السطح، وأن لا يمسّهم مكروه لذلك.

إحدى النساء البنميات تمتلك باسمها ٣٤٠٠٠ شركة؛ راتبها الشخصي مقابل

تصريح اسمها كمالكة زور لكل هذه الشركات: ١٠٠٠ دولار لا غير. وما يدفعه الغشاش، مقابل إخفاء اسمه، نحو ٧٠٠ دولار سنوياً لكل شركة، لمكتب المحاماة البنمي الذي يتولّى خلق وتنظيم وإدارة لعبة الزور هذه! أما المليارات، كل المليارات، فلا تدخل بنما بالطبع. تسيل وتشتغل في الجنّات المالية في الدول الغنية، مجراها ومرساها، كما كانت دوماً قبل القوانين التي لحقت أزمة ٢٠٠٨، وقادت لتصميم تلاعبات البهتان اللئيمة هذه!

نحن هنا أمام شلالات نياغارا من مليارات الدولارات في الحقيقة، لم يُتعب أحدٌ نفسَه حتى الآن ليحسب كم سترفع من مستوى معيشة الناس في هذا العالم، وكم ستدعم التعليم والثقافة في كوكبنا المنهوب، فيما إذا طبّق القانون على من يخفونها واستُعيد ما يلزم استعادته منها وفقه.

من كشف هذا السّر؟

سؤال مهمّ يلزم لاستيعابه ملاحظة أن عالمنا اليوم يغرق في أمواج متلاطمة من المعلومات التي تتقاذفها شبكة الإنترنت. أضحى، بعد أن دخل عصر البيانات العملاقة Big Data الذي تناولنا معالمه في فصول سابقة، مسرح صراع بين قوّتين:

الأولى قوّة التجسس الآلي للاستخبارات الدولية، ولا سيما الأميركية، التي تشبه اليوم أذناً هائلة تغلف الكرة الأرضية، تشفط من العالم الرقمي كل بيانات صغيرةٍ وكبيرة تخصّنا فيه، كل معلومة، وتقذمها إلى برامج ذكيّة تستخلص منها معارف فطينة دقيقة عن كل حركاتنا وسكناتنا، ونياتنا المستقبلية أيضاً.

والثانية قوّة شبكة مناضلين مقاومين لهذه السلطات، تراقب، تتقصى، تدين، وتعطي تقويمات لما تمارسه السلطات السياسية والمالية من انتهاك للديموقراطية والقوانين.

منظمة الصحفيين والمتخصصين التي أسهمت بتقصي وكشف فضيحة بنما تنتمي إلى هذه القوة الثانية التي تنظّم نفسها اليوم أكثر فأكثر من أجل الديموقراطية والإنسان.

«الهاكرون» اللاأخلاقيون على الإنترنت الذين يختفون في الأوكار والمستنقعات ينتمون إلى القوة الأولى، و«الهاكرون» الأخلاقيون الذين يعقدون اجتماعاتهم الدولية الدورية تحت الشمس ينتمون إلى الثانية.

بين هؤلاء وهؤلاء لم يعد مفهوم السر اليوم كما كان عليه قبل زمن الإنترنت: كل ما يبعثه الإنسان من إيميلات، كل ما يكتبه، كل حركات مبالغه المالية، كل ما يقوله في مكالماته، تتلقفه آذان، هي الأخرى محل مراقبة آذان مقاومة مضادة.

غفرانك فرويد: غرفة الأسرار في النفس البشرية لم تعد مقدسة مغلقة بالأقفال في عصر البيانات العملاقة و«الأخ الأكبر» الذي تنبأ به جورج أورويل في روايته الفذّة: ١٩٨٤!

قد لا يعرف أحدٌ كيف وصلت القوّة الثانية إلى كمبيوترات شركة موساك فونسيكا، أو هل حصل ذلك بمجرد تسريب، أو عبر «هكر» برامج كمبيوتر مضادة ذكيّة تتقصّى الدول والشركات المتعددة الجنسية وتراقب اختراقاتها للقوانين.

لا تهمّ كثيراً هذه التفاصيل. ما يهمّ اليوم أنها حقّقت نصراً مهماً للإنسان المقاوم.

كثير من اللصوص لم يناموا بعد هذه الفضيحة. بعضهم أعاد لبلده كل ما نهبه بشكلٍ غير قانوني، قبل فتح الملفات القضائية؛ تسترد فرنسا مثلاً نحو ستة مليارات يورو من هؤلاء. وبعضهم تنتظره السجون بكل بساطة.

علاوة على ذلك، شكّلت لجنة أوروبية، بميزانية خاصة، لتدرس ملف كل أوروبي مسته الفضيحة. كذلك فعلت أميركا.

غير أنه لا ينبغي المبالغة: لن تمسّ هذه المتابعات القانونية كبار الديناصورات، ولا سيما في الدول التي لا سلطة حقيقية للقانون فيها، كروسيا التي لجأ بوتين فيها إلى مبدأ الإنكار، على الطريقة السوفياتية، واعتبر هذه الفضيحة مؤامرة غربية ضد روسيا. أو كدولنا العربية، التي لم تكلف نفسها عناء الالتفات إلى ما يمسّها من فضائح شاسعة، فما بالكم ببث البرامج التلفازية الاستقصائية الكاشفة؟

ماذا كان سيقول ماركس عن فضيحة بنما؟

ماركس، مكتشف دور المال في حياة البشر، مثل آينشتاين مكتشف نسبية الزمن، داروين مكتشف أصل الأنواع، وفرويد مكتشف خبايا اللاوعي، هم عمالقة فكر وعلم العصر الحديث.

الأوّل هذا قضّى حياته فقيراً مطارداً، متنقلاً مع زوجته جاني وأطفالهما الستة من شقّة إلى شقّة لا يمتلكون ثمن إيجارها، اعتبرته سلطات الغرب حينها: الإرهابي الأوّل في العالم، فيما كان يقضي حياته يكتب، في غرفٍ بائسة، مؤلفات خالدة، مثل «رأس المال»، لم يكسب مقابلها رأس مال علب سجائره!

لكنها هزّت العالم وغيّرت حركته، وما زالت محلّ اهتمام ودراسات طلاب الثانويات والجامعات والفلاسفة، وأكثر صحّةً وحيويّة من أي وقتٍ مضى، رغم تشويه التجربة السوفياتية لها، ولا سيّما في ما يتعلق بتحليلها لبنية الرأسمالية وعطبها الجذري.

امتحان الفلسفة (المادة الوحيدة المشتركة في كل أقسام الثانوية العامة الفرنسية الأدبية والعلمية والمهنية) كان قبيل سنوات حول حصيلته الفلسفية.

كان ماركس سيقرأ لنا نصه هذا الذي كتبه بلسان حال رجل مال مافياوي، كهؤلاء الذين مستهم فضيحة بنما:

«قوّتي تنبع من المال. محاسن المال محاسني وسلطتي الجوهرية. كينونتي ومقدراتي لا ترتبط بذاتي: أنا قبيح، لكني أستطيع شراء أجمل نساء الكون. لذلك لستُ قبيحاً، لأن مفعول القبح وقوّته الطاردة يلغيها المال. أنا شرير، غير أمين، بدون روحٍ وضمير، لكن الناس تعبد المال، ولذلك تعبدني».

خلاصة القول: ما كان ماركس سيندهش من فضيحة بنما، هو الذي يعرف أكثر من أي إنسان أن هوس رجل المال لإضافة المليار العاشر، لمليارات دولاراته التسعة، لا يقل عن هوس جائع فقير يسعى إلى البحث عن عشاء ليلته. لكنه هوسٌ أكثر شراسة ومكراً.

المؤلف

- من مواليد عدن، ١٥ أغسطس ١٩٥٦.
- بروفيسور جامعي في علوم الكمبيوتر بقسم هندسة الرياضيات التطبيقية (كلية العلوم التطبيقية، روان، فرنسا)، منذ ١٩٩٢.
- روائي وكاتب ينشر بانتظام في المجلات والصحف العربية (العربي الجديد، الحياة، القدس العربي...) والصحف الفرنسية (ليبراسيون، اللوموند).
- يشرف على مشاريع فرق أبحاث جامعية دولية مشتركة، وعلى كثير من أبحاث الدكتوراه.

صدر له:

في الرواية:

- **الملكة المغدورة،** (بالفرنسية)، دار لارماتان، فرنسا، ١٩٩٨، ترجمها للعربية علي محمد زيد، دار المهاجر، اليمن، ٢٠٠٢.
- **دملان،** دار الآداب، ٢٠٠٩.
- **طائر الخراب،** رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، ٢٠١١.
- **عرق الآلهة،** رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، ٢٠٠٨.
- **تقرير الهدهد،** دار الآداب، لبنان، ٢٠١٢.
- **أروى،** دار الساقي، لبنان، ٢٠١٣.
- **ابنة سوسلوف،** دار الساقي، لبنان، ٢٠١٤
- **حفيد سندباد،** دار الساقي، لبنان، ٢٠١٦

في القصة:

- **همسات حرّى من مملكة الموتى،** دار العفيف الثقافية، اليمن، ٢٠٠٠.

في الشعر:

- **شيءٌ ما يُشبهُ الحب،** دار العفيف الثقافية، اليمن، ٢٠٠٢.

في الفكر:

- **عن اليمن،** ما ظهر منها وما بطن، دار العفيف الثقافية، اليمن، ٢٠٠٥.
- **لا امام سوى العقل،** رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، ٢٠١٤.

نُشرت له كتب علمية عديدة، وأكثر من ١٠٠ بحثاً علمياً، بالفرنسية والإنكليزية في مؤتمرات ومجلات علمية دولية محكمة.

اثنان أهل الأرض

فنُّ الحدادِ على الذات